علي بن إبراهيم النملة

فكر الانتماء في زمن العولمة

وقفات مع المفهومات والتطبيقات



مكتبات ونشر العبيكان
Obeikan
Publishers & Booksellers

فكر الانتماء في زمن العولمة
وقفات مع المفهومات والتطبيقات

فِكْرُ الانْتِمَاءِ فِيْ زَمَنِ الْعَوْلَمَةِ

وَقَفَاتٌ مَعَ الْمَفْهُومَاتِ وَالتَطْبِيْقَاتِ

إعداد

د/ علي بن إبراهيم الحمد النملة

أستاذ المكتبات والمعلومات

مكتبة العبيكان
Obeikan
Publishers & Booksellers

ح

علي بن إبراهيم الحمد النملة، ١٤٢٧

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر .

النملة علي بن إبراهيم

فكر الانتماء في زمن العولمة. / علي بن إبراهيم

النملة. - الرياض، ١٤٢٧هـ

٣٢٤ ص : ١٤×٢١ سم

ردمك: ٦ ـ ٢٦٣ ـ ٥٢ ـ ٩٩٦٠

١. العولمة ٢. القومية أ. العنوان

ديوي ٣٢٧ ١٤٢٧/٦٠٢

ردمك: ٦ - ٢٦٣ - ٥٢ - ٩٩٦٠ رقم الإيداع: ١٤٢٧/٦٠٢

الطبعة الأولى

١٤٢٧/٢٠٠٦م

الناشر

العبيكان Obeikan Publishers & Booksellers

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

ص.ب: ٦٢٨٠٧ - الرمز: ١١٥٩٥

هاتف: ٤١٦٠٠١٨/٤٦٥٤٤٢٤ - فاكس: ٤٦٥٠١٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

«الانتماء هو الانتساب, الذي يجسّد خيوط الولاء, التي تشدُّ الإنسان المنتسب إلى ما انتسب إليه, فيرتبطُ به, وينجذبُ إليه, ويخلص له الولاء والانتماء».

محمّد عمارة. الانتماء الثقافي. - ص ٨.

المحتويات

التمهيد

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على سيِّد الأولين والآخرين، نبينا **محمَّد بن عبدالله**، وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا، وبعد:

فهذه وقفات، كانت مبثوثة في بطون الصحف العربية السعودية (**الجزيرة والبلاد وعكاظ**)، متقاوتةً في زمن نشرها ومناسباتها، ويمكن أن ينظر إليها من منطلق الانتماء، الذي يعاني من محاولاتٍ للتخفيف منه، في ضوء الاندفاع نحو مفهوم العولمة، التي يظهر أنها قد تأتي على حساب المعطيات الانتمائية للأمم والثقافات المختلفة، ومنها الأمة والثقافة الإسلامية. وقد جاءت هذه الوقفات لتناقش مجموعة من المفهومات والمصطلحات، التي يظهر أنها تتعرَّض لقدرٍ من سوء الفهم، إمَّا بالتوجُّه إلى المبالغة في فهمها، فهمًا يتطرَّف في توظيفها، أو بالتوجُّه إلى تعطيلها من مؤدَّاها اللغوي والاصطلاحي، الذي اشتهرت به. وهذا قد يعني شيئًا من الإسهام في تذويب مفهومات قامت عليها الثقافة العربية الإسلامية، وترسخَّت عبر القرون.

وتعتمد هذه المفهومات على عواملَ ذاتِ علاقةٍ بالمعتقد، من حيث التصديقُ، أو الإيمان، وتفعيلُ هذا التصديق، على سلوكيات المرء والمجتمع، ونظرته للحياة، من منطلق انتمائي تأصيلي، يسعى إلى الغوص في التراث، ويتلمَّس روح العصرانية، ويعمد إلى التوكيد على المنهج الوسط والاعتدال والسماحة، في زمن شاع فيه الغلوُّ والتطرُّف، والغلوُّ والتطرُّف المضادُّ، في فهم الدين والحياة، والعلاقة مع الآخر، ونتج عن ذلك إساءات دفعت الأمَّة ثمنَها باهضًا، وأُسيء إلى المبادئ والمُثُل، القائمة على أحكام الدين العامة. وكان هذا على حساب تنمية الفرد والمجتمع، كما كان على حساب تنمية العلم والفكر، وإعمال العقل في ضوء سلامة الفهم للنقل.

لا تدَّعي هذه الوقفات أنها تقدِّم حلولاً تنظيرية في قوالب جاهزة، بقدر ما تسعى إلى إثارة القضايا، والتنبيه على خطورة الوضع الحالي المتَّكئ على السعي إلى فهم الدين وعلاقته بالناس، إذا لم يعمد ذوو الألباب إلى تلافي هذا الموقف المؤلم، الذي أدَّى إلى العزلة، مما نتج عنه تداعي الأمم الأخرى على هذه الأمة، لا من قلَّة، ولكن لما أصابها من الوهن، في ظل تنامي ما أُطلق عليه بالنظام العالمي الجديد، لاسيَّما بعد انتهاء الحرب الباردة، وزوال القطب الآخر، الذي كان له أثر في

التوازن، فخلا الجوُّ للقطب الواحد، فطفِق يبحث عن خطر آخر، أو، كما يعبِّر بعض الكُتَّاب، عدوٍّ آخر.

ولم تَخفَ، في هذه الوقفات، نبرةُ التفاؤل، رغم كلِّ شيء، ولذا كان هناك توكيد مستمرٌّ على النزوع عن جلد الذات والشعور بالهوان والضعة، وتلمُّس المنهج الوسط، في النظر إلى الأشياء، دون لجوءٍ للإفراط أو التفريط، إذ إن ذلك لا يتوافَق مع منطلقات هذه الثقافة، المبنية على فكر مستمدٍّ من كتاب منزَّل من حكيم خبير، وحديث من رسولٍ لم يكن ينطق عن الهوى. كما نزعت هذه الوقفات إلى تلمُّس منهج الوسط والاعتدال في مناقشة موضوعات الانتماء، دون اللجوء إلى منهج الاعتذار، أو التسويغ في طرح الموضوعات، ومع هذا فقد سيطر هاجس التحسُّس من أن تميل بالقارئ إلى التشدُّد، أو التطرُّف والغلوِّ، في معالجة مفهوم الانتماء ومؤثِّراته، بحيث لا يفهم منها أنها دعوة إلى الانغلاق على الذات، بدعوى التوكيد على مفهوم الانتماء.

وقد جرى تقسيم هذه الوقفات إلى خمسة فصول، وتحت كلِّ فصل اثنتا عشرة وقفة، سعيتُ فيها إلى إدراج الوقفات ذات العلاقة بالفصل، ومع هذا فإنه يمكن القول إن الفصول

الأربعة الأخيرة إنما تقتات من الفصل الأول، الذي ركّز على المفهومات والمصطلحات.

وتظلُّ هذه الوقفاتُ تعبيرًا عن ذاتية الواقف، وتحتمل الأخذَ والردَّ، مثلها مثل أي وقفات تتناول الشأن العام، أو الشأن الثقافي والفكري، وفي سياق يجعل الانتماء منطلقًا لتوليد الأفكار، وتسويقها وتبنِّيها وقبولها.

شكر وتقدير

وما كانت هذه الوقفات لتصلَ إلى ما وصلت إليه، وتُجمع بين دفَّتي كتاب، لولا توفيق الله تعالى، ثمَّ وقفات على هذه الوقفات، من زملاء وأحبَّة، كان لهم الفضل، بعد فضل الله، في خروجها بهذه الصورة، وهم الصديق الزميل الدكتور **يوسف بن أحمد العثيمين**، الذي تفضَّل بقراءتها أكثر من مرَّة، وأجرى عليها قلم الناقد المقوِّم. والصديق الزميل الأستاذ الدكتور **إبراهيم بن محمد الحمد المزيني**، والصديق الزميل الأستاذ **محمَّد بن عبدالعزيز الهزَّاع**، الذين كانت لهم بصماتهم على هذه الوقفات، بحيث حُقَّ لهم أن يكونوا شركاء فيها. فلهم مني جزيل الشكر والثناء والامتنان.

ولا تتمُّ وقفة الشكر والتقدير هذه، دون التوكيد على شكري لأهلي، الذين وقفوا معي وَقفة المساند، المساعد، المذلِّل، لما قد يقف حائلاً دون المضي قُدُمًا في إخراج هذه الوقفات، وما كان قبلها، وما يأتي بعدها، بإذن الله تعالى. وكان الله في عون الجميع.

علي بن إبراهيم الحمد النملة

الرياض – ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م

الفَصْلُ الأوَّلُ

وَقَفَاتٌ
مَعَ الْمَفْهُوْمَاتِ وَالْمُصْطَلَحَاتِ

الوقفة الأولى: المنتمي

منذ أن اطّلعت على كتاب: المنتمي: دراسة في أدب نجيب محفوظ،[١] منذ سنوات طويلة، وأنا أنظر إلى أيٍّ كاتب، أقرأ له، أو عنه، أو أسمع عنه، من هذا المنطلق، منطلق الانتماء وغير الانتماء، فوجدت، إلى الآن، أن أكثر الذين يلقون إقبالا من أدباء الصحافة هم أولئك الأدباء والكُتّاب غير المنتمين، بحيث لا يخرج لغير المنتمي كِتاب، قصةً كانت أم روايةً أم دراسةً، وبحيث لا يخرج للكاتب غير المنتمي حديث في الصحافة، إلا وتجد كتّابَ أو أدباء الصحافة يتهافتون في الإشادة بما صدر لهذا الكاتب غير المنتمي، بينما تظهر كتب روائية، أو قصصية، أو دراسات للكُتّاب المنتمين، فلا يكاد يعلم عنها أحد، سوى المتخصِّصين، من المتابعين للحركة العلمية والأدبية.

وعندما يكتب الكاتب أو المؤلّف المنتمي بلغة مفهومة وبسيطة، لكنها سليمة، يُعرِض عنه أولئك الذين يبحثون عن الكتابات الغامضة "المطلسَمة"، التي ظهرت علينا في الثلاثين سنة الماضية، بحيث أصبحت الحذاقة أن تكتب ما لا يُفهم، حتى يقال عنك إنك كاتب متمكّن. ورغم أفول نجم هذا الأسلوب في

---

(١) انظر: غالي شكري. المنتمي: دراسة في أدب نجيب محفوظ. - القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٩م. - ٤٦٣ ص. (سلسلة مكتبة الدراسات الأدبية: ٥١).

التعبير،(١) إلا أن روَّاده الأوائل لا يزالون يَتَشوَّقُون إليه بين الفينة والأخرى، ويتشدَّقون فيه. ومثل هذا يقاس على أيِّ حدث يمرُّ بالأمَّة، عمومًا، أو بالوطن خصوصًا. إذ تجد أن هناك اندفاعًا لأي حدث غير منتمٍ، يحدث في محاولة للخروج عن مفهوم الانتماء، وكأنَّ الانتماء أضحى عيبًا أو مسبَّةً، بما في ذلك استخدام اللغة نفسها، بوصفها أداةَ التعبير عن الانتماء.

وأحسب أن هذا التوجُّه، رغم الإصرار عليه ومتابعته وتقديم روَّاده، سيظل تحت مفهوم الزَّبد، الذي يذهب جُفاءً، إذ ما يلبثُ الناس يبحثون عن الانتماء، في غير الانتماء، حتى يعودوا إلى الانتماء، الذي كانوا عليه. وهذا ظاهر في الأفكار، واضحٌ، عندما جرَّبت الأمَّة التخلِّي عن انتمائها الفكري، المبني على الدِّين، فبحثتْ في أفكار وضعيَّة، وضعها الناس، ولم يضعها خالق الناس، فجالوا فيها وصالوا، حتَّى وجدوا أنها زبَدٌ ذهب جُفاءً، فعاد كثير منهم إلى ما ينفع الناس. ولكنها عودة الكبرياء التي تستحي من الحق والإفصاح عنه، وأنه هو الحقُّ.(٢)

---

(١) انظر: عبدالوهَّاب المسيري وفتحي التريكي. الحداثة وما بعد الحداثة. - دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٣م. - ٣٦٨ ص. - (سلسلة حوارات لقرن جديد).

(٢) انظر: كولن ولسون. اللامنتمي. - ط ٥. - بيروت: دار الآداب، ٢٠٠٤م. - ٣٣٩ ص. وانظر له، أيضًا: ما بعد اللامنتمي. - ط ٦/ نقلها إلى العربية يوسف شرورو وعمر يمق. - بيروت: دار الآداب، ١٩٨٧م. - ٢٨٠ ص.

ومثل هذا يُقال في المذاهب الأدبية والفنية، التي تمرَّدت على واقعها، الذي عاشت فيه، عندما رأت نفسها تعالج فراغًا في الفكر، خلَّفه الأوصياء عليه، من خلال رؤية كهنوتية، زعمت أنها تملك القدرة على الغفران، وتملك، كذلك، منحه لمن ينقاد لهذا المفهوم الكهنوتي، الذي يقدِّس الأشخاص، على حساب تقديس خالق الأشخاص. فكان أن استورد بعضٌ من أصحابنا هذه المفهومات المتمرِّدة على واقع غير واقعهم، ولكنهم لم يجدوا المتمرَّد عليه في بيئة الانتماء، فما وجدوا مجالا للتمرُّد، عندما أرادوا أن يتمثَّلوا الواقع الآخر، بمظهره، لا بمخبره، فكان غير الانتماء نتيجةً لهذا التقليد المسطَّح لواقع مُرٍّ، ثم كان القلق والعيش على الهامش، بحجَّة الإبداع، مع محاولات جرِّ بعض "المتأدِّبين، لاسيَّما الصغار، إلى هذا الهامش، على حساب الانتماء والخصوصية.

والخصوصية مفردة تكاد تُحدثُ قلقًا، أيضًا، عندما تردُ في مساقات الطرح الفكري، لاسيَّما في زمان العولمة، التي يراد منها، ظاهرًا، خلع أيِّ شكل من أشكال الخصوصية الثقافية والمكانية،[1] الأمر الذي لا يمكن أن يتحقَّق، مهما وصلت العولمة

(١) انظر النقاش والمناظرة حول عولمة الثقافة في: برهان غليون وسمير أمين. ثقافة العولمة وعولمة الثقافة. - ط ٢. - بيروت: دار الفكر، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م. - ٢٤٠ ص. - (سلسلة حوارات لقرن جديد).

إلى ما يراد لها أن تصل إليه، إذ سيظل هناك طلب شديد وقويٌّ على الاستثناءات الفكرية والثقافية والمكانية.

وخصوصيَّتنا في مجتمعنا هذا نابعة من انتمائنا إلى دين، لم يضعه إنسان، في زمان مضى، ومكان آخر، بل أنزله خالق هذا الإنسان تامًّا كاملاً، من خلال كتاب أنزله الخالق على مَن اصطفاه من خلقه – عليه الصلاة والسلام –، فجاء كاملاً لكلٍّ من يبحث عن الانتماء، الباعث على الأمان والسكينة والطمأنينة، والسعادة الشاملة، لا السعادة الفردية فقط. وبذا جاءت الأحكام التي تقود إلى هذه المفهومات، دون الإخلال بعمارة الأرض، وتنمية الاقتصاد، والخوض في السياسة، وتعاطي الفكر والثقافة والأدب والفن، من منطلق المنتمي الذي يبني، بالرغم من تلك الفقاعات، التي لا يدرك أصحابها أنهم بإطلاقهم لها يعطِّلون البناء المنتمي، بل ويؤخِّرونه سنوات، وقد أثبتت التجربة ذلك.

ومهما حاولنا التنصُّل من هذه الخصوصية فإنها ستظلُّ ملازمةً لنا، لاسِيَّما إذا كان هناك توكيد على أن هذه الخصوصية، التي نتحدَّث عنها، خصوصية منطلقة في محيط المنتمي، وليست تلك الخصوصية المثبِّطة، التي تعيدنا إلى الوراء، أو تحدُّنا عن الإقدام.[١] وهكذا ينبغي أن نفهم الخصوصية.

(١) انظر في مفهوم الخصوصية: علي بن إبراهيم النملة. السعوديون والخصوصية الدافعة: خواطر في مفهوم التميُّز في زمن العولمة. – الرياض: المؤلف. ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م. – ٣٨٠ ص. (تحت الطبع).

ومحاولة الخروج عن هذه الخصوصية ونبذ الانتماء لم تفلح، بحق، من قبلُ، ولن تفلح من بعدُ، لاسيَّما في زمن البحث عن الانتماء، الذي يراد منه التميُّز، في زمان تسعى فيه قوىً إلى تذويب التميُّز.[1]

(١) انظر: عبدالرحمن بن صالح العشماوي. بلادنا والتميُّز: مقالات نثرية. – ط ٢. – الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م. – ٣١٦ ص.

الوقفة الثانية: الأدب

كلمتان من قصيدة جميلة صاغها الشاعر احمد بن صالح الصالح "مسافر"، يخاطب فيها ابنه محمَّدا، بدأها بقوله:

وَلَدِي "مُحَمَّدُ" وَالْحَدِيْثُ مُحِيِّرُ

يَا بَعْضَ نَفْسِي وَالْمُنَى بِكَ تَزْهُرُ

نُشرت كاملةً في مجلة المعرفة،[1] فتفاعلتُ معها، لما جاء فيها من معانٍ سامية، ذكَّرتني بما كنَّا نقرأه من القطع الشعرية في العصور الإسلامية الأولى، ولكنَّها من حيث المحتوى تحكي الواقع المعاش، الذي يواجه الشباب اليوم في تحديَّات معاصرة، تتمثَّل في العزوف عن العمل، وبالتالي وجود الفراغ، الذي يولِّد رغبة جامحة في شغله بأيِّ نشاط، وقد يكون النشاط غيرَ محمود، ضررُه أكثر من نفعه. والمغريات اليوم كثيرة. لقد قرأت القصيدة فأعجبتني من شاعر معاصر، فقلت: أين هذا الشاعر من الإعلام في الصفحات الثقافية والأدبية، التي تملأ الصحف السيَّارة، اليوم، بأحاديث وأشعار لا نستطيع قراءتها، ناهيكم عن الإفادة من محتواها.

(١) احمد بن صالح الصالح (مسافر). بعض نفسي. - المعرفة. - ع ٢٨. (رجب ١٤١٨هـ). - ص ١٢٨ - ١٢٩.

هذا إن لم يكن في بعض هذه الأشعار ما يوحي بالخروج عن الملّة، فتُهلّل له بعض الصفحات والملاحق، ويكون صاحبها في عداد المفكّرين، محطّ أنظار المقابلات الصحفية والإذاعية والتلفزيونية، والمحافل الأدبية والثقافية. فضاعت في هذا حصّةٌ كبيرةٌ من النفع العظيم، الذي كنّا نجنيه من الشعر والشعراء، لأنهم باتوا يقولون ما يصعب فهمه، مع أن القابلية للفهم لدى المتلقّين قائمة متجدّدة.

والذائقة الشعرية تتطلّع إلى أن تهتزَّ طربًا، بالأدب الرفيع والمعنى السامي، حتّى في مواطن الغزل والأحاسيس والمشاعر، فلسنا نبحث عن الحكمة عند كلّ الشعراء، ولكنها فيهم موجودة، حتى في طرْقهم لأبواب الشعر الأخرى في الغزل والمديح والوصف والهجاء والوصية، كما في هذه القصيدة التي بلغت سبعةً وعشرين بيتًا، شغلت صفحتين في مجلة مرموقة مثل مجلّة المعرفة.

ولقد ظهرت في سماء الأدب العربي السريع أسماء لمعت، وعندما بحثنا عن سرّ هذا اللمعان، وجدناه يكمن في خروجها عن المألوف العربي، القائم على الإيمان، والابتعاد عن الإهانة والتجريح لرموز الدين. ووجدنا هذه الأشعار تتطاول على الذات الإلهية، وتقلّل من قيمة الرسالات السماوية، وتُهين الوحيَ المنزَّل، وتعبث بالقيادات الإسلامية، السابقة والحاضرة. ومن هنا اكتسبت هذه الأسماءُ التلميعَ، ولكن بعض أصحابها أفضوا، فربَّما لم يدعُ لهم أحد، أو قلَّ الداعون لهم، وربَّما لم يتركوا عملًا صالحًا، أو

تركوا عملاً صالحًا قليلاً، أو صدقةً جارية، ربَّما تكون شافعة لهم على ما تركوا من أشعارٍ قد تكون شاهدةً عليهم، لا شاهدةً لهم. وربَّما لم يترك بعضهم ولدًا صالحًا يدعو لهم، وإن كان بعضهم الآخر لم يخلُ من تركِه أولادًا صالحين، يستغفرون له آناء الليل وأطراف النهار.

وصار الاتجاه إلى الطلاسم والتمرُّد على الواقع، بل على معطيات الثقافة العربية التي تستقي مقوِّماتها من الإسلام، وصارت الإهانةُ إلى هذه المعطيات ديدنَ هؤلاء الشعراء، وكلما تمرَّدوا عليها زادت شهرتهم، وبالتالي زادت مساحة النشر لهم، على حساب الكلمة الطيِّبة، أو على حساب الكلمة الشاعرية، حتَّى تلك التي تخالج الوجدان، وتثير مكامن العاطفة لدى الناس، من صنوف الغزل العفيف، الذي لا ينزل إلى حدِّ البذاءة والتسطيح في المعنى والمضمون.

أمَّا شعراء الحكمة والالتزام، بأدنى حدود الالتزام، فقد جرى لهم تجاهُل، وشكَّك النقَّاد في شاعريتهم، وعدُّوا شعرهم ضربًا من النَّظْم، كما كانت بعض العلوم تُنظم شعرًا، أو نظمًا، وكانت منها فائدة عظيمة، ولكنها تعرَّضت للهجوم الذي تعرَّض له التراث عمومًا. ولعلنا نتذكَّر الحملة على ما سمُّوها، حينها، بالكتب الصفراء، التي لم تعُد كذلك، اليوم، شكلا ومضمونًا، إذ إنها قد أُدخلت في الحاسوب، ويتداولها الناس اليوم

بالأقراص المدمجة، كما أن الناشرين قد عادوا إلى الورق الأصفر، الذي يفوق، سعرًا وجودةً، الورق الأبيض.

وعلى أي حال فقصيدة الشاعر **مسافر** تدغدغ عواطفَ كلِّ الآباء والأمَّهات، الذين يكون لديهم أولاد، بنون وبنات، في سن **محمَّد**. كما أنها تصلح لأن تكون تعبيرًا لحال كلِّ أب لديه ولد مقبل على الحياة، ووجدتني واحدًا من هؤلاء الآباء الذين يريدون من أولادهم أن يكونوا فوق ما نرجو وما نتصوَّر، كما يقول الشاعر لابنه. ووجدت أن لديه أخواتٍ هن مثل أخوات **محمَّد**، كما أن لديه أجدادًا مثل أجداد **محمَّد**، وإن لم يكونوا معه في البيت، ولكنهم قريبون منه. ووجدت أن له أمًّا كما أُمّ **محمَّد**، تخشى عليه، ودمعها يتحدَّر، وترعاه منها أعين لا تفتر، وإذا تبسم تبسَّمت أيامُها، ورأت بوجهه ألفَ صبح يسفر... وهكذا من الأبيات الجميلة، وجدتني قد تفاعلت معها في وقت تقلَّصت فيه هذه المعاني لدى بعض الشعراء، الذين تحفل بهم بعض الملاحق الأدبية في الصحافة العربية.

كل هذه الخواطر أثارتها قصيدة **يا بعض نفسي** للشاعر المنتمي **مسافر**، التي أثارت فيَّ إحساس الأب، الذي يسعى إلى أن يكون ولده خيرًا منه، فطوَّع الشاعر قدراته وحكمته لخدمة هذا الغرض النبيل. وكان بإمكانه، وهو القادر على ذلك، أن يطرق أبواب الطلاسم، ويشرِّق ويغرِّب، ويوغل في الرمزيَّة، ثم لا يخرج من ذلك إلا بالشعور بأنه لم يأتِ بشيء.

والمرجو أن يكون هذا التوجُّه إنما هو فورةٌ أدبيةٌ، تابعةٌ لفورة أدبية غربية، زالت منذ مدَّة، وعاد أصحابها ومنشئوها إلى أصولهم، في النظرة إلى الأدب، ومنه الشعر، فابتعدوا عن الطلاسم. وابتعدوا عن أن يكون الأدب نفسُه معولَ هدم للمبادئ والمثل، وسلاحَ تمرُّد على العادات والتقاليد غير البالية، وبدءوا يستغلُّون الأدب في البناء والتلاحُم والعودة إلى الفضيلة، التي عانت في تلك المجتمعات معاناةً واضحةً، انعكست على جيل بأكمله، بل أجيال، تدفع المجتمعات ثمنه غاليًا، بفعل الأدب الفاضح، والأدب المنحرف، والأدب الثائر على كلِّ ما هو خير، فيه صلاح الأفراد والأُسَر والجماعات.(١)

فإذا كان الأمر مجرَّدَ فورة، فالمؤمَّل أن يعيد بعضُ من يروق لهم أن يجْروا وراء الطلاسم، والإيغال في الرمزية، النظرَ في مكانة الأدب في الأمَّة، وتأثيره على الأجيال، وكونه مقياسًا لمدى ما وصلت إليه الأمَّة من وعي ثقافي حضاري. وأخشى أن يؤرِّخ مؤرِّخو الأدب لهذه الحقبة، بأنها تلك الفترة التي ابتعد الأدب فيها عن الحياة، وأضحى يعبِّر عن حالة من الضياع في الانتماء، بل أضحى يعبِّر عن ضعف الانتماء، أو عدمه، فلا يكاد المرء يتعرَّف

(١) انظر: الفصل الحادي عشر: الموجة الثانية: صدمة الحداثة في مجتمع محافظ، والفصل الثاني عشر: الطرد الأوربي: فضيحة الحداثي. – ص ١٧٥ – ٢١٩. في: عبدالله الغذامي. حكاية الحداثة في المملكة العربية السعودية. – الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٤م. – ٣٠٢ ص.

على منبع هذا الأدب، إلا أن يخمّن أنه من الأدب الأجنبي، المنقول المترجم إلى اللغة العربية.

الوقفة الثالثة: العِلمانية:

لدينا في شريعتنا الإسلامية جملة من المصطلحات، المأخوذة من صُلب اللغة العربية، لها معنىً لغوي، كما أن لها معنىً اصطلاحيًا، أو شرعيًا، ويأتي هذا واضحًا عند الحديث عن شعيرة من شعائر الإسلام التعبُّدية التوقيفيَّة، كالصلاة، والصيام، والزكاة، والحج. وكثيرًا ما تعرَّفنا عليها، من حيث كونُها مصطلحاتٍ، بالتعرُّف، أوَّلا، على معناها اللغوي، ثم معناها الشرعي الاصطلاحي.

كما أن لدينا مصطلحاتٍ شرعيةً، تتعلَّق بتصنيف الأشخاص، من حيث قربُهم من الدين، أو بعدُهم عنه، فهذا محسنٌ، قد بلغ درجة الإحسان، وهذا مؤمنٌ، قد بلغ درجةً من الإيمان، والإيمان يزيد عندنا وينقُص. وهذا مسلِمٌ، يُطبِّق أركان الإسلام. ومن الناس من هو مسلِم، ولمّا يدخل الإيمانُ في قلبه. وهذه الفئة من الناس يُرجى لها في دنياها وآخرتها، ومع هذا فإن فيها البَرَّ والفاجرَ، وبينها العاصي والفاسق والمقصِّر، إلى آخر ذلك من المصطلحات التي عرفناها.

ثم إن هناك مِن المصطلحات الشرعية ما يتعلَّق بالخارجين عن الملَّة، أو مَن هم غير داخلين فيها، كالكافر والمنافق والمشرك. والكافر عندنا في النار. وداخل هذه المصطلحات مصطلحاتٌ فرعية كذلك. ولست أعلم تصنيفاتٍ اصطلاحيةً شرعيةً إلا

وتكون واضحةَ الدلالة، وردت بها النصوص من الكتاب والسُّنَّة، وأقوال العلماء.

ثم تخرُج علينا اليوم مصطلحات جديدة، في صياغتها، لا جديد فيها، في دلالاتها الشرعية، من حيث قربُها وبعدُها من الدين، نجد تساهُلا عجيبًا في إطلاقها وصفًا على أشخاص بأعيانهم. ومنها مصطلح العَلمانية،[١] الذي لم يُتَّفق - حتى الآن - على مدلول واضح لها، حتى اللفظ يأتي، أحيانًا، بفتح العين، وأحيانًا بكسرها، ويوصف بها الأشخاص، فيقال هذا شخص عَلماني. وعندما يُسأل مُطلِق هذا الوصف عمًّا يقصد بإطلاقه على شخص بعينه، طفق يبدي بعضًا من سلوكيات هذا الشخص العَلماني، وبعض تصرُّفاته، وربَّما أقواله، إن كان من أصحاب الأقوال والكتابات.[٢]

ثم يُسأل هذا المصنِّف: هل المصنَّف يدخل في أحد المصطلحات الشرعية المخرجة من الملَّة، أم أنه داخل في المصطلحات الشرعية

---

(١) ويبرز القلق في تحديد مفهوم المصطلح بشكل تصادمي لدى: رفعت السيِّد. العلمانية بين الإسلام والتأسلُم. - ط ٣. - القاهرة: كتاب الأهالي، ٢٠٠١م. - ٨٥ ص.

(٢) انظر في التحفُّظ على قبول المصطلح والمضمون: محمد بن حمود الفوزان. الانتفاضة على العلمانية وظهور الأصوليَّات الدينية. - بريدة: المؤلِّف، ١٤٢٣هـ. - ٢٣٨ ص. حيث يناقش المؤلِّف مظاهر رفض العلمانية لدى اليهود والنصارى والهندوس والصينيين الكونفوشيوسيين.

التي لا تخرج صاحبها من الدِّين، هل هو كافر، أم هو مشرك، أم هو منافق؟ وإن لم يكن فهل هو فاسق؟ أم هو عاصٍ؟ أم هو فاجر؟ وعندها يتحيَّر ذلك الشخص المصنِّف، لأنَّه، شرعًا، لا يملك أن يُخرِجَ أحدًا من الملَّة، إن لم يجد الدليل الواضح الصريح على ذلك، من نُطْقٍ بالكفر، أو اعتراف بالإلحاد، مثلا، من لدن المعني بالأمر.[(١)]

ولذلك فإنه من الصعب علينا، كثيرًا جدًّا، أن نعرِف من هو المنافق، الذي لم يعرفه الصحابة – رضوان الله عنهم – بعينه، في زمن المصطفى **محمَّد بن عبدالله** ﷺ. ومن الصعب علينا، كثيرًا جدًا، أن نصنِّف شخصًا بعينه بأنه كافر، وهو من المسلمين، ولكن بدا عليه ما قد يوحي بأنه خروج من الملَّة. ولكنه من السهل على بعضنا، وليس علينا كلِّنا، أن نصنِّف شخصًا بأنه عِلماني، أو أنه غير ذلك، ليُدخَل في تصنيفات أخرى، لا تنتهي عند حدٍّ من حدود التصنيف.[(٢)]

ولا تزال توجد صعوبة في التحديد الدقيق، من حيث التطبيق، لا من حيث المفهوم الاصطلاحي، لهذا المصطلح الطارئ على اللغة العربية والشرع، المنقول من لغة أخرى، ومن ثقافة أخرى. ويوجد

---

(١) انظر: عبدالوهَّاب المسيري وعزيز العظمة. **العلمانية تحت المجهر**. – دمشق: دار الفكر، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م. – ٣٣٤ ص. – (سلسلة حوارات لقرن جديد).

(٢) انظر في مسألة التصنيف: بكر بن عبدالله أبو زيد. **تصنيف الناس الظنّ واليقين**. – الرياض: دار العاصمة، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م. – ٩٨ ص.

اضطرابٌ في هذا المفهوم. من حيث التطبيق، توكيدًا، فإذا كان هذا المصطلح لا زال غامضًا، فما بالك بالمصطلح القادم بعده، القريب منه، الأشمل منه، وهو مصطلح **العولمة**؟ والمرجو ألا تُردَّدَ مصطلحاتٌ مولَّدةٌ، دون وعيٍ تامٍ بمدلولها اللغوي، ثم الاصطلاحي، **أوَّلا**. ثم دون وعيٍ لمفهومها ومدلولاتها، **ثانيًا**.

الوقفة الرابعة: العَولمة

ما يُقال في بعض المجالات عن الشخص بأنه عَلماني فيه تجوُّزٌ وتجاوزٌ، ولا يجوز. وإذا كان هذا هو الموقف من مصطلح **العَلمانية** ومشتقَّاته أو اشتقاقاته، رغم ما كُتب عنه فكريًا وثقافيًا وعلميًا، من مقالات وكتب ورسائل علمية، يُذكَر منها رسالة الشيخ **سفر بن عبدالرحمن الحوالي**، بعنوان **العَلمانية**،[1] إذا كان هذا هو الموقف من المصطلح، فإن الموقف سيكون أشدَّ عند الحديث عن مصطلح أحدثَ منه، وهو **العولمة**.[2] والغموض، هنا، ناتج عن السعي إلى تحديد موقف واضح، ودقيق، ومؤهَّل، من هذا المصطلح، فهناك من رفضه جملةً وتفصيلا، وهناك من قبلَه جملةً وتفصيلا. وهناك من توقَّف عنده، ولاحظ الاضطراب فيه، من الناحية الفكرية الثقافية، لا من الناحية التقانية – الاقتصادية – السياسية.

وكعادتنا في التعامل مع هذه المصطلحات المولَّدة نتوقف عندها طويلا وقصيرًا، لنطابقها بمعطيات ثقافتنا، من حيث القبولُ والرفضُ، فنجد أن هناك من يقول إن **العولمة** بأبعادها

---

(١) انظر: سفر بن عبدالرحمن الحوالي. **العلمانية: نشأتها وتطوُّرها وآثارها**. – مكَّة المكرَّمة: جامعة أمِّ القرى، ١٤٠٢هـ.

(٢) انظر: علي بن إبراهيم الحمد النملة. **وقفات حول العولمة وتهيئة الموارد البشرية**. – الرياض: المجلة العربية. ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م. – ٦٥ ص. – (سلسلة كتاب ملحق المجلة العربية: ٧٣).

المختلفة إنما هي مؤامرة على الإسلام، لا تختلف عن التيارات القديمة، كالاستعمار والتنصير والاستشراق والغزو الفكري. ولكنها أُعطيت هذا المصطلح المحايد، لتكون أقرب إلى القبول. وبسبب من عدم دقّة المصطلح في تحديده وضوحًا، ومقابلةً بالأصول عندنا، يظل مصطلحًا مضطربًا، يصعب معه تحديد الموقف العلمي المؤهَّل منه، رغم ما قد يُقال: إن العالم قد خطا خطوات بعيدة في هذا المجال، ونحن هنا لا نزال نناقش المفهوم ومدى قبوله أو رفضه، لأن هذا النقاش سيظل دائمًا، مادام هناك تخوُّفٌ في عقولنا الباطنة والظاهرة من أي مؤثِّر حادث، يُزاحم ما نحن عليه من منطلقات ومبادئ ومُثُل.[1]

وليست هذه الوقفة دعوةً للرفض، ولكنها دعوةٌ للتريُّث، وعدم الاستعجال في الرفض أو القبول، حتى يتَّضِحَ المصطلح، ويقابل بما أريد له أن يحلَّ محلَّه.[2] وقد وقفنا على مدار التاريخ الفكري والثقافي في التعامل مع هذه الحركات، مهما تلبَّست

---

(١) الحديث عن العولمة هو الموجة الفكرية الأخيرة. وهناك من يرحِّب بها. وهناك من يرى أنها تحدٍّ جديد لأسلوب قديم. فظهرت عنوانات الكتب تحمل أمثال: نُذُر العولمة، وخيبات العولمة، ومناهضة العولمة، وفخ العولمة. والعولمة بين الأنصار والخصوم، وعولمة الإرهاب، وعولمة الرعب، وعولمة الفجور، وعولمة القهر، وعولمة الفقر، والعولمة والإرهاب، والعولمة والقيم، وويلات العولمة، وضد العولمة، وتهافت العولمة، وغيرها كثير. وبعض العنوانات أقحمت المصطلح، دون أن تكون لها، بالضرورة، مناسبة.

(٢) انظر: رجب بو دبوس. **العولمة بين الأنصار والخصوم**. - المايه، (ليبيا): تالة، ٢٠٠٢م. - ١٥٣ ص.

بمصطلحات وهَّاجة،[1] فلسنا عاجزين اليوم، بإذن الله تعالى، عن التعامل مع مستحدثات الأفكار المتلبِّسة بمصطلحات باهرة مُبهرة، لأننا قادرون على الاحتواء، وقادرون على تلمُّس الطريق الصحيح، وإيجاد البدائل غير الموجودة، وفي البدائل الموجودة الراسخة المؤصَّلة خيرُ مرجعٍ لنا في المقابلات والمفاضلات.

---

(١) انظر: محمود حمدي زقزوق. الإسلام في عصر العولمة. - القاهرة: مكتبة الشروق. ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م. - ١٢٠ ص. وانظر ايضًا: عبدالعزيز بن عثمان التويجري. العالم الإسلامي في عصر العولمة. - القاهرة: دار الشروق. ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م. - ٢٢٩ ص.

الوقفة الخامسة: المُثَقَّف

علينا أن نعترف أن مصطلح الثقافة من المصطلحات الواسعة في مفهومها، وكلٌ يُطوِّعها على ما يريد، بحسب انتماءاته الدينية والفكرية، ونظراته للحياة، مثلها في ذلك مثل مصطلح الحرية والعدل والحق، وغيرها.[١]

وعلينا أن نعترف أن الانتماء الديني للمسلمين قد تعرَّض في فترة من الفترات إلى التجاهُل، فانبهر بعض الناس بالثقافات الأخرى، لاسِيَّما ثقافة الغالب في تلك الفترة، والغالب كان الغرب، ولذا أضحى من الثقافة أن يقرأ المرء الإنتاج الفكري والأدبي الأوروبي، ويتبع المفكرين الأوروبيين على أنهم أعلام العصر. بل إن هناك من دعا إلى تبنِّي الثقافة الأوربية، في سبيل النهوض مع الناهضين. وتردَّدت أقوال تدعو إلى تمجيد الثقافة الأوربية، وصلاحيتها لكل زمان ومكان.[٢] بينما تبقى الثقافات الماضية، ومنها الإسلامية، ثقافةً تاريخية ماضويَّة نسبية، صلحتْ في زمان مضى، وفي مكان محدَّد، ولم تعدْ كذلك بعد ذلك. هذا

(١) انظر مثلاً: زكي الميلاد. المسألة الثقافية: من اجل بناء نظرية في الثقافة. - الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي. ٢٠٠٥م. - ٢٥٦ ص.

(٢) انظر مثلاً: سلامة موسى. اليوم والغد. وانظر، ايضًا: أحمد عيساوي. اثر الاستشراق في استغراب الفكر العربي: سلامة موسى نموذجا من خلال كتابه: الدنيا بعد ثلاثين عاما. - الفيصل. - ع ٢٩٢ (شوَّال ١٤٢١هـ/ يناير ٢٠٠١م). - ص ٣١ - ٤٠.

هو منطق اولئك الذين «استمالتهم أوروبا، فانتموا إليها، فهم أجانب منا، وإن تكلّموا لغتنا، وسكنوا وطننا، بل وإن دانوا بديننا»، كما يقول عبدالله النديم (١٢٦١ – ١٣١٣هـ/١٨٤٥ – ١٨٩٦م).[١]

وعلينا أن نعترف، الآن، أن المثقّف في عيون كثير من المتلقّين هو الذي عادة ما يخرج عن انتماءاته الدينية والعرقية والذاتية والوطنية، ليكون رسولاً لثقافة أخرى، ووطن آخر، وغيره من المنتمين ليسوا مثقفين، فإن كانوا متديِّنين فهم متطرِّفون، وإن كانوا عرقيِّين فهم عنصريون، وإن كانوا تراثيين فهم رجعيون، وإن كانوا وطنيِّين فهم إقليميون محلّيون.[٢] بل إن هناك من بدأ يُطلق عبارات فيها شيء كثير من الاستخفاف والحطّ من قدر أولئك الذين لا يعرفون قدرًا من الثقافات الأخرى، تكون محلاً أو بديلاً للثقافة الأمّ، القائمة على كتاب الله تعالى وسنة رسوله محمَّد بن عبدالله ﷺ، والقائمة بعبارة أخرى على قال الله تعالى، وقال رسوله ﷺ، وقال علماء السلف، فيُرمى هؤلاء بالرجوع إلى

(١) انظر: محمَّد عمارة. **الانتماء الثقافي**. – القاهرة: دار نهضة مصر، ١٩٩٧م. – ص ٧٧. – (سلسلة في التنوير الإسلامي: ٦).

(٢) انظر مثلاً: المثقّفون العرب المرضى بالغرب: خطاب جلال أحمد أمين نموذجًا. – ص ١٤٧ – ١٦٠. في: جورج طرابيشي. **من النهضة إلى الردّة: تمزّقات الثقافة العربية في عصر العولمة**. – بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٠م. – ١٩٢ ص.

الماضي، وأنهم مغفلون، أو أنهم دراويش، في الوقت الذي يطلب منهم فيه الانطلاق نحو المستقبل.(١)

وأصبحت هذه الفئة من المثقفين المتنكرين لانتماءاتهم وخلفياتهم ومُثُلهم وقيمهم هي موضع الانتباه والتقدير والتكريم. هذا في الوقت الذي تتعالى فيه هذه الفئة من المثقفين على الآخرين، وتحاول النظر إليهم من علُ، فلا تشارك في هموم الأمَّة وتطلُّعاتها من خلال منطلقاتها هي، بل إنها تُلمح، ولا تصرِّح، أن هموم الأمَّة وتطلُّعاتها يمكن أن يتغلَّب عليها تبنِّي فكر الآخر، والتنصُّل من الماضي، والخروج من قيد الدِّين، الذي، في نظرهم، يحجر على الفكر، ويغِلُّ العقل. وفي هذا تلميحٌ وليس تصريحاً، بل ربَّما جعلت هذه الفئة الدينَ نفسَه مطيةً للحَطِّ من قدر المنتمين إليه.(٢)

إنها مشكلة تحتاج إلى وقفة صادقة وقوية من البحث والدراسة والنقاش والحوار، من أجل الوصول إلى نتيجة، تعود فيها الثقافة إلى منبعها الذي نحن ننتمي إليه، دون إغفال الفكر الآخر، والثقافات الأخرى، إذ إن هذه الدعوة لا تهدُف إلى التقوقع، ونبذ الآخر، لمجرد أنهم آخرون، ولكننا ننطلق في تلقِّينا

(١) انظر مثلاً: نادية محمود مصطفى. تحدِّيات العولمة والأبعاد الثقافية الحضارية والقيْمية: رؤية إسلامية. – ص ٤١٧ – ٤٤٦. في: أبو يعرب المرزوقي وآخرين. مستقبل الإسلام. – دمشق: دار الفكر، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م. – ٤٦٨ ص(٦).

(٢) انظر مثلاً: جورج طرابيشي. المثقَّفون العرب والتُّراث: التحليل النفسي لعصاب جماعي. – لندن: رياض الريِّس، ١٩٩١م. – ٢٨٣ ص.

منها من منطلقاتنا نحن، ولا نأخذ منها ما هو على حساب هذه المنطلقات.

والتوكيد، هنا، وارد أنّ هذا ليس ديدنَ كلِّ المثقّفين، ولكنه موجود بينهم، بحيث أصبح مقياس الثقافة موقوفًا على مدى معرفة أفكار الآخر، وتبنّيها، وربّما الجرأة على ثقافتنا، ونعتها بالنعوت التي لا تليق بها، ونعت أهلها بالصفات التي لا تليق بهم، بواقع من الترفُّع والتعالي. هذا في الوقت الذي يخضع فيه هؤلاء إلى أصحاب الثقافات الأخرى، ويعدُّونهم أساتذتَهم ومعلميهم الخاصّين، وناصحيهم المخلصين، ويعتذرون لهم عن بني قومهم، وتخلُّفهم وسطحيَّتهم وسذاجتهم، بل وغفلتهم. فقومهم، عندهم، متخلّفون سطحيُّون ساذجون مغفَّلون.

وحول هذا يقول **عبدالإله بلقزيز**: «قبل قرن ونصف، بشَّر **كارل ماركس** المثقّفين بدور عظيم جديد: تغيير الواقع، مؤاخذًا أجيالهم الماضية على الاقتصار على تفسيره. واليوم، ما أحوجنا إلى الاعتذار من **ماركس** على إعادة النظر في هذا البرنامج الطوبوي الذي أسنده إلى المثقّفين (والذي هو من مشمولات الأحزاب والجماهير)، والعودة به إلى صيغته الأولى التي انتقدها هو نفسه: إن مهمّة المثقّفين اليوم ليست تغيير العالم، بل فقط – وفقط – تفسيره».[١]

---

(١) عبد الإله بلقزيز. نهاية الداعية: الممكن والممتنع في أدوار المثقّفين. – الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٠م. – ص ١٦٦.

وإذا كان هذا هو نتاج الثقافة وحصيلة المثقفين، فإن النظرة إلى الثقافة كلها بهذا المفهوم تحتاج إلى وقفة تأمُّل وتدبُّر وتفكُّر.

المثاقفة:

ويتحدَّثون عن المثاقفة، على صيغة مُفاعَلَة، وهي فعل مشترك، يتمُّ بين طرفين فأكثر، ويكون في هذا الفعل أخذ وعطاء، أي يكون هناك تأثُّر وتأثير. ومما مرَّ بي في أول سنة من سنوات البعثة الدراسية (١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م) أنني وقفتُ مع راهبةٍ فيتنامية، متنصِّرة في باحة المدرسة التي كنت أدرس بها اللغة الإنجليزية، وكان هناك حوار بيني وبين هذه الراهبة، وإذا بأحد الزملاء، من بني قومي، يمرُّ من عندي، يهمس بي بقوله: «بدأت بك يا علي؟!» فكان لهذه العبارة وقعٌ كبيرٌ عليَّ، إذ زعم الزميل أنها، وهي راهبة، يمكن أن تؤثِّر بي، ولا يتوقَّع زميلي أنني يمكن أن أؤثِّر عليها، فيكون هناك قدرٌ من "المثاقفة"».[1]

ولستُ أطيل في تحليل هذا الموقف، سوى القول إنه لا يزال حاضرًا في ذهني، وأنه ترك عندي الانطباع أن بعضًا من أصحابنا يهابون من الدخول في الحوار مع الآخر، خوفًا من أن يؤثِّروا فينا، فيكون لدينا قدر من القابلية، بقبول ثقافتهم على حساب ثقافتنا،

---

(١) انظر في المثاقفة والحضور: محمَّد محفوظ. الحضور والمثاقفة. - مرجع سابق. - ١٦٦ ص.

لاسيَّما أنني كنت والراهبة في مجتمع مؤثِّر، انبهر به كثير من الناس، ولا يزالون منبهرين به.

وتتطرَّق المؤلِّفة التونسية **آمال قرامي** إلى هذا الموضوع عندما تتحدَّث عن أسباب التنصُّر، في كتابها **قضية الردَّة في الفكر الإسلامي الحديث**، حيث تقول: «ولعل أطراف الشهادات الواردة في هذا السياق ما ذكره عدد من المتنصِّرين، إذ اعترفوا بأن غاية اختلاطهم بالمسيحيين كانت مجادلة هؤلاء، ومحاولة التأثير فيهم، ولكن سرعان ما «انقلب السحرُ على الساحر»، إذ أُعجِب المسلمون بالسلوك المثالي للمسيحيين، وقدرتهم على الإقناع، فكان التنصُّر. ومما لا شكَّ فيه أن القارئ يتفطَّن إلى الخلفيات الضمنية، التي تحتوي عليها مثل هذه الشهادات، والتي يأتي على رأسها إظهار المسيحي في هذه الصورة المشرقة، وفي المقابل تشويه صورة المسلم والإسلام».[1]

هذا بالإضافة إلى العجز في مجال اللغة، والتراجُع الحضاري في المجتمعات النامية، أو ضعف تمكُّن الدين في النفوس، لدى جَمْع من الطلبة الذين ذهبوا للدراسة في مجتمعات متقدِّمة. وقد أشار إلى ذلك المؤلف الفرنسي **موريس بوكاي**، في كتابه المشهور **التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، أو الكتب السماوية والعلم**، إذ

---

(١) آمال قرامي. قضية الردَّة في الفكر الإسلامي الحديث. – تونس: دار الجنوب. ١٩٩٦م. ص ٥٠.

أكد على إمكانية تأثُّر الطلبة المسلمين الدارسين في تلك المجتمعات. يقول: «... إن التحدُّث حاليًا في الغرب عن الله في الأوساط العلمية يعتبر فعلاً علامة الرغبة في التفرُّد. ولهذا الموقف تأثيره السيء على العقول الشابَّة (والمسلمة منها أيضًا)، التي تتلقَّى تعليمنا الجامعي».[(١)]

وتعود **آمال قرامي** إلى مثل ما يقوله **موريس بوكاي**، حيث تؤكِّد على أنه «لا مناص من القول إن البعثات الدراسية إلى الخارج يسَّرت عملية اندماج المسلم في المدنية الغربية، ومكَّنته من الاطلاع على ديانات مختلفة، وحضارات متعدِّدة، وأكسبته شيئًا من أساليب الحياة الغربية، ومن الاتِّجاه الغربي في التفكير والعلم والسلوك، وما إلى ذلك. ومن ثمَّة صار «الارتداد» ممكنًا، خاصَّةً إذا علمنا أن المبشِّرين كانوا حريصين على تتبُّع أحوال هؤلاء الطلبة، واستغلال حالة الوحدة والعوز، التي يعاني منها أكثرهم، لفائدة تحقيق أغراض التبشير».[(٢)]

وما لم تتمَّ المثاقفة بمفهوم صياغة الفعل، القائمة على الأخذ والعطاء، والتأثير والتأثُّر، لم تعُد مثاقفةً، وإنما قد يصدق عليها

---

(١) موريس بوكاي. دراسة الكتب المقدَّسة في ضوء المعارف الحديثة. – ط ٢. – القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠٤م. – ص ١٤٨.
Maurice Bucaille. The Bible the Qur'an and Science. - translated from French by: Alastair D. Pannell and the Author. - Indianapolis: North American Trust, 1978. - 253 p.

(٢) آمال قرامي. قضية الردَّة في الفكر الإسلامي الحديث. – مرجع سابق. – ص ٤٩.

موضوعيًا التثقُّف، أو التأثُّر، أو الأخذ من طرف واحد فقط، وكأننا في طريق ذي اتجاه واحد، كما يشير **فهد العرابي الحارثي** في طرحه للعولمة والاختراقات الفضائية.[1] والتوكيد على التأثُّر مع التأثير ينفي، كذلك، أن يكون هناك تثقُّف، أو عطاء، أو تأثير فقط، وهذا لم يكن من قبلُ، ولن يكونَ من بعدُ.

(١) فهد العرابي الحارثي. «موقعنا في الكونية الإعلامية الجديدة: العولمة والفضائيات العربية». - محاضرة أُلقيتْ بمكتبة الملك عبدالعزيز العامّة بالرياض في ١٤١٩/٨/١٧هـ/ ١٩٩٨/١٢/٦. - ٦٦ ص.

الوقفة السادسة : المبدأ

من الأمور التي لا بُدَّ من التوكيد عليها أن أصحاب المبادئ لا يتنازلون عن مبادئهم، بالسهولة التي يتوقَّعها بعض الناس، ممَّن يحملون على شخص أو جهة. وإذا كانت هذه المبادئ مستقاة من إيمان بكتاب كريم وسنَّة مطهَّرة، أضحى التنازل عنها صعبًا جدًا، أكثر صعوبةً من المبادئ، التي قد يفرضها المرء على نفسه، ويُلزم نفسه بها، من باب لزوم ما لا يلزم، لأن هذه مدعاة للتخلِّي عن المبدأ، أو مراعاة الظروف أو الإغراءات.

إلا أن المبادئ المثلى، القائمة على رجاء الثواب وخوف العقاب، يصعب التهاون بها، وإن كنا، جميعًا، بشرًا، يعترينا قدرٌ من الضعف البشري، في وقت من الأوقات، وأمام ظرف من الظروف، لكن التنازل في ذاك الوقت، أو تحت ضغط تلك الظروف يظلُّ صعبًا جدًّا، بل إنه محفوف بإمكانية الانكشاف، وظهور المرء بالمظهر الذي لم يرسمه هو لنفسه، أو يرسمه الآخرون له. ومتى ما رسم هذا المظهر أمام الآخرين زادت الصعوبة في التنازُل عنه، لأي ظرف من الظروف.

هذه ليست طلاسم، وإنما هي ردٌّ على مَن كتب لكاتب هذه السطور، يثير معه مسألة التنازُل عن المبدأ، والاستسلام للمغريات الهيِّنة، التي لا ترقى بالبشر أن يلتفتوا إليها. ونحن لا بُدَّ أن نؤكِّد على أن التعامل مع الآخرين، حتى أولئك الذين تربطنا بهم رابطة

ما، عائلية، أو أُسْرية، أو وطنية، أو دينية، أو قومية، أو وظيفية، أو مهنية، أو عملية، أو أي رابطة أخرى، يقوم هذا التعامُل مع هذه الفئات على معيار المبدأ، لاسيَّما المبدأ المستقى من أصول الدين، وليس الأمر كما قد يتصوَّر بعض الناس.

إن هذه الوقفة تعتب على من فكَّر هذا التفكير، مجرَّد التفكير. إنك يمكن أن تغضَّ الطرف تجاه مصلحة عامَّة، لتحقِّق لك مصلحة شخصية، مهما كان ثقل هذه المصلحة الشخصية، مع أننا ندعو الله تعالى، دائمًا، ألاَّ يجعلنا في موقف نضعف فيه، أمام تحقيق المصالح الشخصية. وعندما نضعف، أو نفكِّر في أن نضعف سيكون، ونعلم أنه سيكون، الحساب عسيرًا: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝ ﴾ (الشعراء ٨٨-٨٩).

وعليه، فإن الذي يتبنَّى مبدأً ما ينبغي أن يضع في مخيِّلته أنه يتبنَّاه، ليحصل من ورائه على راحة الضمير. وراحة الضمير تتحقَّق عندما تكون الحياة صافية من كل ما يشوب سيرها، سيرًا ينعكس على حالة ذلك المرتاح ضميره، في كلِّ ما يحيط به. ولسنا، مهما وصل الفرد منَّا، نغفل هذا الجانب في حياتنا، بموجب النشأة الطيِّبة التي نشأنا عليها في المنزل والمدرسة والمسجد والقرناء، ونحو ذلك.

فليطمئنَّ مَن في قلبه شيء من الهواجس أن هذا هو التوجُّه، الذي يقود المرءَ في حياته الخاصَّة والعامَّة، وليعلم أنه مهما حاول

الواحد منا أن يخفي صفة، طيِّبة أو غير طيِّبة، فيه، فإنها تظهر للناس، مهما ظنَّ أنها غير ظاهرة:

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيْقَةٍ
وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعلَمِ

والفائدة من ذلك الموقف الذي أثار هذه الوقفة هي أن مُثيرها قد ذكَّر بها، ويؤمَّل أن تكون ذكرى تنفعُ المؤمنين. وإنَّما يقاس الأشخاص بمدى تمسُّكِهم بمبادئهم، بغضِّ النظر عن وجود الرقيب المادِّي، الذي لا بُدَّ له أن يغفل، مهما سلِّط تقنيَّات الرقابة كلَّها، ذلك أن هناك رقيبًا لا يغفل، ملازِمًا لكل شخص، وهو رقيب عتيد.

الوقفة السابعة: الاجتهاد

علماء الأمَّة هم ورثة نبيِّها وسيِّدها **محمَّد بن عبدالله** ﷺ، ورثوا عنه العلم، ولم يرثوا عنه سوى ذلك، فليسوا كما كان – عليه الصلاة والسلام – معصومين من الخطأ والزلل. ولا يعني هذا أن الخطأ الوارد منهم، وهم علماء، يوازي الخطأ الصادر عن شخص من عامَّة الناس، فلا يُستبعد عنهم الخطأ، ولكن لا تُنتظر منهم كثرة الأخطاء، إذ إن علمهم يقيهم – بإذن الله تعالى – من كثرة الأخطاء، لا من وقوعها، وهذا هو **العامل الأوَّل**.

كما أن إيمان العلماء، كذلك، يعين على وقايتهم من تكرار الخطأ الواحد، وهذا هو **العامل الثاني**.

و**عامل ثالث** يعين على ذلك، وهو ذو علاقة بالنية الحسنة المتوقَّعة من العلماء الشرعيين، وأمر النيات إلى الله تعالى، لا يملك امرؤ الاطلاع عليها، ولكنها عامل مهمٌّ في حياة الجميع، والعلماء من باب أولى.

والعامل الرابع المعين على عدم الوقوع في الخطأ هو الإخلاص، الذي هو ديدن العالِم، فيُخلص لربه ولدينه ولأمَّته ولأهله ولنفسه. وإذا اختلَّ الإخلاص في حياة العالِم خرج من هذا المفهوم، إذ قد يسخِّر علمه في الإضرار بالعناصر الوارد ذكرها، بما فيها نفسه، في الدنيا وفي الآخرة.

وعامل خامس مهمّ في حياة العالِم العلمية، وهو الفقه بما يعلم، وهذه درجة متقدِّمة على العلم، وهي دائرة أضيقُ من دائرة العلم داخلةٌ فيها، ويمكن أن يُقال: إن كلَّ فقيه عالِم، وليس، بالضرورة، كلُّ عالِم فقيهًا. ولابدَّ من التنويه إلى أن الفقيه، بما يعلم، قد يرى رأيًا أملاه عليه فقهه، لم يكن شائعًا بين العلماء، الذين لم يصلوا إلى درجة الفقه، فيُعَدُّ عند بعض الناس مخطئًا، بينما هو يدور في دائرة الصواب، وإنما فقهه أملى عليه هذا الاجتهاد، ولا يضيره إنْ لم يدرك رأيَه الآخرون، الذين لم يصلوا درجته في الفقه.

ولذا نجد أن بعضَ المتلقّين، الذين قد لا يعجبهم رأي عالِم، في جزئية علمية، يسارعون في إطلاق الخطأ عليه، وعلى رأيه، قبل إن يناقشوه فيه، وربَّما تخطَّوا ذلك، ونزعوا عنه عاملاً من العوامل التي جعلته في مصافِّ العلماء، مثل حسن النية، أو الإخلاص، أو الإيمان.

وعدم الموافقة للرأي الصادر من عالِم لا يعني، بالضرورة، أنه على خطأ. ويُتجاوز عن هذا الفهم، لأنه، في الأصل، قاصرٌ ومغرِضٌ، وفيه من الهوى ما فيه. ولذا فالعالِم الفقيه الذي يتلقّى رأيًا من عالِم فقيه يتورَّع عن تخطئته، ويوعز رأيه، إذا كان لا يتَّفق معه، على أنه اجتهاد، وللمجتهد أجر على كل الأحوال. وكذلك لا يقلّل خطأ العالِم من شأنه في عيون إخوته من العلماء الفقهاء، وينبغي ألا يقلّل من شأنه في عيون الآخرين، كذلك،

فالعلماء هم السند القوي، الذي تتَّكئ عليه الأمَّة في تلمُّس طريقها. والتشكيك في هذه الفئة العاقلة، من رجال الأمَّة المجتهدين، فيه تضييق على الانطلاق في جانب الاجتهاد، مما يعود بالضرر على الأمَّة نفسها.[1]

(١) انظر: زكي الميلاد. من التراث إلى الاجتهاد: الفكر الإسلامي وقضايا الإصلاح والتجديد. - الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٤م. - ٢٢٠ ص.

الوقفة الثامنة: الإيمان:

يُعَرَّف الإيمان بأنه ما وقر في الصدر، وصدَّقه العمل. والعمل هنا يشمل القول والفعل، فالله تعالى يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ ﴾ (الصف ٢-٣)، فاقترن هنا، القول بالفعل، وهما العمل، وإذا ما انفصلا عن بعضهما في الممارسة حصل هذا التناقُض، الذي تنهى عنه الآية الكريمة. والإيمان له عنصران متلازمان: احدهما باطن في الصدور، وآخر ظاهر في العمل، ولا يفترق أحدُهما عن الآخر، فلا يقال لمن وقر الإيمان في صدره، ولم يصدُّقه العمل، إنه مؤمن، ولا يقال لمن عمل عملا طيبًا، دون أن يَقَرَّ الإيمانُ في صدره: إنه مؤمن. قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ۝ ﴾ (النساء ١٢٤). ولذا فإن الإيمان لا يتحقق بتحقُّق عنصر واحد فقط من التعريف. وهذا يردُّ على فئتين من الناس، تنظر إلى نفسها على أنها مؤمنة:

الفئة الأولى: تلك التي تقول إن التقوى ههنا، وتشير إلى صدرها، وليس بالضرورة، عند هذه الفئة، أن يصدِّق العملُ الظاهرُ هذه التقوى، فتجد الواحدَ من هذه الفئة يقول لك: إنه مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، ولكن لا يقوم بأي عمل يتماشى مع هذا القول، فهو هنا يقول ولا يفعل.

والفئة الأخرى: تلك التي تعمل الخير، وتحرص عليه، وتتجنَّب المنكر، وتبتعد عنه، ولكن هذا كلّه يأتي من وازع ذاتي، أو من انتماء إلى عرقٍ، أو قومٍ، أو وطن، أو ثقافة، أو عُرف، مع عدم اقتران هذه العوامل كلها بالمفهوم المنتمي لها.[1] وليس دافعَه ما وقر في الصدر من تصديقٍ بالله تعالى وبكتبه وبملائكته وبرسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشرِّه. فهذا العمل عمل خير، ولكنه غير موجَّهٍ إلى طاعة الله، بدليل أنه يخلو ممّا أمر الله به من العبادات التوقيفية، التي تشكّل العنصر الثاني من عنصري تعريف الإيمان، وهو التصديق بالعمل، إذ إن هذه الفئة لا تحافظ على الصلاة، مثلاً، بل قد لا تؤدِّيها، ولا تتعامل مع الآخرين بما يمليه الإيمان من تعامُل.

ومثل هذا يصدق على بقيَّة العبادات والمعاملات، من زكاة وصيام وحج وبيوع وعلاقات اجتماعية، وغيرها. وتنحصر ممارسات هذه الفئة على بعض المبادئ، القابلة للتجاوزات، أحيانًا، وللتخلّي عنها، أحيانًا أخرى، ما دامت غير مربوطة بهدف، يقوم على مفهوم الثواب والعقاب، الرجاء والخوف، على هذه الأعمال.

ولا يفرِّط المرء في مسألة الإيمان بالله تعالى، بحيث ينظر إلى الإيمان مجرَّدًا من نتيجة الإيمان في الدنيا والآخرة، إذ يؤثر عن

---

(١) انظر مثلاً: زين العابدين الركابي. مفهوم الوطنية: الوطن المجتبى منذ ١٥ بليون سنة، من اجل تربية وطنية متكاملة وفاعلة وراقية. – الرياض: غيناء، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م. – ١٥٩ ص.

بعض غلاة المتصوِّفة حبُّهم لله تعالى، وتفانيهم في طاعته وعبادته، لا رغبةً في الجنَّة، كما يزعمون، بل لمجرَّد حبِّ الله تعالى، كما يؤثر عن رابعة العدوية. وهذا منطلق غير مقبول في شرع الله تعالى، فالناس في الآخرة إلى الجنة أو إلى النار. وليس هناك موضع وسط بينهما في الآخرة. فمن عمل خيرًا بموجب ما يمليه الشرع فجزاؤه الجنة، ومن عمل شرًا بموجب ما ينهى عنه الشرع فجزاؤه النار، على التفصيل المعلوم في هذا المجال. فليست هذه الوقفة لتفصِّل في هذا، بل الأمر متروك لمتابعة المهتمِّ، فالأمر يستدعي المتابعة والتفصيل، والعودة إلى أهل الذِّكْر.

وقد ظهر منذ القديم، ولا يزال يظهر، أناسٌ نالوا قسطًا من العلم، وتأثَّروا بالفلسفات الدخيلة على الثقافة الإسلامية، فحاولوا الخروج بتعريف الإيمان عما استقرَّ عليه عند أئمة المسلمين، وحاولوا تجريد الإيمان من أحد عنصريه، لاسيَّما العنصر الثاني: وهو الفعل، وسعوا إلى التخلُّص من مسألة التوقيف في العبادات، بحكم أنها تؤدَّى بصفتها، وفي أوقاتها، وفي ظروفها. وأحبُّوا أن تكون المسألة الإيمانية مسألة علاقة خاصَّة بين العبد وربه، يعبِّر عنها العبد، كيفما أراد، وفي أي وقت شاء. ولم تنجح هذه الطريقة في التعبير عن الإيمان من قبلُ، ولن تنجح من بعدُ.

ومتى ما عرفنا طبيعة الإنسان أدركنا أنه بحاجة، دائمًا، إلى التكليف التوقيفي، في جوانبَ تتعلَّق بعلاقته مع الله تعالى، مباشرة، أو من خلال معاملاته مع الآخرين، ماليًا واجتماعيًا

وأُسْريًا، وغيرها من مقوِّمات الحياة. ويكفي أن ندرك أن هذا التكليف التوقيفي يؤكِّد على العموميات والأصول في التعامل، ويترك تفصيلاتها الفرعية لعلماء الأمَّة، ورثة الأنبياء، إلا فيما يتعلَّق بالعلاقة المباشرة مع الله تعالى، كالصلاة والصيام والزكاة، فإن تفصيلاتها محسومة، تمارَس على صيغة معلومة، منطلقها قوله ﷺ في شأن الصلاة: «صلُّوا كما رأيتموني أصلِّي»،[1] وقوله للقادم إلى المسجد الذي أساء صلاته أكثر من مرة: «ارجع فصلِّ فإنك لم تُصلِّ»،[2] مع أنه كان قد صلَّى، من حيث وقوفُه مستقبلا القبلة، ومن حيث ركوعُه وسجودُه، ولكنها لم تكن الصلاة التي كان يصلِّيها ﷺ.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأذان. باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة. حديث رقم ٥٩٥.

(٢) رواه البخاري في كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات. حديث رقم ٧١٥. ورواه مسلم في كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كتاب في كل ركعة. حديث رقم ٦٠٢.

الوقفة التاسعة: الابتلاء:

اقتضت سنة الله تعالى أن يهيئ لابن آدم عقلاً، يزن به الكون من حوله، فيأخذ منه، في الأصل، ما يفيد، ويدع منه، في الأصل أيضًا، ما يُحدث ضررًا أو خللا لابن آدم نفسه، أو للمحيطين به من إخوانه، أو من البيئة والمخلوقات الأخرى من حوله. كما اقتضت سنة الله تعالى أن يخلقَ في ابن آدم رغباتٍ، ويجعله قابلا للآلام، يتلقّاها ممّا حوله، وممّن حوله، وهذه الآلام تدخل في مفهوم المكاره، التي تمرُّ بالإنسان. واقتضت سنة الله تعالى أن تُحفَّ الجنةُ بالمكاره، وأن تحاط النارُ بالشهوات. قال ﷺ: «حُفَّت الجنَّة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات».[1]

واقتضت سنة الله تعالى، كذلك، أن يبتلي عباده، يقول في محكم كتابه: ﴿ الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝ ﴾. (العنكبوت ١-٣)، وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ۝ ﴾. (البقرة ٢١٤)، وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا

---

(١) رواه البخاري مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي والدارمي وأحمد بن حنبل.

يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾. (آل عمران ١٤٢). وقدوتنا سيِّدنا محمَّد بن عبدالله ﷺ قد تعرَّض لأصناف من الابتلاء والامتحان طيلة حياته، التي بعث فيها ليتمِّم حسن الأخلاق.[1][2]

ويتمثَّل هذا الابتلاء الذي يكثر مع الأنبياء – عليهم السلام –، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، بأشكال مختلفة من صنوف المضايقات، التي لقيها من بني قومه، ومن أقرب الناس إليه من أهله. فقد رُميَ عليه الصلاة والسلام بالكهانة، والشعر، والافتراء، والجنون، والسحر، والكذب، وابتلي بترغيبه بالمال، والجاه، والملك، والزواج، والعلاج، بل إنه تعرَّض للتعذيب المباشر، وهُدِّد بوطء عنقه، وتعفير وجهه الطاهر بالتراب، وبفضخ رأسه على الحجر، وهُدِّد بالقتل، ورُميت القاذورات في طريقه، وغير ذلك من أساليب التضييق عليه ﷺ. وتلقَّى أصحابه – رضي الله تعالى عنهم – ألوانًا من التضييق من أهلهم: آبائهم وأمَّهاتهم وإخوانهم وأخواتهم وأبنائهم وبناتهم، وسادتهم. ولا يزال المسلم يتلقَّى ألوانًا من الابتلاء في الضرورات الخمس، أو إحداها، أو في أكثر من واحدة منها.

---

(١) إنما بعثت لأتمم حسن الأخلاق. كما لدى الإمام مالك في الموطأ. في باب حسن الخلق.

(٢).

وإزاء هذا الابتلاء تجد المؤمنَ يستشعر الصبر والتحمُّل، إذا ما تعرَّض لصنف من صنوف الابتلاء. وتجد بعض الناس قد يتساءل عن سبب عدم ابتلائه، ويثير التساؤل حول مدى إيمانه، إذ كلما زاد إيمان المرء زاد ابتلاؤه. ومع هذا الابتلاء تجد المؤمن يقرُّ بقَدَر الله تعالى، فلا اعتراض ولا احتجاج، إذ هو يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، ويعلم كذلك أنْ لو اجتمعت الإنس والجنُّ على أن ينفعوه، لم ينفعوه بشي إلا ما أراد الله تعالى أن ينفعَه به، وأنه لو اجتمعت الإنس والجن على أن يضرُّوه لم يضرُّوه بشيء إلا ما كتبه الله له.[1] ولذا فإن الاعتراض على قدر الله تعالى، بأي شكل أو لون من ألوان الاعتراض، غير مقبول، ويوحي، إذا ما حصل هذا الاعتراض، بضعف الإيمان.

وربَّما أعاد بعض الناس عبارات شعبية متداولة فيها حسُّ الاعتراض على قدر الله، سواء تجاه ما يصيب المرء من مكروه، يراه هو مكروهًا، ولا يدري ما يريده الله تعالى له من وراء هذا المكروه، فتراه يثير سؤال استنكار على قدَر الله تعالى بقوله: لِمَ أنا؟ (why me?) أو لماذا يحصل هذا الأمر لي أنا؟! أو قد يحصل الاعتراض على ما يهبه الله تعالى لعباده، أو لبعض عباده، من سعة في الرزق، أو صحة في البدن، أو بسطة في العيش، فتقال عبارة

---

(١) رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع. حديث رقم ٢٤٤٠. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. ورواه الإمام أحمد في المسند، مسند بني هاشم. حديث رقم ٢٦٦٦.

متداولة عند بعض المجتمعات الإسلامية، مؤدَّاها أنه تعالى يعطي لمن لا يستحق، وكأن هذا المعترض هو الذي يقسم رحمةَ ربه، والله تعالى وحده الذي يبسط الرزق لمن يشاء: ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾. (الرعد ٢٦)، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾. (الإسراء ٣٠). وقد تكرَّر هذا المعنى في القرآن الكريم لأكثرَ من تسع مرات.

والأصل في المؤمن أن يقابل قدر الله تعالى بما يوحي بأنه موقن بهذا القدر، الذي حصل له، وهو لا يريد حصوله، أو لم يحصل له، وحصل لغيره، وهو يريد حصوله له فحسب، أو حصوله له وحصوله لغيره. وترد عبارة: «قدر الله وما شاء فعلْ» موحيةً بهذا اليقين، ولكنها لا توحي، بحال، بالامتناع عن اتِّخاذ الأسباب المعنوية، من الدعاء ونحوه، والمادِّية، من حيث تجنُّب المكروه، فلا تعارض بين الإيمان بقضاء الله، وقدره والسعي إلى تجنُّبه، فإن الدعاء يردُّ القدر.[1][2]

---

(١) «ولا يرد القدر إلا الدعاء». أخرجه أحمد في المسند.

(١).

الوقفة العاشرة: الدِّين

وقَف خطيب الجمعة، وهو أستاذ في كلية علمية/كيمياء، في إحدى الجامعات الأمريكية (**جامعة كيس وسترن رزيرف بمدينة كليفلاند بولاية اوهايو**)، بين مجموعة من الطلبة والأساتذة، يقول، في ضوء ضعف العلم الشرعي والفقه فيه: إن الإسلام ليس دينًا، بل هو نظام. قالها الخطيب في خطبة الجمعة، وهو لا يقصد بهذا إلا خيرًا، إذ إنه هنا يتحدَّث باسم الإسلام، ولذا قال عبارته باللغة الإنجليزية، التي تفهم مصطلح الدين فهمًا مطوَّعًا لتلك الثقافة، التي جعلت من الإنجليزية لغتها.[1]

وأراد من كونه نظامًا، وليس دينًا، أنه يأخذ من الحياة وسلوكيَّاتها المختلفة، على جميع المستويات، على أنها سلوكيَّات ينال الإنسان عليها ثوابًا، إذا قَرَن هذا السلوك بالنيَّة فيما ليس فيه مخالفة للأحكام الشرعية، وهو يعلم ذلك. وهذا صحيح، فإن أيَّ عمل يقوم به الإنسان، ويقرن به النيَّة، ينال عليه الثواب، حتى لو

---

(١) يقول ليوبولد فايس في: الطريق إلى الإسلام: «لم يبدُ لي الإسلام دينًا بالمعنى المتعارف عليه بين الناس لكلمة دين، بل بدا لي أسلوبًا للحياة، ليس نظامًا لاهوتيًا بقدر ما هو سلوك فرد ومجتمع، يرتكز على الوعي بوجود إله واحد». انظر: محمد أسد. **الطريق إلى الإسلام**. - ط ٩. - الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م. - ٣١٣ ص. وانظر النصَّ في: صالح بن عبدالرحمن الحصيِّن. **قضايا بلا حدود**. - الرياض: الإسلام اليوم، ١٤٢٥هـ. - ص ٣٧.

كان ظاهرُ العمل، أو السلوك، أو التصرُّف، ذا منفعة ذاتية سريعة، أو متأنّية، خاصَّة جدًا، أو عامَّة في فائدتها.

ونحن نعتقد ذلك، ونؤمن به، ونتصرَّف بمقتضى هذا الحكم، حتى الأذى نُميطه عن الطريق ننال عليه أجرًا، ويُعدُّ مؤشّرًا من مؤشّرات الإيمان، بل هو شُعبةٌ من شُعب الإيمان، بنصِّ الحديث الشريف.[1] ويُقاس على ذلك أيُّ تصرُّف أو سلوك في المكتب، أو في الشارع، أو في أيِّ مجال من مجالات العمل. ومن هذا المنطلق يمكن أن يقال: إن الإسلام دينٌ ونظامُ حياة، ويمكن أن نتعامل مع مصطلح دين على أنه عقيدة وعمل، أو أنه عبادة ونظام اجتماعي، أو هو دين العقل، أو دين العلم، أو دين المدنيَّة، كما يشير الأستاذ الشيخ **محمَّد الفاضل بن عاشور** في كتابه: **روح الحضارة الإسلامية**.[2]

ومن أجل التعامل الدقيق مع المصطلحات، ومع الاعتقاد بشمولية الإسلام لكل مناحي الحياة، فإنه مع هذا يظل دينًا،

---

(١) ونصُّ الحديث كالآتي: «الإيمان بضع وستون أو سبعون بابًا، أدناها إماطة الأذى عن الطريق، وأرفعها قول (لا إله إلا الله)، والحياء شعبة من الإيمان». رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان. حديث رقم ٨٠. ورواه مسلم بلفظ: «وسبعون» في كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها. حديث رقم ٥١.

(٢) محمَّد الفاضل بن عاشور. روح الحضارة الإسلامية. - ط ٤. - بيروت: الدار العربية للعلوم، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م. - ٧٩ ص.

بالمفهوم الإسلامي لمصطلح دين، ليس بالمفهوم الآخر للثقافات الأخرى، التي حصرت الدين على العبادة المباشرة، التي تأخذ شكلا وزمانًا ومكانًا محدَّدة، ذات شعائر معلومة، لدى الذين حصروا الدين بها. على أنه من المفيد شمولية مصطلح عبادة، على أنها، أيضًا، مصطلح يشمل كلَّ السلوكيات، من الأقوال والأفعال، إذا ما أريد منها، بالنيَّة، أن تكون عبادة.

وهذه مفارقة أخرى من المفارقات التي يختلف فيها الإسلام عن الأديان الأخرى، السابقة، في التعامُل مع المصطلحات الدينية. ومع هذا يظل الإسلام دينًا بنص القرآن الكريم: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝ ﴾. (آل عمران ٠١٩)، ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝ ﴾. (آل عمران ٠٨٥)، وغيرها من النصوص التي تؤكِّد على هذا المنطلق.

وكون المصطلح في ثقافات أخرى محصورًا على جزئية من جزئياته، فإنه في ثقافتنا لا يسوِّغ أن ننظر إلى المصطلح نظرة الثقافات الأخرى، ولو كانت هذه النظرة صادرةً عن حسن نيَّة، وسلامة قصد، فلا بدَّ من العلم الذي يوجِّه النية الحسنة، والقصد السليم.

ولعلَّ من أسباب سوء فهم الدين الإسلامي، من الآخر، هو انطلاقهم في فهم المصطلحات من منطلقهم الثقافي، الذي عاشوا عليه، وينتمون إليه، فرأوا أنه إذا كانت المسألة تديُّنًا فحسب، فليبقوا على دينهم، وعندما لا يكون الاختلاف في المفهوم يكون هناك شأن آخر، لا يقبل، في نهايته، عن ملاحقة المصطلحات المتفِقة لفظًا، المختلفة معنىً. وهذا بدوره قد يعين، في النهاية، على الهداية إلى الدين الحق، بإذن الله تعالى. ونحن مطالبون، لاسِيَّما الدعاة، ومَن يرغبون في التصدِّي لأمور الدين بالنقل والتبليغ، إلى دقَّة فهم المصطلحات، ومحتواها المعنوي، ليس من خلفية ثقافيَّة أخرى فحسب، بل الأولى أن يكون الفهم نابعًا من خلفية إسلامية صحيحة.

وكون الدين يدعو إلى النظام والتنظيم، والتخطيط، والتروِّي، والتفكير، والاعتبار، والتدبُّر، قبل الشروع في التنفيذ لأي قرار، أو سلوك، لا يقصره هذا كلُّه على كونه نظامًا فحسب. وإذا كنا نحبُّ النظام، وندعو له في الأماكن العامَّة والخاصَّة، ونؤيِّد أيَّ إجراء معقول يفرضه على الناس، فإن هذا أيضًا لا يدعونا إلى أن نقول: إن الدين هو النظام فحسب. وإذا كنا قد فهمنا مصطلح الدين في الثقافات الأخرى، وأنه مقصور على الطقوس فقط، فإن هذا لا يدعونا إلى أن نتبرَّأ من المصطلح إجرائيًا، حتى نثبت للغير أنه ليس مجرَّد دين، بمفهوم الآخر للدين فحسب.

ونحن مطالبون بالإيمان بأن الدين نظامُ حياة، وليس هو نظامَ الحياة، والفرق بين التركيبين مقصور على ال في الحياة، إلا إذا قلنا إنه يدعو إلى النظام، فكل ما يحقّق حياةً مستقرةً آمنةً من جميع الجوانب، فهو من الدين بالضوابط، التي قد يغفل عنها المشرِّع البشر، ولم يغفل عنها، ولا يتوقَّع أن يغفل عنها المشرِّع الرَّبُّ – سبحانه وتعالى –.

مقاصد الأحكام:

ومع أن الدين يدعو للنظام، ويحثُّ عليه، ويَعدُّه عبادةً، إذا ما خلصتْ النية، فإنه ترك للزمان والناس والمكان حرِّية التفاصيل في التشريع، بعد أن بسط القواعد الأصولية العامّة في المعاملات، والتعامُل مع الناس ومع الطبيعة والبيئة المحيطة بالإنسان، فلا ضرر ولا ضرار،[1] ودرء المفاسد يُغلَّب على جلْب المصالح، والغبن مردود، وكل ما يمكن أن يحدث منه ظلم لأي فرد مرفوض، من حيث المبدأ، وهكذا. ومع أخذ هذه القواعد الأصولية في الحسبان، يمكن للإنسان أن يصنعَ قواعد للنظام، تكفُلُ تحقيق الاستقرار

(١) من حديث رسول الله ﷺ عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قضى أن «لا ضرر ولا ضرار». وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار». رواه ابن ماجه في كتاب الأحكام، باب من بنى في حقه ما يضرُّ بجاره. حديث رقم ٢٣٣١. ورواه الإمام أحمد في المسند، مسند بني هاشم. حديث رقم ٢٧١٩. ورواه الإمام مالك في الموطأ في كتاب الأقضية، باب القضاء في الرفق. حديث رقم ١٢٣٤..

والأمن، وذلك من منطلق القاعدة الأصولية: «مقاصد الأحكام مصالح الأنام». ومن هنا ينبغي أن ينبع النظام من هذه المنطلقات الشرعية ليُحقّقَ المجتمعُ بذلك أمرين:

الأمر الأول ضمان عدم الإساءة، غير المقصودة، إلى أي فرد من أفراد المجتمع، الذي سيطبَّق عليه النظام.

والأمر الثاني ضمان سلامة النظام من الثغرات، وبالتالي ديمومته، بشكل لا يمنع من وقفات التقويم، التي تعالج ما قد يحدث في التطبيق من خلل.

وإذا ما قام النظام على هذا الأساس أصبح تطبيقه عبادةً لله تعالى، وفي هذا المنطلق حافزٌ قويٌّ على الحرص على النظام وتطبيقه. أرأيت إذا ما أصرَّ العلماء، وطلبة العلم، على أن قطع الإشارة الضوئية الحمراء، وهي نظامًا تعني الوقوف، يُعَدُّ معصيةً لله تعالى، لأن في قطعها ضررًا على الآخر الذي التزم بالمرور، في الجانب الآخر من الطريق، عندما أُعطيَ الضوء الأخضر؟ وأن الالتزام بالوقوف، في الوقت نفسه عندما تكون الإشارة حمراء فيه أجر، إذا ما التزم بها الملتزم، على أنها جزء من النظام، الذي سيحدُّ من الضرر الناجم عن مخالفتها؟ وهل يمكن أن يقال: إن الوقوف، عندما تضيء الإشارة الخضراء، وتعطيل الناس، يُعَدُّ شيئًا من العصيان الذي يجر إلى الإثم؟ النفس تميل إلى ذلك، لولا أن الدِّين لا يؤخذ بالهوى، مما يستدعي سؤال أهل الذِّكْر عن ذلك، لأن الوقوف في هذه الحال يجرُّ ضررًا للآخرين، ولو اقتصر

الضرر على التعطيل، فقط. وهل يمكن أن يقال إن التمشّي مع هذه الأنظمة فيه طاعة لولي الأمر، على أن طاعةَ ولي الأمر طاعةٌ لله تعالى؟ وهكذا ينبغي أن ينظر إلى تفصيلات أي نظام مبني على هذه القواعد الأصولية، وغيرها مما هو معروف لدى علماء أصول الفقه.

ولعله يُنظر، جديًّا، إلى هذا المفهوم من هذا المنطلق، لنربط النظام بالدين، فلا يُنظر إلى النظام على أنه مجموعة من الإجراءات الدنيوية، التي لا تمتُّ إلى الدين بصلة، مما يؤدّي، عن غير قصد، إلى إقصاء الدين عن الحياة. وإذا كان الدين يدعو إلى النظام، ويحضُّ عليه، دون أن ينقلب الدين، بالضرورة، إلى نظام، من حيث المصطلح: فليس هناك ما يدعو إلى أن تستبدل بكلمة دين كلمةُ نظام، مما سيحدث خللاً كبيرًا في مسألة التنفيذ والتطبيق، قياسًا على تنفيذ الأنظمة وتطبيقها، إذ إن هناك تجاوزاتٍ في تطبيق الأنظمة، في الوقت الذي تصل فيه في مجملها إلى الدقّة المتناهية والمثالية في الصياغة، إلا أنَّ كونها من صنع البشر أتاح للآخرين فرصةَ التجاوز لمسوّغات، يُراد بها إبراء الذمة، عند الخروج على أي نظام من الأنظمة، أو الخروج على أي مادّة من موادُ نظام ما.

ألسنا، الآن، نردّد أن هذه المادة أو تلك ليست قرآنًا مُنزَلاً؟ مما يسمح بتجاوزها، ولا يسمح في الوقت نفسه بتجاوز أحكام القرآن الكريم في الإجمال، وإن كانت هناك إمكانية للتجاوز في حالات

خاصَّة، تحدَّث عنها العلماء، في الماضي والحاضر. والحماس للدين لا يعني نزع الدين نفسه من خصوصيَّاته، حتى اللفظية منها، مهما كانت النيَّة، لما في هذا من تعارُض مع نصوص القرآن والسنة، التي أكدت على أن: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾. (آل عمران ٠٨٥)، وأنَّ الله تعالى أكمل لنا ديننا، وأتمَّ علينا نعمته ورضي لنا الإسلام دينًا: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴿٣﴾﴾. (المائدة ٣).

الوقفة الحادية عشرة: المجتمع

يطيب للبعض من المتابعين للتطوُّرات (التغيُّرات) الاجتماعية أن يتحدَّث، أحيانًا، عن الأوضاع الاجتماعية للثقافات الأخرى، مقارنة بأحكام الإسلام، فيما يتعلَّق بالممارسات الاجتماعية، كالعلاقات الأسْرية، وعلاقات الجيران، والعلاقات مع الأقارب، بل والعلاقات مع خدم البيت. ومن الأمور التي ينبغي التوكيد عليها أن المقارنة غير واردة بين النظام الاجتماعي في الإسلام والأنظمة الاجتماعية في الثقافات الأخرى، وليس يوضع في موضع المقارنة. والفرق بين المقياس (المعيار) والمقارنة أنه يفترض في المقياس الكمال، وأنه النموذج المثالي، الذي تُقوَّم عليه الأنظمة الاجتماعية الأخرى. أما المقارنة فإنها تبرز الحسنات (الإيجابيات)، كما تعمل على إبراز المساوئ (السلبيات)، في نظامين يفترض فيهما، أصلا، التكافؤ.

والتكافؤ في هذه الحالة غير وارد على الإطلاق، إذ لا تكافؤَ بين المنهج الربَّاني والمناهج البشرية، التي أراد الله تعالى لأصحابها عدم القدرة على الوصول إلى الكمال، وبالتالي القصور في استيعاب كل متطلَّبات البشر، في الحاضر والمستقبل. وبعد الاتفاق على انتفاء وجه، أو وجوه المقارنة، وأن النظام الاجتماعي في الإسلام إنما هو المعيار الذي تقاس به المعاملات الاجتماعية، يصبح النظر إلى الممارسات الاجتماعية في الثقافات الأخرى لمجرَّد الاستئناس بما يفعله الآخر في حياتهم، زيادةً في الاطمئنان إلى أن

النموذج المثالي إنما هو في المنهج الرباني: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ ﴾. (البقرة ٢٦٠).

فإذا ما حصل نظر للثقافات الأخرى، للاطمئنان، فإن هذا الاطمئنان المطلوب وارد، لا محالة، ولا يكفي مجرَّد الاطمئنان بكمال النظام الاجتماعي في الإسلام، بل إن الخطوات العملية تتمثَّل في الإصرار على التمسُّك بهذا النظام، فيما يتعلَّق بتفصيلاته مع الأهل والوالدين بخاصة، ثم الزوج والأولاد والأقارب والجيران، وبقية أفراد المجتمع، ومن هم موجودون في المجتمع كذلك، ممَّن لا نتَّفق معهم في أنهم لا يتبنَّون هذا المنهج الربَّاني. فإذا قال القرآن الكريم: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ۝ ﴾. (الإسراء ٢٣– ٢٤).

وإذا أكَّد الرسول ﷺ على أفضلية الأمِّ في مسألة البرِّ، وعلى مسؤولية الأبِّ والأمِّ في رعاية البيت، وغير ذلك من الأحكام، فإن الحريَّ بنا تجسيد هذه الأحكام على واقع حياتنا اليومية، والابتعاد عن التسويغات التي قد نلجأ إليها، إذا ما حصل منَّا تقصير تجاه مَن نحن مطالبون بعدم التقصير معهم. وربَّما يتحجَّج

بعضنا بكثرة المشاغل، وهذه حُجَّة يكثر ترديدُها هذه الأيام. ومع أن الإنسان مطالب بالعمل، لكنَّه لم يطالب في لحظة من اللحظات أن يكون العملُ، أيُّ عمل، بديلاً عن المسؤوليات الأخرى المناطة به، سواء فيما يتعلَّق بنفسه هو، أم بمن يعول، أم بمن لهم عليه حقٌّ من الحقوق، لاسيما الرعاية.

ونحن مؤمنون بكمال النظام الاجتماعي في الإسلام، ولم نقبل في يوم من الأيام سُبل الطعن فيه، والتشكيك في صلاحيته للتطبيق على بني آدم، رغم المحاولات الجادَّة والمستمرَّة للطعن والتشكيك. وإذا سلَّمنا أن الإيمان هو ما وقر في الصدر وصدَّقه العمل، فإننا بالضرورة مطالبون بأن نكون على مستوى ما استقرَّ في الصدر، من حيث التطبيق العملي، ولو جاء هذا التطبيق على حساب أعمال الدنيا ومكاسبها، ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾. (الكهف ٤٦)، ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾. (مريم ٧٦).

وإذا اقترنت هذه الممارسات بالنيَّة، في أنَّها جزء من العبادات التي نتقرَّب بها إلى الله، وجدنا أننا لا نكسب رضا الوالدين والأهل والزوج والأولاد والأقارب والجيران، فحسب، بل إننا نكسب فوق هذا كلِّه، وقبل هذا كلِّه، رضا الله تعالى، الذي نطمع فيه من وراء أعمالنا كلِّها، التي نريد بها وجهه تعالى. وربَّما

استغنى البعض عن الجزاء من الآخرين، ولم ينتظر المقابل من أعماله، التي يقوم بها لهم، ولكنه لا يستغني بحال من الأحوال من الجزاء الذي ينتظره مضاعفًا من الله تعالى، وهو الثواب والرفع في الدرجات، ومحو السيئات، هذا بالإضافة إلى الجزاء في الدنيا، كذلك، مما هو مغفلٌ، أحيانًا، عند بعض من يتطرَّقون لجزاء العمل الصالح. وهذا هدفٌ من الأهداف السامية النبيلة، التي نعمل من أجل الوصول إليها في ممارساتنا الذاتية المنطلقة إلى المجتمع.

وتقاس تصرُّفات البشر، في حاضرتهم وباديتهم، وفي مدنهم وقراهم، وفي حلِّهم وترحالهم، بالمنهج الربَّاني، الذي أنزله الله تعالى على عباده، عن طريق الوحي، الذي بلَّغته الرسل إلى الناس. وهذا المنهج الربَّاني جاء موافقًا للفطرة التي فطر الله تعالى الناس عليها، والفطرة نزَّاعة للخير. وتشاء إرادة الله تعالى أن يحصل من الإنسان نفسه تقصير وخلل، وتغليب للأهواء والرغبات الذاتية، على حساب الفطرة، فيحصل من الإنسان تجاوزات على المنهج الربَّاني، تُحدث في النظام الاجتماعي ثغورًا، يؤتى المجتمع من قبلها.

ويتدخَّل إبليس، وأعوانه من الشياطين، في هذا، فيقلبون الحسنَ سيئًا، والسيِّئَ حسنًا، ويُملون للناس، ويسوِّلون لهم أن ما هم فيه من ضلال وباطل إنما هو الهدى والحق، وأن ما فيه الآخرون من هدى وحقٌ إنما هو الضلال والباطل، فتحصل الفوضى في المجتمع والكون، ويعاني الناس، أفرادًا وجماعاتٍ، من هذه

الفوضى، وتتراكم المشكلات، وتحدث الأمراض النفسية والأمراض البدنية والأمراض الاجتماعية. فإذا زيَّن الشيطان شربَ الخمر صارت له مضاعفاته، وإذا زيَّن الشيطان تعاطي المخدرات صارت لها مضاعفاتها، وإذا زيَّن الشيطان الزنا في المجتمع ضاعت الأنساب، وتولَّدت الأمراض، وإذا زيَّن الشيطان الشذوذ في العلاقات شاع الطاعون بين الناس، ولم يكن خاصًّا بهذه الفئة الشاذَّة، بل يعمُّ البلاءُ المجتمعَ كلَّه. وكذا الحال مع الأمراض الاجتماعية الأخرى، كالرشوة، والغشِّ التجاري، والربا، والتدليس، والغيبة، والنميمة، والحسد، وغيرها.

وما انتشار هذه الأمراض إلا نتيجة حتميَّة للبعد عن المنهج الربَّاني، والبعد عن الفطرة، التي فطر اللهُ تعالى الناسَ عليها. وفي المقابل فإن القرب من المنهج الربَّاني، والتماشي مع الفطرة، وقبول توجيهها، كفيلة بالحدِّ من حيل الشياطين وألاعيبهم، وكفيلة بالتنبُّه إلى هذه الوساوس، وقلب الموازين، فيُردُّ كيد الشياطين في نحورهم، ويكون تدبيرهم تدميرًا لهم. وقد لا يعني هذا التحكيم لمنهج الله تعالى، في الكون والحياة، الزوالَ التامَّ لأفعال الشياطين، فقد اقتضت سنَّة الله تعالى أن يظلَّ إبليسُ بين الناس يغويهم، قال تعالى: ﴿ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝ ﴾. (الأعراف ١٤-١٥). وبقاؤه بين عباد الله بهذا الجهد المتواصل قمين بأن ينجح، نسبيًا، في الحصول على مجموعة من الأعوان الغاوين، من الإنس، ومن الجنِّ كذلك.

وليس بالضرورة أن يكون الأعوان الغاوون من دعاة الفاحشة والبغي، دعوةً مباشرة، ولكن قد يكون منهم من يدعو إلى الفاحشة والبغي والفوضى، بطرق علمية طويلة المدى، تلبس لباس الحضارة والتقدُّم والمدنية، بحيث توحي للناس أن الزمن قد تغيَّر، وما كان يصلح لزمن مضى لا يصلح لزمن قائم، ولن يصلح لزمن يأتي، وأن الأعراف والتقاليد والعادات الاجتماعية ينبغي ألا تأخذَ طابع العمومية في التطبيق، بل هي قاصرة على البيئات التي نشأت فيها، وتخضع للمراجعة والتعديل والتبديل والحذف والزيادة، بموجب ما يقتضيه الزمن، ويبقى الدين مجرَّد علاقة مباشرة، فقط، بين العبد وربه، ولا صلة له بالمجتمع أو الحياة وتسيير شؤونها، بل إنه يطوِّع لهذه التطوُّرات الشاذَّة، البعيدة عن الفطرة. فقد وُجدت أماكن العبادة، في المجتمعات الأخرى، التي تقبلُ أن تعقد "قرانًا" بين ذكرين، أو بين أنثيين. بل إن الطرح الإعلامي النفسي يردُ بقوَّة الآن بشأن الشذوذ بين المحارم.

ثم تعمَد هذه الطرق العلمية المزعومة إلى تغيير المصطلحات الشرعية، ذات الدلالة اللفظية السيئة على الفرد والمجتمع، فالرشوة لا تسمَّى رشوةً، وإنما هي "عمولة" مثلا، والربا لا يسمَّى ربا، بل هو "فوائد مالية"، والمخدِّرات ليست مخدِّرات، بل هي "منشِّطات"، والخمر ليس خمرًا، ولكنه "مشروبات روحية"، وما أدري ما يمكن أن يقال عن الشذوذ أوالزنا فهو "صداقة"، أو "حرِّيَّة جنسيَّة"، فيراد لهذه المصطلحات الشرعية أن تزول، لتزول

مدلولاتها في الذهن، وما توحي به هذه المدلولات من معانٍ، استقرَّت عليها الأذهان، ووقفت منها حسب مدلولاتها.

ومهما لبستْ طرقُ الاحتيال من لباس العلمية أو الثقافية أو الفكرية، فإنها تظل من تدبيرات الشياطين، وتظلُّ موضع تنبيه من أولئك الذين يدعون، دائمًا، إلى العودة إلى الفطرة الموجَّهة توجيهًا حسنًا: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم ٣٠).

وبموجب هذه الآيات العظيمة يظلُّ كيدُ الشيطان في تباب، ويظلُّ الشيطان بعيدًا عن أولئك الذين عرفوه على حقيقته، وما يهدُف إليه من غواية وتضليل وإفساد للفرد والجماعة. وكلَّما قَرُب الإنسان من الله تعالى ابتعد عنه الشيطان، ولكنه يبتعد دون أن ييأس، فيظلُّ في محاولاته، ويستمرُّ المرء في صراعه مع الباطل، وينتصر الحقُّ دائمًا: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (الإسراء ٨١).

الوقفة الثانية عشرة : الوجود

لا تقتصر محاولة فهم الوجود على المتقدِّمين، وإنما الفكر الحديث روَّج لهذا التوجُّه، عندما طغت فكرة التشبُّث بآراء بعض الذين سعوا إلى البحث عن إجابات لمسائل عويصة على الإنسان، فكان **فيتشر**، وكان **ديكارت**، وكان **جان بول سارتر**، وكان **كارل ماركس**، وكان آدم سميث، وكان مَن قبلهم من فلاسفة الغرب، ممن جرى التركيز عليهم في الطرح السريع، لفهم هذه المسائل وغيرها، ومن ذلك محاولة وعي الوجود.[1] يقول **محمَّد محفوظ** في كتابه القيِّم **الإسلام والغرب وحوار المستقبل**: «وذهبت الوجوديةُ إلى أن الوجود الوحيدَ في الكون هو الوجود الإنساني. ولم يتورَّع سارتر عن القول بأن الإنسان يتحقَّق إنسانًا كيما يكون الله، والأساس العامّ للوجودية هو إنكار وجود أيَّة ماهيَّة سابقة، وحصر الوجود بالنسبة إلى الإنسان في الحقيقة الوحيدة اليقينيَّة وهي الكوجيتو الديكارتي، أي تفكير الفرد».[2]

هذه الطروحات، وغيرها مما جاء به هؤلاء، ومعهم غيرهم، من أمثال **داروين** الذي أغفل بطرحه أثر الخالق، و**فرويد** الذي

(١) انظر مثلاً: سلامة موسى. **هؤلاء علَّموني**. – القاهرة: مكتبة الأسرة، ١٩٩٥م. – ١٧٦ ص. – (سلسلة مهرجان القراءة للجميع، روائع الأدب العربي، (الأعمال الفكرية).

(٢) محمَّد محفوظ. **الإسلام والغرب وحوار المستقبل**. – الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٨م. – ص ٧٩.

حاول أن يغيِّر من نظرة الإنسان إلى نفسه، وإلى مبادئه ومُثله، وما يتحكَّم في سلوكه ودوافعه من عوامل، ومثل آينشتاين، الذي سعت حقائقُه في النسبية إلى الإيمان في نفس المتلقِّين، من أوروبيين وغيرهم، بوجود حقائق مطلقة ونهائية مؤكَّدة، فكان كل شيء عنده نسبيًا. هذه الطروحات، في محاولة وعي الوجود، كان لها بريق فكري، جعل من بعضنا يحثُّ الخطى وراءها، لا للتفكُّر فيها، وعرضها على ميزاننا الثابت، غير النسبي، بل للتأثُّر بها في زعزعة الثوابت.

وعودًا إلى الأستاذ **محمَّد محفوظ** الذي يعالج هذا التوجُّه بوضوح في قوله: «... إن النخب العِلمانية المتغرِّبة هي التي نشرت موقف المهادنة والخضوع للغرب، وقامت بتعبئة الرأي العامّ العربي والإسلامي باتِّجاه أنه لا مناص من الخضوع للغرب، والقبول بالواقع الذي يريد أن يفرضَه ويعمِّمَه على العالَم بأسره. يقول **سلامة موسى** في كتابه **اليوم والغد**: «يجب أن نخرج من آسيا، وأن نلتحق بأوروبا. فإني كلما ازدادت معرفتي بالشرق زادت كراهيتي له، وشعوري بأنه غريب عني، وكلما زادت معرفتي بأوروبا زاد حُبي وتعلُّقي بها، وزاد شعوري بأنها مني وأنا منها...».[1]

(١) سلامة موسى. اليوم والغد. – القاهرة: دار سلامة موسى، د. ت. نقلاً عن: محمَّد محفوظ. الإسلام والغرب وحوار المستقبل. – مرجع سابق. – ص ٧٩.

ومناقشة هذا الموضوع تطول، وقد تُدخِل الطارق لها في متاهات فلسفية غريبة علينا؛ لأن الإجابة عنها كلها واضحة لأبسط الناس، ذلك أن المراد ليس الاستمرار في محاولة وعي الوجود، ولكن المراد تمثُّل هذا الوعي في الحياة اليومية للفرد والمجتمع.

ولا تزعم هذه الوقفة التصدّي التام لهذه الطروحات، دون الاستعانة بما هو مثبت في هذا المجال، من أمثال إسهامات الأستاذ **محمَّد محفوظ**، وغيره من الذين وعوا هذه الطروحات، فازدادوا قناعة بأن الإجابة على هذه التساؤلات لديهم أوضح من أن تأخذ من الفكر ما أخذته لدى أولئك المفكّرين.[1]

--- --- ---

(١) انظر: محمَّد محفوظ. الحضور والمثاقفة: المثقّف العربي وتحدّيات العولمة. - الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٠م. - ١٦٦ ص.

الفَصْلُ الثَّانِي

وَقَفَاتٌ
مَعَ الْمَنْهَجِيَّاتِ

الوقفة الأولى: التعميم

التديُّن بوَّابة واسعة مفتوحة لكل الناس، ولا يملك أحد من الناس، مهما أوتي من القوَّة والحجَّة، أن يمنع أحدًا من دخولها، فليس هناك حارس أو حُرَّاس لهذه البوَّابة، يُدخِلون الأعضاء، ويمنعون غير المنتمين إلى عالم التديُّن. والتديُّن أيضًا حاجة بشرية لكلِّ الناس، يعبِّر عنها بانتماءات مختلفة، كلُّها تصبُّ في المفهوم العامّ للتديُّن،[١] وهو الانتماءُ لفكر بعينه، ومبادئ ومثُل وأحكام (تعاليم) قابلة، في الغالب، للتطبيق على الواقع.[٢]

وهذا ينطبق على التديُّن بالمفهوم الإسلامي، أكثر من أي فكر آخر. فلا يحدِّد الإسلام هويَّة المتديِّن، من حيث عرقُه، أو جنسُه، أو خلفيتُه الثقافيةُ، أو غيرها. ومن هنا جاءت بوَّابة التديُّن واسعةً مفتوحة، بل إنها لا تؤمن بهذا المفهوم للبوَّابات، التي توحي بإمكانية الوصد.[٣] ولأن المجال مفتوح للجميع فإن بالإمكان أن

---

(١) انظر في نشأة الدين: علي سامي النشّار. نشأة الدين: النظريات التطوُّرية والمؤلِّهة. – الإسكندرية: دار نشر الثقافة، ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م. – ٢٣١ ص.

(٢) وعن حاجة الأمم إلى الدين انظر: السلسلة عن الدين، التي أصدرتها السيدة ابكار السقّاف، على النحو الآتي: الدين عند الكلدان والسومريين والبابليين. الدين عند العبريين. والدين في الهند والصين وإيران. والدين عند الإغريق والرومان والمسيحيين. والدين في مصر القديمة. – القاهرة: العصور الجديدة، ٢٠٠٠م. – (سلسلة نحو آفاق أوسع: ١ – ٥).

(٣) انظر في محاولة التعرُّف على أديان العالم، غير ما كتبه الشهرستاني في: الملل =

يدَّعيه فئة من الناس، تعارفنا عليهم بأنهم المنافقون، فتراهم يستخدمون التديُّن مطيةً، يصلون بها إلى أغراضهم، ولا تهمُّهم في هذا الإساءة إلى مفهوم التديُّن، وإلى المتديِّنين الحقيقيِّين. وقد وجدتْ هذه الفئة في الماضي، وهي موجودة في الحاضر، وستوجد في المستقبل، ولذا فإنه من الموضوعية والتجرُّد والعلمية (الأكاديمية) عدم أخذ هذه الفئة، على أنها حُجَّة على المفهوم، وعلى الصادقين في تبنِّيه.[1]

وفي هذا ردٌّ على أحد الكُتَّاب الذين عمدوا إلى التعميم في الأحكام، بذكر قصَّة من الماضي، وقصَّة من الحاضر، استُغلَّ فيها التديُّن لتحقيق أغراض، تتنافى مع متطلَّبات التديُّن. فيلجأ هذا الكاتب، الناشئ في بيئة متديِّنة، إلى الاستخفاف بالتديُّن والمتديِّنين، ليس لأنه علم عن هذه القصَّة أو تلك، بل إنه ربَّما بيَّت النيَّة، والنيَّات في القلوب، على الحطِّ من المفهوم، ثم استعان بعد ذلك بحادثة أو حادثتين، لبستا كل الممارسات باسم الدين، فالحكم سابق على الحوادث، هنا، لحاجة في نفس يعقوب.

=

والنِّحَل. وغير ما كتبه ابن حزم في: الفصل في الملل والنِّحَل: فراس السوَّاح. دين الإنسان: بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني. - ط ٤. - دمشق: دار علاء الدين، ٢٠٠٢م. - ٣٩٩ ص.

(١) انظر في محاولة التفريق بين الدين والتديُّن. وعلم الدين: زكي نجيب محمود. قيم من التراث. - القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩م. - ص ١٤٣. - (مشروع مكتبة الأسرة).

وفي الوقت الذي يستفيد فيه بعض المنافقين، المندسِّين بين المتديِّنين، في تحقيق أغراض قريبة، أو بعيدة، تجد أن الفئة التي تجعل من المنافقين حُجَّةً على الجميع، تستفيد في تحقيق أغراض قريبة أو بعيدة. والضحيَّة في النهاية هو المفهوم نفسه: التديُّن الصادق، الذي يُهان من بعض المنتفعين المتاجرين به، وهم قِلَّة ينكشفون، ومن بعض الذين لا يعجبهم أن يروا الدين مسارًا عامًا يطرقه الجميع، كل بحسب تقواه، وقربه من الله تعالى.

ومن الموضوعية والتجرُّد أن يبحث في الحالات الخاصّة، ولو كثُرت، التي تشذُّ عن المسار العامّ للتديُّن، للتعرُّف على سبب هذا الشطط فيها، نفاقًا، أو تشدُّدًا، أو انفلاتًا، أو سوء فهم للدين، قد يكون غيرَ مقصود، بدلاً من نبذ فكرة التديُّن، أصلاً، والسعي إلى تشويهها، رغبةً في اقتلاعها من المجتمع. ولا يبدو أنها قابلة للاقتلاع والوأد، بقدر ما هي قابلة للتوجيه والترشيد، ومع هذا التوجيه والترشيد وحملات التوعية على مختلف القنوات، ستظل فكرة النفاق ملازمةً لأي مفهوم من المفهومات، التي يُراد لها التطبيق على بني البشر، ومنها مفهوم التديُّن، ولن يأتي اليوم الذي يخلو فيه المجتمع، أيُّ مجتمع، من المنافقين، ينكشف بعضهم ويظلُّ آخرون منافقين، مردوا على النفاق، لا نعلمهم، الله يعلمهم.

والمؤمَّل أن يأتي اليوم الذي يُحجِم فيه بعض الناس عن التصيُّد للحالات الشاذَّة، ثم تعميمها على الجميع، إذ إن الوعي العامّ بالدين

والسعي إلى فهمه، فهمًا صحيحًا، خاليًا من بعض مخلَّفات اجتماعية محلية تقليدية علقت فيه، هذا الوعي العامّ كفيل بالإلزام الأدبي العلمي بعدم التعميم في الأحكام. على أن هذا التعميم غير العلمي لا يُنقص من مفهوم التديُّن شيئًا، بقدر ما يسيء إلى المعمِّمين، ممن لا ينتظر منهم التعميم. ومن طبيعتنا التي يمليها علينا ديننا أن نبحث للجميع عن الخير، فلا يستأثر به أحد على حساب آخرين.

الوقفة الثانية : النصيحة

الـدين النصـيحة ، والمسـلم مـرآة أخيـه ، وللنصـيحة وسـائلها وآدابهـا ، والمنصـوح في الأصـل يتقبَّـل النصـيحة ، إذا روعيـت فيهـا آدابها. وكم شخص عَدَل عن منكر يفعله ، أو أقلع عن عادة سيئة تورَّط بها ، عندما وفَّقه الله تعالى لمن يجيد إسداء النصح له. ومع التأدُّب في النصيحة تتحطَّم حواجز الكبرياء والتعنُّت والعناد ، التي جُبَل عليها بعض الناس. وإساءة الأدب في النصيحة تنتج شيئًا من المكابرة ، والإصرار على المنكر ، الذي يُراد من الشخص المنصوح أن يقلع عنه.

وليس هذا حديثًا عن آداب النصيحة ، فهي لا تخفى على فطنة القارئ ، ولكنها الرغبة في التوكيد على الحاجة إليها ، لدى الأفراد ، بغضِّ النظر عن مكانتهم الاجتماعية ، ومسؤولياتهم الوظيفية تجاه المجتمع. وأظن أن شخصًا ما قد ابتلي بعادة مستهجنة ، أو أنه يزاول منكرًا ممقوتًا ، يتوقَّع في وقت من الأوقات أن يُسِرَّ له أحد المخلصين بالنصيحة الصادقة ، التي تخرج من القلب فتستقرُّ في القلب ، وهو يترقَّب مثل هذه المبادرة ، ولكنه قد لا يعلم من أين تأتيه. وإذا ما تأخَّر الوقت ، واستمرَّ هذا الشخص في مزاولة هذه العادة السيئة ، أو الإحجام عن معروف مطلوب منه القيام به ، فإنه قد يَتَّهم نفسه أن المجتمع راضٍ عن هذا السلوك ، أو أنه لا يرى فيه منكرًا يستحقُّ أن ينصح صاحبه بالإقلاع عنه ، فيستمرُّ في

هذا، والاستمرار في المنكر يؤدِّي إلى استساغته، ثم قد يؤدِّي إلى الولوج في منكر أشدَّ منه. والإحجام عن معروف أهمَّ منه، مع التجوُّز، هنا، في مسألة الأهمية، ولكن بعض الذنب أعظم من بعض.

والنصيحة لبنة طيِّبة في بناء المجتمع، ولذا تعبِّر الآثار عن أن المسلم إنما هو انعكاس لأخيه المسلم، يرى فيه ذاته، فيعدِّل ما اعوجَّ في ذاته. وإذا ما أراد أن يخفي منكرًا يزاوله تراه يقف عند النص الآخر الذي يقول فيه الرسول ﷺ: «الإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطَّلع عليه الناس».[1] ولو اطَّلع عليه الناس لاستهجنوه، ولما قبلوه من الشخص، وفي المجتمع الذي يقوم على هذه الصورة الطيِّبة في الاستقامة في السلوك.

وهناك دعواتٌ صادقةٌ، ومتكرِّرة، إلى التنبيه إلى الهنات، التي يقع فيها المرء دون أن يشعر، أحيانًا، فيبصَّر بما لها من آثار سيئة على المرء نفسه، وعلى من يحيط به من أبناء المجتمع وبناته. كما أن هناك دعواتٍ صادقةً، ومتكرِّرة، إلى التنبيه إلى الهنات، التي يقع المرء بها وهو يشعر، لكنه يحتاج إلى من يذكِّره بما لها من آثار سيئة عليه

(١) رواه مسلم في كتاب البرّ والصلة والآداب، باب تفسير البرّ والإثم. حديث رقم ٤٦٣٢. ورواه الترمذي والدارمي وأحمد بن حنبل. ولفظ الدارمي: «البرُّ ما اطمأنَّت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردَّد في الصدر، وإن أفتاك الناسُ وأفتوك». من باب: دع ما يريبك إلى ما لا يريبك. من كتاب: البيوع. حديث رقم ٢٥٣٦.

هو، ثم على من يحيط به من أبناء المجتمع وبناته. وأظن المرء يقع في صراع مع الشيطان، في مثل هذه المسألة، فإذا وفِّق إلى من يعينه على الخير ويدلُّه عليه أقلع عن المنكر وعمل الخير.

ونعلم أن الشيطان حريص، بعد أن تعهَّد بغواية بني آدم، قال الله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝ ﴾ (ص ٠٧٩-٠٨٣). ولذا فإنه يرى في الناصحين المخلصين أعداءً له، يخافهم، ويسعى إلى التقليص منهم، ومن تأثيرهم. وفي الوقت نفسه تحتاج النصيحة، مع آدابها، إلى العلم بما هو مجال للنصح، ولابدَّ من وجود العلم: لأن المنصوح قد يكون أخذ برأي في مسألة، والناصح لا يعرف عن المسألة إلا رأيًا واحدًا، ويريد من المنصوح أن يقلع عن سلوك، أو يمارس سلوكًا خاضعًا للنقاش بين علماء الأمَّة، سلفهم وخلفهم. وحوله مجموعة من الآراء القائمة على الاجتهاد في فهم النصوص.

وكما أن النصيحة تحتاج إلى العلم، فهي أيضًا، كما هي الحال في مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تحتاج إلى الرفق وإلى الصبر والتحمُّل.[1] والنصيحة بهذا هي جانب من جوانب

---

(١) أحمد ابن تيمية. مجموع فتاوى شيخ الإسلام احمد بن تيمية. - ٣٧ مج/ جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمَّد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي. - الرياض: دار عالم الكتب، ١٤١٢هـ/١٩٩١م. - ٢٨: ١٢٧.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فتأخذ متطلّبات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بالإضافة إلى آدابها الخاصّة بها. أما من جانب المنصوح فإنه مطالب، أيضًا، برحابة الصدر، وتقبُّل النصيحة، والشكر لمسديها، ولو بدا من الناصح عدم إلمامه بالموضوع بحال النصيحة، وهذا تشجيعٌ على انتشار هذا المفهوم بالمجتمع، مع تنبيه الناصح بوجوه النقص في الوصول إلى التأثير المراد.

الوقفة الثالثة: النقد

من أجمل ما يخرج به الراغب في الاطلاع على التراث العربي الإسلامي والشعبي، هو الخروج برؤية أكثر وضوحًا للفهم وسعته، والأفق واتِّساعه، وكلُّما عبَّ الواحد منا في القراءة زادت لديه مقوِّمات الفهم. هذه قاعدة تُطلق، في مثل هذه المواقف، وتحتاج إلى إثبات بالحُجَّة والبرهان، وحُجَّتها وبرهانها هذا الواقع الذي نعايشه، والأشخاص الذين نتعامل معهم، إذ إن فَهْم من تبرز فيه، بوضوح، هذه السمة المكتسبة، وهي الفهم، يتبيَّن من خلال التعبير الذي يَنقل من خلاله أفكاره إلى الآخرين، وبالتالي تراه صاحبَ رأي، ولديه حكمة كوَّنها من خلال جدِّيته في التعامُل مع الحياة. ولذلك يمكن القول إن علماء الشريعة والتاريخ والإنسان (الأنثروبولوجيا) هم أقرب من غيرهم إلى فهم الواقع، بما يمرُّ به هذا الواقع من فتنٍ ومحن.

وفي الجانب الآخر تحكم على شخص بالسطحية، وضيق الأفق، وقصر النظر: لأنه لم يطوِّر ملكةً لديه بالاطلاع والممارسة والخبرة. وهذا الأخير لا ينتظر منه أن يكون صاحب رأي، ذلك الرأي الذي قالت عنه العرب: إنه فوق شجاعة الشُجعان.

ونحن، دائمًا، بحاجة إلى الرأي، إلا أننا قد لا نوفَّق، أحيانًا، في توجُّهنا إلى الأشخاص الذين نطلب منهم الرأي، في أيِّ مسألة من المسائل المهمَّة، التي ننوي اتِّخاذ قرار حيالها. ولقد مرَّت على

المرء مواقفُ كثيرة سأل فيها رأيًا، فجاءه رأي بدا عليه الصواب، وجاءه رأي ظهر عليه الخطأ والخلل والخطل، ذلك أن مَن أبداه ليس صاحبَ رأي، ولا يعاتَب على ذلك: لأن فاقد الشيء لا يعطيه. وإنما العتب على من سأله الرأي.

وليس الرأي الصائب مربوطًا، بالضرورة، في سعة الاطّلاع على التراث، ولكن سعة الاطّلاع على التراث، وعلى الواقع، هي من مكوِّنات الرأي الصائب. ولدينا من العامّة من لم يطّلعوا على تراث، ولم يوفَّقوا في القدرة على ذلك، ولكنهم مع هذا أصحاب رأي، ورأيهم في الغالب أقرب إلى الصواب. والذي يقود إلى الربط بين الرأي الصائب وسعة الاطلاع على التراث هو أن هذا التراث جملةٌ من التجارب والخبرات والمعاناة والمعايشة، تراها نُقلت إلينا عبر العصور، ومن خلال الكلمة، التي كوَّنت كلَّ هذا التراث المطبوع، الذي لا يزال مخطوطًا. وبناءً على ذلك فقلّة الاطّلاع في التراث، بتجاربه وخبراته ومعاناته، مدعاة إلى عدم اكتمال الصواب في الرأي، فيلجأ الواحد منّا إلى غير ذي رأي، فيأخذ بما عنده وهو مجانبٌ للصواب، فيقع الخلل.

وعليه، فإن هناك من يبحث عن الرأي، وهناك من لا يملك القدرة على إسداء الرأي، لو سئل عنه. ويبدو ذلك واضحًا من أوّل وهلة لمن أعطاه الله تعالى القدرة على التمييز. ولعل هذا من مسوِّغات الدعاء للمسؤول بأن يرزقه الله تعالى البطانة الصالحة،

التي تدلُّه على الخير، وترشده إليه، وتبعد عنه الشر، وتبيِّنه له. ومن صلاح البطانة أن تكون صاحبة رأي، المسؤول بحاجة إليه.

كثير منَّا مَن يعتقد، غالبًا، أنه على صواب، فيما يذهب إليه من رأي أو سلوك. وقليل منَّا من يعرف أنه على خطأ في رأيه، أو في سلوكه. والمغالطون منَّا هم أولئك الذين يعلمون الخطأ، ويقعون فيه، ولكنهم لا يعترفون أنهم واقعون فيه، وكل منَّا يقع في الخطأ، وقليل منَّا مَن يصرُّ عليه، إذا تبيَّن له أنه خطأ. وهذا القليل هو الذي تأخذه العزَّة بالإثم، فيسعى إلى تخطئة ما هو صواب، في سبيل أن يصوِّب ما هو عليه من خطأ. ومرة أخرى تجد المطَّلعين من الناس، ومنهم العلماءُ، يختلفون في الرأي، بناء على اختلافهم في الفهم، فيظل ما يرونه رأيًا يقبل الخطأ، مع اعتقادهم أنه صواب، فلا يصرُّون عليه، إذا تبيَّن لهم خلاف ذلك. ومن عباراتنا التي ورثناها عن علمائنا أن رأيَنا صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيرنا، في المسألة نفسِها، خطأ يحتمل الصواب. وهذه العبارة، التي تؤثر عن الإمام **الشافعي** – رحمه الله تعالى – تدلُّ بوضوح على سعة الأفق، وبُعد النظر في الرأي، كما مرَّ بيانُه.

ومن هذا المنطلق، نجد أننا أمام جملة من الاختلافات، القابلة في عمومها للاستيعاب، بناء على السعة في الساحة، والسعة في فهم الواقع. وليس من المتوقَّع أن نضيق بهذه الاختلافات، لاسيَّما إذا تأكَّد لدينا أنها، جميعَها، قائمةٌ على قدرٍ عالٍ من الاجتهاد في الرأي، والاجتهاد في الرأي لا ينبع من فراغ، ولكنه يتكوَّن بعد أن

تتكوَّنَ مقوِّماتُه، وكلٌّ يؤخذ من كلامه ويردُّ، إلا المعصومين من أنبياء الله ورسله، عليهم صلاة الله وسلامه.(١)

واقعنا العامّ، اليوم، أننا نضيق بالاختلاف، وإن آمنَّا به، نظريًا، لكنه عند التطبيق تجد أننا نرغب في تبنِّي رأي واحد، وهذا وارد، لكننا مع هذا، ومع تبنِّينا لرأي واحد، قائم على القناعة نريد من الآخرين أن يتبنَّوه هو على أنه صواب، لا يحتمل الخطأ، وهذا يتعارض مع النهج الإسلامي، في النظر إلى الآراء الأخرى. وقليل منَّا من يقابل هذا القول بالقبول، مع سعة في الصدر، وتلمُّس العذر للآخرين، وهذا هو ديدن العلماء العارفين، من علماء الشرع، وغيرهم من العلماء، في علوم الدنيا والآخرة.

--- --- ---

(١) يؤثر مضمون هذا القول عن عبدالله بن عباس - رضي الله تعالى عنهما -، ونقلها عنه مجاهد - رحمه الله تعالى -. ونقلها عن مجاهد الإمام مالك بن أنس - رحمه الله تعالى -. ونقلها عن مالك الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله تعالى -. انظر: محمّد ناصر الدين الألباني. صفة صلاة النبي ﷺ من التكبير إلى التسليم، كأنك تراها. - ط ١٣. - بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م. - ص ٢٦ - ٢٧.

الوقفة الرابعة: الودُّ:

ما دام الشيء بالشيء يُذكر فقد قيل: إن الاختلاف في الرأي لا يفسد للودِّ قضية. وهذا هو الحقُّ، ولكن هناك من أصحابنا الكُتَّاب من لا يرون صواب هذه العبارة. إذ إن الاختلاف في الرأي لدى هذه الفئة من عباد الله يمزِّق أواصر الودِّ والقربى. وهذا، وإن طُرح على أنه معبِّر عن عدم الارتياح أو التضجُّر، إلا أنه ينبئ عن الضيق في مقابلة الآراء الأخرى المعتبرة، وليس بالضرورة كل الآراء المطروحة على الساحة، وبالتالي فإنه سيضيق بالنقد، ويتضايق من الأخذ والردِّ في مسائلَ جوهريةٍ، الأمَّة بحاجة إلى طرحها، وسماع الآراء المعتبرة حولها.

على أن هناك فئةً من الناس ترغب في الاختلاف، وتسعى إليه، ولها في ذلك أهداف قريبة وشخصية. ولا اعتبار لهذه الفئة، مع أنها موجودة، وإنما الاعتبار لأصحاب الاختلاف، الذين يسعون إلى الوصول إلى الحقِّ، فتراهم يلتقون فيه متى ما وصلوا إليه، وينبذون اختلافاتهم وراء ظهورهم.

وقد قيل من قبلُ: رحم الله امرءًا أهدى إليَّ عيوبي. وهذه مقولة جميلة، مبنيَّة على الرغبة في تقويم الذات. وتكتنف في طيَّاتها اعترافًا واضحًا أن في المرء عيوبًا، تحتاج إلى الكشف، وقد لا يراها صاحبُها واضحةً فيه، وقد يحسُّ بها، ولكنه لا يرغب في مواجهتها، إلا أن يواجَه بها من الآخرين الناصحين المخلصين. ولذا

يُقال: إن المسلم مرآة أخيه المسلم، يرى نفسه في أخيه، بما يبديه له من نقد، ليس بالضرورة تركيزًا على العيوب. فالنقد الذي فهمناه، علميًا، لا يقتصر على إبداء العيوب، بل ربَّما طُلب من الناقد أن يبدي المحاسن قبل المثالب، إلا أنه شاع، شعبيًا بيننا، أن النقد يعني إظهار السوءات والمساوئ، بل والتجريح، أحيانًا، وليس هذا من النقد، لاسيَّما إذا جاء من ساخط، يرى كلَّ شيء سيئًا، وينسى الحَسَنَ، مهما كان طاغيًا على السيئ.

والنفس البشرية تضيق بهذا النوع من التجريح، الذي يسمِّيه بعضنا نقدًا، وليس لها أن تضيق من النقد العلمي، الصادر من شخص متجرِّد عن كل هوى، ويسعى إلى المصلحة. وفي الحديث الشريف أن الدين النصيحة.[1] ولعل النصيحة شكلٌ من أشكال النقد: لأن فيها إهداءً لعيوب، ظاهرة لدى المنصوح. ولذلك وضع علماء الأمَّة ضوابط للنصيحة، أو النقد في أحد مضامينها، ومن هذه الآداب ذكرُ المحاسن، قبل الدخول في ذكر المثالب. ولتكُن هذه المحاسن موضوعية، لا ذاتية.

وهناك من يقول إن الناس يضيقون بالنقد، وإن ضيقهم هذا ناتج عن محاولاتهم لإخفاء التقصير الحاصل منهم. ومع هذا القول،

---

(١) قال ﷺ: «الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامَّتهم». رواه البخاري في كتاب الإيمان. باب الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين. ورواه مسلم بزيادة: «قلنا: لمن؟». في كتاب الإيمان. باب بيان أن الدين النصيحة. حديث رقم ٨٢.

الذي لا يخلو من الصحة عند بعض الناس، إلا أن الضيق يأتي أحيانًا من الأسلوب في الطرح، لا من الفكرة نفسها المراد طرحها، وأن بعض الناقدين، وليس النقّاد، يعلمون شيئًا، وتغيب عنهم أشياء. وعليهم التثبُّت من المعلومة التي تصل إليهم عن طريق غير ثابت، قبل إن يبنوا عليها حكمًا سابقًا. وهذا، مع الأسف، هو ديدن رهطٍ من المتعجِّلين في إطلاق الأحكام، لاسيَّما أولئك الذي يهمُّهم تتبُّع العورات، وتلمُّس جوانب التقصير في الآخرين، رغبة في شهرة عامَّة، أو خاصَّة، أو رغبة في إشباع الفضول، أو رغبة في إشعار الآخرين بالعلم العريض، ولكنه خلاف ذلك.

نحن بحاجة ماسَّة إلى النقد، ولا يقال هذا نظريًا، ثم يواجَه الناقد بالتبرُّم، ولذا، فإننا بحاجة ملحَّة إلى التعوُّد، والتعويد على النقد، قبل إن نوغل في النقد ذاته. وبالتالي، فإننا بحاجة كذلك إلى أن نتوقَّف عند المفهومات والمصطلحات، كما ذكرت من قبل في هذه الوقفات، ومن ذلك مصطلح النقد ومفهومه.

--- --- ---

الوقفة الخامسة: الإخلاص

مما يوحي بضرورة قبول النقد ما يؤثر عن علمائنا من أن كلَّ مجهود، بشري فردي أو جماعي، يُبتغى فيه وجهُ الله تعالى، يحتاج إلى عاملين مهمَّين، يرعيان أيَّ عمل يراد له التوفيق والقبول. وهذان العاملان المهمَّان هما: الإخلاص والصواب (المتابعة). ويُنتظر من أي شخص يشرع في التفكير بأي عمل من الأعمال أن يراعي توافر هذين العاملين، سواءً بسواء، ثم بعد ذلك يبدأ في التخطيط والتنظيم، واتِّخاذ ما يراه في تحقيق هذا المشروع. وهذا يعني أن هناك أعمالاً فرديةً، أو جماعيةً، مخلصةً، ولكنها تفتقر إلى الصواب. وهذا كثير في ساحتنا العربية والإسلامية. ومردُّ ذلك إلى الافتقار إلى العلم، الذي يقود إلى الصواب.

ولذا، ولفقدان هذا العامل: الصواب، تتعرَّض بعض الجهود المخلصة إلى الفشل، بل إلى الوقوع في أخطاء تراكميَّة، ينبني بعضها على بعض، فيكثر التخبُّط، ويتأخَّر الوصول إلى الأهداف، التي انطلق لها أيُّ مشروع، بل ربَّما لم يُتوصَّل إلى الأهداف: لأن لها خطًا واحدًا، يتطلَّب توخِّي الصواب. والبعد عن الصواب يبعد عن الوصول إلى الأهداف. وهذا يعني أن هناك أعمالاً فرديةً، أو جماعيةً، صائبة، ولكنها تصدر من أناس غير مخلصين، وبالتالي تُنتَزع منها البركة.

والإخـلاص لـه علاقـة مباشـرة بالنيـات، ولـذا فمـن الصـعب، جدًّا، الحكم الواضح على عمل عاملٍ أنـه ليس مخلصًا، كمـا أن لـه علاقـةً مباشـرةً بمـا يريـد العامـل أن يصـل إليـه مـن أهـداف. والأهداف هنا، في حالة فقدان الإخـلاص، تكـون، عـادة، مختلفةً عـن الأهـداف المعلنـة، إذ إن غـير المخلـص، وإن كـان صـائبًا، يُعلـن على الملأ أهدافًا، ولكنه يريد تحقيق أخرى غير معلنة.

وربَّما يصدق هذا العامل على فئات غير منتمية، مثل بعض مـن المستشرقين، الذين تتَّسم بعضُ أعمالهم بالصواب، ولكنهـا تفتقـر إلى الإخلاص للأفكار التي يدرسونها، ويدخل معهم بعض الرحَّالة الغربيين إلى الشرق. وكذا طائفة من المنصِّرين، الـذين يلجـأون إلى التنصـير غـير الصـريح، أو الخفـي أو المختفـي، وراء التطبيـب، أو التعلـيم، أو التـدريب، أو الإغاثـة، أو التنميـة أو غيرهـا، فأعمـال هـؤلاء صواب في الغالـب، ولكنهـا لا تصـدر عـن إخـلاص لمـن هـي موجَّهـة إلـيهم، وإن كـان فيهـا إخـلاص لمفهـوم التنصـير نفسـه، ولكننا نقيس الإخلاص، هنا، من منطلقنا نحن، فيمـا يعـود علينـا نحن بالفائدة.

ولـذا فإننـا، نحـن المسـلمين، نـدعو الله تعـالى أن يُلـهِمنا الصـواب، ويرزقنـا الإخـلاص في أعمالنـا. فـإذا أخلصـنا النيَّـة في العمـل، ولم يتحقَّـق الصـواب: لأسـباب خارجـة عـن الإرادة، فـإن العامـل منـا ينـالُ أجـرًا لهـذا الإخـلاص. وإذا مـا تحقَّـق الصـواب نـال العامـل منـا أجـرين. وتـأتي هـذه الفكـرة مـن النظـرة إلى المجتهـد في

أداء العمل، فإن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد. والأصل في الاجتهاد الإخلاص، وليس، بالضرورة، الصواب. ولم يقل علماؤنا، ولا فقهاؤنا، أن من أصاب، ولم يخلص، فله أجران، وأن من لم يصب، ولم يخلص، فله أجر واحد!

الوقفة السادسة : الحزبية

مما تعاني منه الأمَّة الإسلاميةُ ، اليومَ ، ظهورُ الحزبيَّة بين أبنائها ، ذلك أنه مع تعدُّد التوجُّهات والاتجاهات الفكرية ظهرت بعض النظرات البشرية ، التي فهمت الإسلام على طريقتها ، ورتَّبت الأولويَّات على حسب ما تراءى لها ، بحكم محدوديتها في النظرة ، أو التطويع لبيئة ضيِّقة ، إلا أن هذا الضيق قد اتَّسع ، وصار له أعوان وأتباع ، وتبنَّاه آخرون من بيئات إسلامية أخرى ، حيث جرى تصدير هذه الأفكار البشرية المنطلقة ، دون شك ، من المفهوم العامّ للدين.

والمتابع لهذه الحزبيات أنها تتشتَّت ، هي ذاتها ، إلى حزبيات صغيرة ، ثم تكبُر ، بحيث تجد داخل الحزب الواحد جملةً من التوجُّهات ، التي تتطوَّر لتصبح حزبيات فرعية ، داخل الحزب الواحد ، ثم تتطوَّر الفروع إلى أصول مستقلَّة عن أصلها الأوَّل ، تفترق معه ، وربَّما تناصبه العداء ، وتبدأ في الكيد له. وهكذا يزداد الانشطار في جسم الأمَّة. وعدم تحقُّق الشرط الثاني في العمل ، وهو الصواب ، يجرُّ إلى السؤال حول منطلق هذا العمل أو ذاك ، بحيث يعين على الحكم على الشرط الأوَّل وهو الإخلاص ، لأن القاعدة الإلهية أن الإخلاص يؤدِّي غالبًا إلى الوصول إلى نتائج حسنة ، أو إيجابية. وهذا الأمر ليس ، بالضرورة ، منطبقًا على جميع التحزُّبات ، بحيث تُتَّهمُ في نيَّاتها ، ولكنها أتاحت المجال لحزبيات

أخرى، قد تكون غير صادقة في نيَّاتها، والله تعالى أعلم، لتنفذ إلى جسم الأمَّة.[١]

ومن المشكلات التي تعانيها الأمَّة من الحزبية هذا التحوُّل التدريجي، وغير المعلن، في الولاء إلى الحزبية، دون شعور واضح لدى أصحاب هذا التحوُّل، ودون إقرار منهم، بل ربَّما دون مناقشة لهذا، ما داموا يرون أن حزبهم هو المحقُّ، وغيره من الأحزاب الأخرى على الباطل، وإذا ما اختلَّ مبدأ الولاء والبراء عند الشخص فإن المشكلة تكون، عندئذٍ، عويصة.[٢]

ومن المشكلات التي تعانيها الأمَّة من الحزبية أن هذه الأحزاب تمارس أعمالا تفيد الآخر، ممن لا يتَّفقون مع توجُّهات الأمَّة، الذين لم يكونوا يتوقَّعون أن تمارس بالنيابة عنهم. وهذا ينبغي التوكيد فيه على أن هذه الأحزاب لا تقصد هذا، ولا تقرُّه،

---

(١) انظر: التحرُّر من إطار الحزبية والنخبوية الضيِّقة. - ص ١٨٤ - ١٨٩.
في: صلاح الدين أرقه دان. **التخلُّف السياسي في الفكر الإسلامي المعاصر**. - بيروت: دار النفائس، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م. - ٢٥٦ ص.

(٢) الولاء والبراء مفهوم شرعي، ذو صلةٍ بعقيدة المسلم في علاقته مع الآخر. وهناك جدلٌ قائمٌ حول معناه ومبناه. كما أن هناك تفسيرات قد يظهر عليها التشدُّد، وأخرى قد يظهر عليها التسامُح في التعامل مع الآخر، لاسيما مع أولئك الذين هم ليسوا في حالة حرب مع المسلمين. وهذا ما يأخذُ به هذا الكتاب. انظر في مناقشة هذا المفهوم: محمد بن سعيد بن سالم القحطاني. **الولاء والبراء في الإسلام من مفاهيم عقيدة السلف**. - الرياض: دار طيبة، ١٤٠٥/١٩٨٥. - ٤٧٦ ص.

ولا تهدُف إليه، عندما كوَّنت نفسها، ولكنها، في المحصِّلة النهائية، تخدُم أهداف الآخر، وتنوب عنهم في العمل على تأخير الأمَّة، وانشغالها بنفسها، وإلهائها، في حوارات جانبية داخلية، تصل إلى قيام فرقة وتفكُّك في جسد الأمَّة الواحدة.

الذي يظهر، الآن، أن الحزبية لم تأتِ للأمة بخير، ولن تأتيَ لها بخير، وأن السعيد الذي لا يستسلم لهذه المستجدَّات غير الطيبة، وغير المرغوب فيها، التي طرأت على الأمَّة الواحدة. والسعادة هذه لا تكون مقصورةً على هذه الحياة، بل إن في هذا الابتعاد سعادةً في الدارين.

ومما يدخل في هذا، مما هو قريب منه، رفضُنا، نحن المسلمين، تصنيف الإسلام إلى جملة من الإسلامات، كالإسلام السياسي،[1] مثلا، أو الإسلام الاقتصادي، أو الإسلام الاجتماعي، أو الإسلام التقليدي أوالسلفي، والإسلام الحديث أو الليبرالي، والإسلام الشعبي، والإسلام الرسمي، والإسلام المتطرِّف أو العسكري،[2] والإسلام المعتدل، والإسلام البسيط، والإسلام المعقَّد، أو المركَّب. فالإسلام هو الإسلام، لا يقبل النعت الذي

(١) انظر في محاولة استبعاد البعد السياسي في الإسلام: عبدالوهَّاب المؤدِّب. اوهام الإسلام السياسي. - بيروت: دار النهار، ٢٠٠٢م. - ٢٣١ ص.

(٢) انظر: راي تاكيه ونيكولاس غفوسديف. نشوء الإسلام السياسي الراديكالي وانهياره. - بيروت: دار الساقي. ٢٠٠٥م. - ٢٧٩ ص.

يجرُّ إلى التصنيف، وجعْل المسلمين فئات وطوائف، بحسب فهمهم للإسلام، وبحسب قدراتهم على تطبيق الإسلام.

ولا يقبل المسلمون، كذلك، النظرية الاجتماعية، التي يمكن أن تُعزى إلى علم الاجتماع الديني، والتي مؤدَّاها أن الدين، في أصوله، لا في الجوانب الفرعية منه، هو القدر الذي يمكن قياسه، من خلال ممارسات الناس له، في مكان محدَّد، وفي زمان محدَّد، كذلك، مما يعني معه أن يكون هناك أكثر من إسلام في زمان واحد، ولكن في أماكن متعدِّدة، وأن يكون هناك أكثر من إسلام في مكان واحد، ولكن في أزمنة متعدِّدة، بحسب تطبيق الناس، وبالقدر الذي تمارَس فيه شعائر الدين.[1]

وهذا يوحي، مما يوحي به، قبول تفتيت الإسلام إلى إسلامات، وأخذ المناسب منه، بحسب تقديرات البشر، وتطويعه كذلك إلى البيئات الاجتماعية، الأمر الذي يتعارض مع اعتقادنا لشمولية الإسلام، وقابليته للتطبيق في كل مكان وزمان، كما هو دين الله تعالى الذي ارتضاه لعباده. وشموليَّته تعني أن فيه سياسةً، واقتصادًا، واجتماعًا، وغيرها من مقوِّمات الحياة، التي اشتمل عليها هذا الدين، دون أن ينعت، لغويًّا، بالضرورة، بأيٍّ

(١) انظر: الإسلام منهج متكامل. إذا أحسنَّا تطبيقه. – ص: ٢١٠ – ٢١٤.

في: صلاح الدين أرقه دان. التخلُّف السياسي في الفكر الإسلامي المعاصر. – مرجع سابق. – ٢٥٦ ص.

منها،[١] من منطلق حصره على أيٍّ منها، مع أن المصطلح اللغوي العربي للبعد السياسي في الإسلام هو: السياسة الشرعية.

ويتَّضح هذا، جليًّا، عند الحديث عن الحركات الإسلامية التي غلَّبت البعد السياسي على الأبعاد الأخرى للإسلام، ممَّا أدَّى إلى إيجاد مصطلح: الإسلام السياسي.[٢] وربّما قيل: إن هذا غدا مصطلحًا، ولا مُشاحة في الاصطلاح. وهذا صحيح لغويًّا، إلا أنه غدا له مدلول، أو مفهوم، يوحي بحصر الدين في بُعد واحد، ربَّما على حساب الأبعاد الأخرى للدين، وماذا يضير لو استخدم المصطلح الأسلم، وهو السياسة الشرعية، أو استخدم العطف: الإسلام والسياسة، مثلاً، بدلاً من النعت.[٣]

---

(١) انظر، مثلاً: فوَّاز جرجس. امريكا والإسلام السياسي: صراع الحضارات ام صراع المصالح؟. - ترجمة: غسَّان غصن. - بيروت: دار النهار، ١٩٩٨م. - ٣٦٢ ص.

(٢) انظر، مثلاً: محمَّد علي الكبسي. نشأة الفكر السياسي عند العرب: حفريَّات في مسلَّمات الفكر العربي. - دمشق: دار الفكر، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م. - ٣٦٨ ص. وبرهان غليون ومحمَّد سليم العوَّا. النظام السياسي في الإسلام. - دمشق: دار الفكر، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م. - ٣١٢ ص. - (سلسلة حوارات لقرن جديد). ومحمَّد عبدالقادر أبو فارس. النظام السياسي في الإسلام. - ط ٢. - عمَّان: دار الفرقان، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م. - ٣٧٥ ص.

(٣) انظر: عبدالإله بلقزيز. الإسلام والسياسة: دور الحركة الإسلامية في صوغ المجال السياسي. - الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠١م. - ٢١٨ ص.

الوقفة السابعة: التصنيف

ممّا رُزِئت به الأمّة، اليوم، تصنيف الأشخاص، من حيث انتماءاتُهم، بحيث لا يسلمُ شخص من أن يُعزى إلى توجُّه من التوجُّهات، التي نجزم أنها دخيلة على المجتمع المسلم، ولَّدتها الأفكار التي غزت المسلمين، نتيجة لبحث كثير منهم عن بديل أنسب، في نظرهم، من الإسلام.[١] ولمَّا لم يجدوا البديل المناسب عادوا إلى الدين، ولكنهم لم يستطيعوا التخلُّص من الأفكار التي ورثوها، نتيجة انتماءاتهم السابقة لها، فأسقطوا هذه الأفكار الباقية على توجُّههم الجديد، الذي لم يكن جديدًا، بل هو كان توجُّههم الأوَّل، الذي نشأوا عليه، منذ نعومة أظفارهم، لكنهم لم يأخذوه بجدِّية. وربَّما أنهم نظروا إليه على أنه مجموعة من التكليفات، التي حاولوا عدم التقيُّد بها، ثم تحوَّلت النظرة إلى محاولة التنصُّل منها، بالبحث عن البدائل التي يخفُّ فيها، عندهم، حجم التكليفات.[٢]

---

(١) انظر: بكر بن عبدالله أبو زيد. تصنيف الناس بين الظّن واليقين. - مرجع سابق. - ٩٨ ص.

(٢) انظر، مثلاً: كامل سعفان. إنهم يكرهون الإسلام: هجمة علمانية جديدة ومحاكمة النص القراني، محمد خلف الله ١٩٤٧ - نصر ابو زيد ١٩٩٣م. - القاهرة: دار الفضيلة، ١٩٩٤م. - ٢٢٤ ص. وانظر، أيضًا: يوسف القرضاوي. الإسلام والعلمانية وجهًا لوجه: ردٌّ علميٌّ على د. فؤاد زكريا وجماعة من العلمانيين. - القاهرة: دار الصحوة، ١٩٨٧م/ ١٤٠٨هـ. - ٢٤٠ ص.

هذا في الوقت الذي تطلّع العالمُ فيه إلى إيجاد صيغة جديدة في التعامُل مع الحياة، غير متقيِّدة بالأحكام الربَّانية، وغير خاضعة لما توارثه الناس، فكانت النظم الاقتصادية والفكرية والسياسية من رأسمالية، إلى اشتراكية شيوعية، إلى عَلمانية وغيرها. وقد ولُد هذا لدى بعض الناس بداياتِ التصنيف، من حيث التوجُّه، إما لليمين، أو لليسار، أو للوسط، فأصبح الشخص يساريًا، أو يمينيًا، أو وسطًا، وداخل اليسار واليمين والوسط توجُّهات فرعية.

وانعكست هذه على أفكار أولئك الذين فضّلوا العودة إلى الدين، عندما لم يجدوا جدوى من هذه الأفكار، ولكنهم حملوا معهم هذا التصنيف، فأصبحنا نسمع أن هناك شخصًا إسلاميًا يساريًا، وإسلاميًا يمينيًا، وإسلاميًا وسطًا، بما تكتنفه هذه التصنيفات من توجُّهات فرعية.

وهذا التصنيف حادث، ولم يكن مشهورًا من قبل، حتى أن لفظ إسلامي لم تكن شائعةً في إطلاقها على الأشخاص، فالكل مسلمون، وبينهم من هم يتَّجهون اتِّجاهاتٍ توحي بالتصنيف، ولكنهم لم يصنَّفوا، ولم ينظر إليهم إلا على أنهم أشخاص مسلمون، يعبِّرون عن أنفسهم، ولا يعبِّرون عن توجُّهٍ من التوجُّهات، سواء أكانت توجُّهاتٍ منظَّمةً أم غيرَ منظَّمةٍ.

وكان من بين المسلمين من يغلو في دينه، وبينهم من يفرِّط في بعض الأحكام، التي لا تخرجه عن الإسلام، فلم يحدث لهؤلاء أن

أُدخلـوا في أي تصـنيف، يـوحي بالانتمـاء الفكـري، أو الثقـافي. وكان من بين المسلمين من كانت لهم مواقف، من حيث نظرتُهم للعقيـدة الإسـلامية، فـأبرزوا أفكـارهم، وتـبعهم فيهـا آخـرون، ولكـنهم، في الغالـب، لم يسـتمرُّوا علـى هـذه المواقـف، أو أن مواقفهم لم تستمرّ، فيما عدا الموقف الذي يقدِّم العقل على النقل، مثل منهج الاعتزال، الذي لا يزال قائمًا، دون الخضوع إلى تصنيف دقيـق، سـوى أنـه مـنهج غـير مقبـول، مـن حيـث صـفاءُ العقيـدة وسلامتُها.

وبالإضافة إلى أن هـذا التصنيف حـادثٌ في فكـر الأمَّة، فهـو قـد أثَّـر في النظـرة إلى المعلومـات العلميـة الـواردة مـن الأشـخاص، فيتوقَّف بعض المتلقِّين للمعلومات عند الأشخاص، قبل النظر إلى ما يصـدر عـنهم مـن علـم. وبنـاء علـى الانتمـاء الفكـري أصـبحت المعلومـات مقبولـة، أو غـير مقبولـة، لا لـذاتها، ولكـن بـالنظر إلى الأشـخاص الـذين أنتجوهـا، أو صـدرت عـنهم. ممـا يسـتدعي قبـول معلومـات غـير صـحيحة، وبالمقابل رفـض معلومـات صـحيحة. وهـذا خلل نتج عن هذا التصنيف للأشخاص.

ويبـدو أن هـذا التصـنيف مشـكلة فكريـة ثقافيـة، تـؤثِّر علـى نهضـة الأمَّـة العلميـة والثقافيـة والفكريـة، وتـؤخِّر نمـوَّ هـذه الأمَّـة عنـدما تشـتغل بهـذه المشـكلة، علـى حسـاب النظـرة الموضـوعية للمعلومات، قبل النظر إلى من وردت عنهم، وعلى حساب الوضوح في الرؤيـة والبحـث عـن الحكمـة وإيصـالها للآخـرين، لأن الـذين

يُنتظر منهم أن يوصِلوها مشغولون بمشكلة التصنيف، الذي أضحى مؤشرًا بارزًا في مسألة القبول والرفض. ولعل هذا التوجُّهَ مؤقت، يعود بعده الناس، معظم الناس، من المسلمين إلى الابتعاد عن التصنيف، والانتماءات الفكرية الدخيلة على الدين.

الوقفة الثامنة: الهوى

عندما ذَكَر أحد المهتمِّين حديثًا في **صحيح البخاري**، ردَّ عليه مهتمٌّ آخر متحمِّسٍ لموضوع ما، قال هذا المتحمِّس: إن هذا الحديث ليس صحيحًا. فسأله الأوَّل: لماذا هو ليس صحيحًا؟ فكان الردُّ: إني لم أسمعْه من قبل!

وسأل أحدُ المسلمين في بلد غير مسلم أحدَ العاملين في المركز الإسلامي عن لحم "سرطان البحر"، هل يجوز أكله أم لا؟ أجاب صاحبُنا بأن لحم سرطان البحر لا يجوز أكله! وعندما سُئل: لماذا يحرِّم أكل لحم سرطان البحر؟ قال: لأني لا أحبُّه! هذان المثلان أنموذجان لما يقع فيه المسلمون في المجتمعات، التي يندر فيها العلماء، أو يصعُب الوصول إليهم. وهناك رغبة أكيدة في اتِّباع الإسلام بالقول والفعل، ولكن الخلل هنا يكمن في تصدِّي بعض المتحمِّسين للتشريع، حسب الأهواء والرغبات والميول، إلى درجة نفي حديث صحيح، ورد في **صحيح البخاري**، لمجرد عدم السماع به من قبل.

ولا يُستبعد أن هذا المهتمَّ لم يسمع ببعض الآيات القرآنية من قبل، رغم مروره عليها أكثر من مرَّة، ولكن إذا وردت، أو أُوردت، للاستشهاد على موضوع لا يرغب المتحمِّسُ فيه، نفى أن يكون قد سمع بها من قبل. وهو بحقٍّ لم يستوعب الآية في

مدلولاتها، وإن كان قد مرَّ عليها أكثرَ من مرَّة في قراءة أو تلاوة عابرة.

والدِّين، في أوامره ونواهيه، لا يؤخذ بالهوى والرأي، بل إن بعض علماء التفسير وبعض علماء الشريعة يحرِّمون القول بالآيات بالرأي. يقول **الحافظ عمادالدين ابو الفداء إسماعيل بن كثير في مقدمة تفسير القرآن العظيم**: «... فأما تفسير القرآن بمجرَّد الرأي فحرام لما رواه محمَّد بن جرير – رحمه الله تعالى – حيث قال: حدَّثنا محمَّد بن بشَّار، حدَّثنا يحيى بن سعيد، حدَّثنا سفيان، حدَّثني عبدالأعلى... عن سعيد بن جبير عن ابن عبَّاس عن النبي ﷺ قال: «من قال في القرآن برأيه أو بما لا يعلم فليتبوَّأ مقعده من النار».[١]

وقد ابتعد الصحابة والتابعون عن القول في القرآن بالرأي. وفي حديث عن النبي ﷺ أنه قال: «من قال في القرآن برأيه فقد أخطأ».[٢] وفي لفظ: «من قال في كتاب الله برأيه فأصاب فقد أخطأ».[٣] وقد كان من خُلُق السلف وقوفُهم عند ما لا يعرفونه، ولا يدرون عنه شيئًا.

---

(١) عمادالدين أبو الفداء إسماعيل ابن كثير. تفسير القرآن العظيم. – ٤ مج. – بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م. – ١: ٥.

(٢) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب ما جاء في الذي يفسّر القرآن برايه. حديث رقم ٢٨٧٥، وقال عنه الترمذي: هذا حديث حسن.

(٣) رواه أبو داود والترمذي والنسائي.

ويكثُر هذا الأسلوب في النظر إلى الكتاب والسنة، وإلى الأحكام الشرعية، عند حديثي العهد بالإسلام، أو حديثي العهد بالاستقامة وبالالتزام بأحكام الإسلام، ممَّن يمكن أن يطلقَ عليهم المفكِّرون، الذين لا يعرفون كثيرًا كلمة: **لا ادري**، أو **لا أعلم**، فهم يظنون أنهم يمكن أن يجيبوا عن أيِّ سؤال، ولديهم رأي في أيِّ قضيَّة تُطرح. ويرون من الإهانة لمكانتهم الفكرية والثقافية أن يتوقَّفوا عن الإجابة عن مسألة، لا يدرون عنها شيئًا.

إن من الأخطاء التي تشيع في مجتمع المسلمين، اليوم، الترحيبَ غير العادي بالعائدين إلى الإسلام، أو المسلمين الجدد، من المفكِّرين والمثقَّفين، وإعطاءهم الهالة، التي تراهم معها يضعفون. وهم بشر يعتريهم الضعف، فإذا رأوا هذا الترحيب غيرَ العادي تشجَّعوا على الخوض فيما لا يعلمون. وإننا لا نتدخَّل، أبدًا، في نيَّات الناس، ولكننا قادرون على تتبُّع ما يخرج به الناس من آراء ونظريات، وكأن الدين أصبح مجرَّد آراء ونظريات، يلصق به ما لا يحتمله، ويدخل فيه ما لا يتناسب معه، وتفلسُف أحكامه، حتى تكونَ متعذِّرة على عامَّة الناس.

وهذا الدين الحنيف إنما جاء للناس كافَّةً، والرسول – عليه الصلاة والسلام – بُعث للناس كافَّةً، ولم يبعث للحكماء والفلاسفة، وأولئك الذين يتصنَّعون العمقَ، ويلوون أعناق النصوص، حتى يُقالَ عنهم إنهم يأتون بتفسير جديد للإسلام، لم تصل عقليَّات السلف إلى إدراكه. وكأنهم بهذا يرمون سلف هذه

الأمَّة بالسطحيَّة في فهمهم للدين، وكأنهم بهذا أيضًا يتوقَّعون تفسيرًا للإسلام، غير التفسير العلمي الذي مارسه الرسول ﷺ، ومارسه معه وبعده صحابته – عليهم رضوان الله تعالى – ومارسه معهم بعدُ التابعون، وتابعو التابعين، ومن تبعهم بإحسان.[1]

وأحكام الدين الإسلامي جاءت لتُطاع، وفي سبيل أن تطاع فقد جاءت بقدر المستطاع، ولم يأمر الله تعالى بأمر لا يقدر عليه البشر، ولم ينه عن أمر لا يستطيع الناس، على عمومهم، الانتهاء عنه. وإنه لحريٌّ بنا أن نأخذ الدين من هذه النظرة المبسَّطة، ولا نحمِّله ما لا يحتمل، ولا نتوقَّع أنه جاء بأكثر مما هو قابل للتطبيق في كل زمان ومكان.

ونتيجةً لعودة المسلمين إلى المعين الصافي، ظهرت في الأفق مجموعة من الثغور، داخل المجتمع الإسلامي وخارجه.[2] فالثغور داخل المجتمع الإسلامي يمكن أن ينظر إليها من خلال المنافذ الآتية:

- الرغبة في توعية المجتمع المسلم دينيًا.
- الرغبة في التطبيق العملي لأحكام الإسلام، فيما يتعلَّق بالعبادات والمعاملات.

---

(١) انظر البحث المستفيض في هذا الموضوع لدى: عبدالرحمن بن زيد الزنيدي. **السلفية وقضايا العصر**. – الرياض: دار إشبيلية، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م. – ٦٥٣ ص.

(٢) انظر: يوسف القرضاوي. **من اجل صحوة راشدة تجدِّد الدين وتنهض بالدنيا**. – القاهرة: دار الشروق، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م. – ١٨٠ ص.

- الرغبة في تنقية عقيدة المسلم، مما علِق بها من أوهام وبدع وخرافات.
- الرغبة في تطويع الحياة كلّها للإسلام، لا تطويع الإسلام للحياة.
- الرغبة في الاستقلالية السياسية، والتعامل مع الآخر من منظور إسلامي.
- التقليص من النظرة إلى الإسلام، نظرةً فكريةً فلسفيةً محضة.. وغيرها.

أما الثغرات خارج المجتمع الإسلامي فيمكن أن ينظر إليها من خلال المنافذ الآتية:

- الخوف من العودة إلى الإسلام، أي الخوف من الصحوة، ونعت أصحابها بالتطرُّف والأصولية والإرهاب.(١)
- الخوف من انتشار الإسلام، على حساب المعتقدات السائدة الأخرى.(٢)
- الخوف من سيطرة المسلمين على الاقتصاد العالمي.

---

(١) علي الجوهري. الإسلام والعالم: هل الإسلام هو الخطر الأخضر؟ مقدّمة عتاد الجهاد لأحمد ديدات. - القاهرة: دار البشير، (١٩٩٣م). - ١٣٦ ص.

(٢) انظر: محمود الشاذلي. الوثيقة: الإسلام الخطر، نص الخطاب الذي ألقاه و. هـ. ت. جايردنر في مؤتمر ادنبرة للتبشير (التنصير) الدولي المنعقد بالقاهرة عشية السبت ١٨ يونيه ١٩١٠. - القاهرة: المختار الإسلامي، (١٩٨٥م). - ٣٦ + ١٤ ص.

- الخوف من زوال التبعية السياسية للغير، في بعض مجتمعات المسلمين.
- الخوف من النظام الإسلامي، في الاجتماع والتجارة والاقتصاد، والتعامل مع الآخر.
- الخوف على الجاليات غير المسلمة في المجتمع الإسلامي... وغيرها.

وإزاء تعدُّد هذه الثغور نجد أن جملة من بني الإسلام يهبُّون في محاولات لسدِّها، جميعها، أو بعضها. والذي يبدو، أن سدَّ الثغور جميعها ليس ممكنًا لفرد واحد، ولا لأفراد مجتمعين، ولكن جهود الأمَّة كلِّها ممكنة في سدِّها. وعليه فإن هناك أشخاصًا يُرهقون أنفسهم في التنقُّل من ثغر إلى ثغر، ومن مجال إلى آخر. فتجد الواحد منهم مشغول بالكثير، ولكنه يقدِّم القليل: لأن جهوده مشتَّتةٌ، وأفكاره مشغولة، بما قد يؤدِّي إلى الخلط في الأوَّليَّات. فترى المهتمَّ منهم مرَّةً هنا، ثم يقفز فجأة لثغر آخر، ثم يلقى منها عنتًا، فيقفز لثغر ثالث ورابع، فيعود إلى الأوَّل أو الثالث أو الثاني، أو يستجدُّ لديه ثغرٌ آخر، وهكذا.

والإلمام بحاجات المسلمين ومشكلاتهم مطلبٌ، لكن العمل لجميع المسلمين واقعيًا قد يكون متعذِّرًا على الأفراد. وعليه، فلا بُدَّ من التخصُّص والاختصاص. فيتخصَّص فرد أو مجموعة في سدِّ ثغر واحد، فيدرسونه ويتابعونه، ويحلِّلون ظروفه، وما يحيط به من

عوائـق وصـعاب، ويتحـدَّثون عنـه، يحـاضـرون، أو يخطبـون، أو يكتبون عنه، وهكذا. وهـذه النظـرة قريبـة جـدًا مـن إعمـال العقـل في سدِّ الثغور، بدلا من القفز العاطفي هنا وهناك.

الوقفة التاسعة : الثغور

التعاطُف مع قضايا المسلمين أمر طيِّب ومطلوب، ولكنْ ينبغي ألا تكون العاطفة هي المسيِّرة للدعاة والعاملين في مجال تنمية الوجود الإسلامي في المجتمعات: لأن ما يبنى على العاطفة يكون في البداية مندفعًا، ثم لا يلبث أن يخبو. كما أن المؤمَّل ألاّ تكون قضايا المسلمين حقولَ تجارب للعاملين في حلّها. وهذا المحذور تُبطله الدراسات المتأنِّية، والرغبة في الوصول إلى حلول عملية، وإن طال بها الأمل والأمد. والبناء والتشييد يحتاج، على أيٍّ حال، إلى الوقت.

ويمكن أن يتخصَّص مجموعة من العاملين في مجال الدعوة، في أن يكونوا رجال معلومات، مهمَّتهم جمع المعلومات عن قضية من القضايا. ويكفيهم هذا الجهد في توفير المعلومة للباحثين والدارسين الخارجين بقرارات وإستراتيجيات وحلول للقضايا، مبنية على معلومات حديثة ودقيقة. ويمكن أن يتخصَّص مجموعة من العاملين في مجال الدعوة، في أن يكونوا منفذِّين، يتلقُّون العلم عن العلماء المفكِّرين، ويقومون هم بترجمتها إلى واقع، ويسدُّ به ثغر من الثغور... وهكذا.

وصلاحية الإسلام لكل زمان ومكان تجعل منه دينًا لديه القابليَّة للتطبيق في أي حال من الأحوال. وتجعل لدى الآخر من بني آدم القابليَّة الفطرية على قبوله، وتبنِّي تشريعاته وأحكامه، التي

جاءت في الحدود التي يستطيعها البشر. ولذا لم يكلّف الله تعالى نفسًا إلا وسعها: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ... ﴾ (البقرة ٢٨٦). وهذا يعني أيضًا أن التكليفات في العبادات تتفاوت، من حيث مقدرةُ جميع الناس على تحقيقها، ولذا نجد لدى بعض الناس قدراتٍ ذاتيةً فُطِروا عليها، يطبّقون، من خلالها، جوانب تعبُّدية يقدرون عليها.

ونجد آخرين عاجزين، بالفطرة، عن مجاراة غيرهم، في مسألة التطبيق. وقد جاء جماعة إلى رسول الله ﷺ يبدون عجزَهم عن القيام بمثل ما يقوم به غيرهم من الموسرين، الذين زادوا عليهم بالقدرة على الإنفاق، فقالوا للرسول ﷺ: «ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلُّون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدَّقون ولا نتصدّق».[1] فما كان من الرسول ﷺ إلا أن يفتح لهم مجالات أخرى، هم قادرون عليها، فيزيل عنهم – رضوان الله تعالى عنهم – الإحساس بالتقصير في عبادة الله تعالى.

وليس المسلم، وغير المسلم، بقاصرٍ، من حيث فطرتُه، على القيام بالتكليفات التي جاء بها الشرع، ولكنه هو يقصِّر في أداء هذه التكليفات. وإذا ما حصل قصور، غير إرادي، في ناحية،

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأذان. باب الذكر بعد الصلاة. حديث رقم: ٧٩٨. ورواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة. باب استحباب الذكر بعد الصلاة. وبيان صفته. حديث رقم ٩٣٦.

سقط التكليف عن الفرد القاصر عن أداء التكليف، حسب وروده شرعًا. ولذا ينبغي التفريق بين القصور والتقصير: فالمرء لا يملك شيئًا تجاه القصور، إلا اتخاذ الأسباب في التغلُّب على هذا القصور، ويملك الشيء الكثير تجاه التقصير، بالتغلُّب على الشيطان والهوى والنفس. مع إدراك مسألة القابليَّة في القيام بما هو مجال للتكليف، إذ إن كلاًّ ميسَّر لما خلق له.

ومن هنا تأتي فكرة التركيز على مجال من مجالات العمل الإسلامي، واعتباره ثغرًا يتطلَّب السدَّ. ومن لا يستطيع سدَّ ثغرٍ وحده يستعين، بعد عون الله تعالى له، بمن يعينه على سدِّه، فإن لم يجد في نفسه القابليَّة أو الكفاية، فإنه يترك هذا المجال الذي لا يستطيعه إلى مجالات أخرى هو قادرٌ عليها، وقديمًا قال شاعرنا:

إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ شَيْئًا فَدَعْهُ وَجَاوِزْهُ إِلَى مَا تَسْتَطِيْعُ

وهذا كلُّه إنما يصدق على المستحبَّات وفروض الكفاية، ولا يصدق بحال على فروض العين، التي لا يمكن للمكلَّف أن يترك شيئًا منها، بحجَّة أنه غير ميسَّر لها. أما المباحات والمستحبَّات وفروض الكفاية، فإنها تخضع لمفهوم القابليَّة، أرأيتم أن أحدًا من الناس قد لا يستطيع الجهاد بالنفس، على اعتبار إن الجهاد فرض كفاية، وأن أحدًا من الناس لا يستطيع الجهاد بالمال، مع أن الجهاد بالمال مقدَّم على الجهاد بالنفس، لكن من لا يملك المال لا يستطيع بذله في سبيل الله، ففاقد الشيء لا يعطيه. وهذا كلُّه

أيضًا يصدق في مجال الدعوة إلى الله تعالى، بالمفهوم الأشمل للدعوة إلى الله تعالى. فالذي لا يعلَم لا يستطيع أن يُعلِّم غيره. والذي لا يملك الرفق والحلم لا يملك أن يدعو، أو أن يأمر بمعروف، وينهى عن منكر، وهكذا.

ورحم الله امرءًا عرف قدر نفسه، ففتَح المجال لغيره في أمور، يرى أنه غير موفَّق في القيام بها، على الوجه المطلوب. ورحم الله امرءًا عرف قدر نفسه، فاتَّجه إلى أمور يرى أنه يؤدِّيها بصورة مؤثِّرة وفعَّالة، ويغني بعمله فيها عن تخبُّط بعضِ غير القادرين عليها. وما دام الله تعالى قد رضي هذا الإسلام دينًا للجميع، صار من الضروري قبولُه للتطبيق في كل زمان ومكان، على مستوى الأفراد والجماعات. وصار من الضروري على المؤمنين به كاملاً أن ينقلوه إلى الآخر كاملاً، وأن يتَّخذوا الوسائل والسبل المناسبة والمشروعة في تقديمه للغير.

وتزداد مسؤولية العلماء والدعاة والحكَّام في البلاد الإسلامية في هذا النقل والتقديم. وهي أكبر من مسؤولية عامَّة الناس، الذين قد يسيئون الوسيلة، أو قد يكونون محدودي المقدرة العلمية والسلطانية في النقل والتقديم. ومتى ما أُحسِن تقديمُ الإسلام ونقلُه إلى الآخر، تأكَّد قبول الآخر له، وتبنِّيه وتطبيقه على حياتهم الخاصّة والعامّة.

تُطرح هذه الفكرة، بعد ملاحظات على بعض الدعاة، ممَّن يُرون في كل واد يعملون، فيفقدون شيئًا كثيرًا من المتابعة،

والوصول إلى نتائج علمية في سدِّ الثغور. وتبقى هذه الثغور مفتوحةً، إن لم يزد مثل هذا السلوك في فتحها، مما يؤجِّل من وقوف الأمَّة على قدميها في وجه التحدِّيات التي تواجهها. ولا يتعارض مفهوم سدِّ الثغور مع تعدُّد المواهب عند البعض، فهذه المواهب المتعدِّدة تصبُّ في ثغر واحد.

الوقفة العاشرة: التضييق

الأصل في الدين اليسر، ولم يأتِ الدينُ بعسرٍ، بل إن مع كلٌ عسر يسرين. ولم يشجِّع الدين على التشدُّد، فلن يشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه، هذا في الأصول من الدين، وعليه، فإن ذلك في الفروع من باب أولى، لاسيَّما في السنن والنوافل. بل ربَّما قيل بترك بعض السنن، إذا كان الجوُّ العامّ سيقود إلى مفسدة، إذا ما أصرَّ المرء على فعلها، لاسيَّما إذا كادت السنة أن تتحوَّل إلى فرض.

ويذكر أن أشخاصًا تناقشوا حول عدد تسليمات صلاة التراويح، أو عدد ركعاتها، فلم يصلوا إلى نتيجة، بل إن الأمر قادَهم إلى بذور الخلاف والشقاق، فاحتكموا إلى أحد العلماء، والعلماء، عادةً، يؤتون حكمةً، ومخارجَ عظيمةً من هذه المواقف وأمثالها، وعرضوا عليه خلافَهم، فكان جوابه أن نصحهم بعدم أداء صلاة التراويح جماعةً! ممَّا أثار فيهم الدهشة والاستغراب، ولكنه سوَّغ ذلك بأن صلاتهم على خلافٍ بينهم ستؤدِّي إلى تفرُّقهم، والفرقة بين المسلمين محرَّمة، حتى لو جاءت بسبب خلاف في عدد الركعات، في نافلة مهمَّة في حياة المسلمين.

وعلى مثل هذا يقاس تعمُّد الإسلامِ التوسُّعَ حتى في الأمور المفروضة، من أركان وواجبات وشروط، بحيث لا يكون هناك إخلال بها، بل ربَّما حصل الحرج في تأديتها على صيغة محدَّدة، والرسول **محمَّد بن عبدالله** ﷺ كان إذا سئل عن شيء من مناسك

الحج يقول: "افعل ولا حرج"، مع أنه قد يؤخذ على غير المتعلّمين سوء استخدام هذه الرُّخص، ولكن المعوَّل عليه، هنا، هم العلماء الموثوق بهم، الذين يفقهون ما يقولون. يقول **سفيان الثوري** (إمام الحفّاظ، الكوفي المجتهد، ت ١٢٦هـ/٧٤٣م): «إنّما العلمُ عندنا الرُّخصةُ من ثقةٍ، فأمَّا التشديدُ فيُحسنه كلُّ أحد».[١]

وإذا كان بإمكان الفرد الواحد أن يتحرَّى الدقة المتناهية في تنفيذ سنن المصطفى ﷺ فإن هذا مطلبٌ للجميع، وذلك ليخرج من احتمال الوقوع في الانقياد إلى بعض الممارسات، التي أُلحقت بسنَّة المصطفى ﷺ، مع أنه لا أصلَ لها، أو أن ورودها جاء ضعيفًا جدًّا، ولم تثبت عن الرسول ﷺ. وهذا موقف علمي يدلُّ على الحرص الدقيق على التطبيق المناسب للسنة النبوية.

ومن العلمية، كذلك، أن يتذكَّر الفرد الواحد أن ما يمكن أن يقوم به، وحده، قد يتأثَّر نوعًا ما، إذا كان الباقون لم يقتنعوا بعدُ من الصورة التي تؤدَّى بها السنن. ومن العلمية، كذلك، أن يذكر الفرد الواحد الآراء الأخرى، حول الصورة التي تؤدَّى بها السنن، وإن كان لا يميل إليها، وليس مقتنعًا بها، بل إنه يرى صحة ما يميل إليه، وهذا له، لكنَّه لا يمنع من طرح الآراء الأخرى، ليرجِّح رأيه، أو ميله، هو بالحجَّة.

---

(١) ذكره النووي في: المجموع: (١: ٨٠). والخطيب البغدادي في: الفقيه والمتفقه. والموسوعة الفقهية الكويتية: (١٤: ٢٤٥).

وعلى أي حال، يظل التوجُّه العامّ في الإسلام يميل إلى التوسيع على الناس، ولا يؤيِّد، بحالٍ، التضييق في مجالات العبادات والمعاملات، شريطة ألاّ يُساءَ استغلال استخدام هذا التوسيع، والحَكَم، هنا، هو النية، فالأعمال بالنيّات، والأَولى حسن استغلال هذه الميزة في دينٍ، كله يسر.

والأفراد الذين يميلون إلى التضييق على أنفسهم، وعلى الناس، إنما يُسهمون في الإساءة إلى الدين. وقد يعطون الانطباعة للآخرين، من المسلمين وغير المسلمين، بصعوبة التديُّن والإقبال على الإسلام. كما أن التهاون في هذا المجال، والمبالغة في استغلال الرخص قد يعطي الانطباعة المعاكسة، فليس في المسألة تنازُلات أو تجاوُزات، وإنما هي الرخص والتوسيع والتيسير، التي تفضي، كلُّها، إلى سماحة هذا الدين، وقابليَّته للتطبيق في كل مكان وزمان، الأمر الذي نعتقده جميعًا، ونسعى إلى توكيده في كل المناسبات.

واللجوء إلى الرخص ليس هدفًا، بل تدعو له الظروف والأحوال، ولم يُخيَّر قدوتنا المصطفى ﷺ بين أمرين إلا أختار أيسرهما.

--- --- ---

الوقفة الحادية عشرة: التصخُّر

من الناس من جعل الله صخرةً في جوفه اسمها القلب، ولكنها ليست كالقلب، بما نعلمه من القلب، بل هي صخرة، تزداد تصلُّبًا، يومًا بعد يوم، في مواجهة الأحداث الخاصّة والعامّة، بعيدة عن الرحمة والهُون والرفق، شديدة على أصحابها، شديدة على من حولهم. وفي رواية **قصة مدينتين لتشارلز ديكنز**، تدوس سنابك الخيل طفلاً لفلاّح، فيحتجُّ الفلاّح لدى النبيل، راكب عربة الخيل، وهو من علية القوم، النبلاء، بأن سنابك الخيل داست طفله، فيكون ردُّ هذا النبيل على الفلاّح المكلوم: وهل أصاب الجيادَ سوء؟! ولعل تصخُّر القلوب هذا لا يقتصر على نماذج أو أفراد بأعيانهم، بل إن هناك ثقافاتٍ تصخَّرت قلوبها لبعض المنتمين إليها.

واليهودية من تلك الثقافات التي قامت على التمييز بين الناس. وهذا التمييز مطبَّق، إلى اليوم، لدى معظم أصحابها الأمميِّين أو الأغيار،[1] كما يسمِّيهم **إسرائيل شاحاك**، إنهم لا يسعفون أيَّ

---

(١) انظر: إسرائيل شاحاك. **الديانة اليهودية وتاريخ اليهود: وطأة ٣٠٠٠ عام**. – ط ٤/ ترجمة رضى سليمان، قدّم له إدوارد سعيد. – بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٩٧م. – ١٨١ ص. وانظر أيضًا له: **اسرار مكشوفة: سياسات إسرائيل النووية والخارجية**/ ترجمة هشام عبدالله. – عمّان: الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٩٧م. – ٢٨٤ ص. وانظر له، كذلك، مع نورتون ميزفسكس. **الأصولية اليهودية في إسرائيل**. – ٣ ج/ ترجمة ناصر عفيفي. – القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

مصاب غيرِ يهودي،[1] وكما هي الحال لدى بعض الثقافات في الهند من البراهمة، الذين لا يسمحون للمنبوذين بإسعاف مصاب لهم، لئلا يتنجَّس هذا من ذاك!

أمًّا على مستوى الأفراد فانظروا في إعلام اليوم عن أنواع القتل والتعذيب لمن تصخَّرت قلوبهم، جمَّدتها الأحقاد الدفينة، والأطماع المثالية، والرغبة في إرضاء ذوي القلوب المتحجِّرة. ويبرز هذا واضحًا في الحروب التي تدور رحاها، وتكون غالبية ضحاياها من الأبرياء، أطفالا ونساءً وشيوخًا، يُقتل أبناؤهم أمامهم، حتى لقد قيل: إنه في الحرب التي دارت رحاها في **كوسوفا**، وفي إحدى القرى قتل الصربُ ثلاثين مسلمًا ألبانيًا من أسرة واحدة، أمام ناظري الجد، كبير السن. وتركوه وحده هائمًا مفجوعًا.

ولقد وقفتُ على قبور أكثر من ثلاثين مسلمًا في قرية أخرى في **كوسوفا**، عُرفت بأنها هي التي بدأت الانتفاضة، للتحرُّر من سيطرة الصرب على الإقليم. والفتنة أشدُّ من القتل. وهذا نوع من أنواع الفتنة. ولها أنواع أخرى كثيرة، ذكرها الإعلام، بل نشرها الإعلام المرئي في هتك أعراض البريئات من النساء، والتلذُّذ بآلامهن، وآلام العجائز. ومثل ذلك يقال في **العراق** وفي **فلسطين** المحتلَّة **وافغانستان**.

(١) انظر في تاريخ اليهود: أحمد عثمان. تاريخ اليهود. – ط ٢. – ٣ ج. – القاهرة: مكتبة الشروق، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

وفي غير الحروب، نجد قلوبًا قد تصخَّرت في نظرتها للأولاد والأقارب، من الأخوة والأخوات. وكان من نتائج هذا التصخُّر هضمُ الحقوق، وأكلُ الأموال، أموال الأيتام وأموال غيرهم، والضرب المبرح للأولاد والزوجات والتلاميذ. ولقد كنتُ في مدرسة ابتدائية في الرياض، **المدرسة السعودية الجديدة في شارع الريل**، وكان فيها معلّم من دولة عربية، يتلذَّذ بجلد جلودنا الغضَّة، وراحاتنا الرقيقة، كلَّما وجد لذلك سببًا، حتى أنه كان يطاردنا عندما تنتهي الفسحة الطويلة، و"يلشطُنا" على ظهورنا ومُخوِّراتنا، بخيزرانة كانت معه، فنذهب إلى الحصة التالية، ونحن نتألَّم من الضرب، فأنَّى لنا أن نستوعب الدروس؟ إن قلوبًا تتحجَّر إلى هذا الحدِّ بحاجة ملحَّة وعاجلة إلى أن يراجع أصحابُها أنفسَهم، وأن يقربوا من الله تعالى، الذي يفرح بتوبة عبده، وهو لا يحتاج إلى توبته، والذي يرحم – سبحانه وتعالى – عبادَه بسبعين جزءًا من رحمة الأمِّ برضيعها.

وكلَّما قرُب المرءُ من الله تعالى رقَّ قلبه، ولانت جوارحه، وبعُد الشيطان عنه، مهما حاول الاقتراب، فكم ذُكرتْ الرحمة في كتاب الله تعالى، وفي سنَّة نبيِّه ورسوله محمَّد بن عبدالله ﷺ.

الوقفة الثانية عشرة: الصِّلة

يدخل المسلمون، اليومَ، الحضارة من أوسع أبوابها. وقد تكون هذه العبارة مرغوبًا فيها، فمَن منا لا يرغب في دخول الحضارة من أوسع أبوابها؟! إلا أن المقصود هنا أن حضارة اليوم اعتمدت المادَّة مسيِّرة لها، فاتَّسعت البلاد الإسلامية، وتضخَّم السكان في المدن بخاصة، وهُجِرت الأرياف والقرى نسبيًا. وازدحمت المدن الكبيرة، وزاد حجمها في السكان والعمران، واحتاجت لذلك مزيدًا من مقوِّمات العيش، في الوقت الذي تسير فيه هذه المدن والقرى والأرياف، في ركب الحضارة السريع.

هذا التوسُّع في جانب، والتقليص في جانب آخر، له مساوئه، كما أن له محاسنَه، إلا أن التركيز على المساوئ هو الغالب في جانب التوسُّع. إذ إن التوسُّع في مكان واحد يبعد الناس عن بعضهم، وإن كان قد يُرى على أنه يقرِّبهم من بعضهم. فأهل المدينة أبعد عن بعضهم من أهل القرى والأرياف.

وهذا يؤثِّر على مسألة الالتقاء والتراحُم والتوادِّ. فلو كان المرء بعيدًا عن أقاربه لكان معذورًا في البعد عن الاتصال، ولكن أن يكون الأقاربُ في مدينة واحدة، ولا يتَّصل بعضهم ببعض، فهذه سيِّئة من سيِّئات هذا التوسُّع. ومع أن الحضارة هيَّأت سبل الاتصال والمواصلات، إلا أنها، في الوقت نفسه، أضافت ضغوطًا نفسيَّة

على أهلها، بحيث لا يجد الواحد منا الوقت ليتَّصلَ بالآخرين، أو ليصل إليهم، إن لم تكن هناك حاجة مادِّية له عندهم.

ومن الناحية النظرية يستطيع المرء استخدام الهاتف، ووسائل الاتصال الإلكترونية الأخرى، والاتصال بقريبه، للسلام عليه. ولكنِّي أظنُّ أن المتحدَّث إليه في الجانب الآخر ينتظر من المتَّصل أكثر من مجرَّد السلام، وكأنَّ السلام أضحى شيئًا مجرَّدًا. مع أن صلة الرحم قاعدة صلبة من القواعد التي يقوم عليها أي مجتمع من المجتمعات، وتؤكِّد عليها أحكام الإسلام، بنصوص القرآن الكريم، وسنَّة المصطفى **محمَّد بن عبدالله** ﷺ.

والتكثيف في صلة الرحم بالزيارة المباشرة، ما أمكن، ثم بالاتصال الهاتفي، أو عبر الرسائل المكتوبة، أو الإلكترونية، إن تعذَّرت الإمكانية المباشرة، كفيل بأن يزيل هذا الانطباع، الذي يكاد يشيع بين الناس، بأن الرابطة إنما تحوَّلت إلى الجوانب النفعية بين الناس. ونظرًا للتأثُّر الطارئ على نمط العيش المجلوب من مجتمعات، غلَبت الجانب المادِّي في مفهوم الحضارة، يرغَبُ الناسُ، الآن، في الاتصال قبل القدوم للزيارة، ولم يكن هذا ديدنَ الأسلاف، عندما كانت الحياة أبسط بكثير مما هي عليه الآن. وليس ديدنَ بعض من قومنا اليوم، الذين لا يلتفتون إلى تعقيدات الحياة، وبروتوكولات الزيارات من أخذ المواعيد، والتأكُّد من مناسبة الوقت.

والشرع يقرُّ أن للمرء خصوصيَّته، ويؤكِّد على ثلاثة أوقات في اليوم والليلة، يكون المرء فيها أقربَ إلى الخصوصيَّة. وهي وقت الفجر ووقت الظهيرة ووقت الليل، ولذا تؤكِّد النصوص، في القرآن الكريم، والسنَّة النبوية الشريفة، على الاستئذان في هذه الأوقات، وعدم دخول أفراد محدَّدين على المرء فيها، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ ﴾. (النور ٥٨).

ومع إقرار القرآن الكريم والسنَّة النبوية المطهَّرة على خصوصيَّات المرء، فإن هذا الإقرار لا يتعارض، بحال، مع التوكيد على التوادِّ والتراحُم، فلكلٍّ وقته، والتوادُّ والتراحُم والصلة، على أيِّ حال، لا تأخذ من المرء وقته كلَّه، بل لا تأخذ منه جُلَّ وقته.

إن هذا التأثُّر بالحضارة المادِّية طارئ؛ لأن أحكام الإسلام بعامَّة، ومنها صلة الرحم، تتماشى مع الفطرة، والإنسان ميَّالٌ إلى العودة إلى ما فطره الله عليه، مع التوجيه للفطرة، مهما جرَّب من صنوف التوجُّهات والتنظيرات، والتعلُّق بما قد يبدو عليه أنه ارتقاء نحو الأفضل. بينما يتَّضح منه، بَعدَ تجربته، أنه يتَّجه إلى العكس

تمامًا، فيعين على تصدُّع الأسر، وتفكُّك الأرحام، وابتعاد الناس عن بعضهم، واقتحام التباغُض والتنافُر عليهم، وإنكار بعضهم لبعض. بينما نجد أن وسيلةً واحدةً سهلةً وميسورةً للجميع، وهي إفشاء السلام بين المسلمين، كفيلةٌ بترسيخ مفهومات التوادُّ والتحابُب والأخوَّة بينهم.(١)

فإذا كان هذا تأثير السلام بين العابرين، فما بالكم باللقاء في الله، والمحبة في الله، وتخصيص الوقت لأجل هذا المفهوم البنَّاء، في دنيا المسلمين وفي آخرتهم.

(١) عن أبي هريرة – رضي الله تعالى عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا، أوَلا أدلُّكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم». رواه مسلم، وأخرجه أبو داود والترمذي.

الفَصْلُ الثَّالِثُ

وَقَفَاتٌ
مَعَ العِلْمِ وَالمَعْلُومَةِ

الوقفة الأولى: القرية الكونية

يتردَّد، الآن، أننا نعيش في قرية، بحيث أصبح من السهل جدًّا أن يتَّصل الإنسان المتلقِّي بالعالم كله، من خلال جملة من الأجهزة والآلات، والواقع أني سأتبنَّى فكرة أحد الأخوة المعنيِّين في هذا المجال، في أن العالم اليوم يعيش في بيت كبير واحد، وليس قرية. إذ إنك في بيتك، الآن، تملك أن تتعرَّف على ما يدور في العالم، وعلى الهواء مباشرة، وتتَّصل، وتتحاور، وتنهي بعض الأعمال.

وظهرت لذلك مصطلحات، نقلت من أصلها إلى عالم المعلومات، مثل الطرق السريعة الجبَّارة (super-highway)، ونسمع عن شبكات معلومات عالمية، بدأ الناس يُحذِّرون منها، لأنها تعبِّر عن وجهة نظر تحرُّريَّة نحو الحياة والإنسان. ولا بُدَّ من الاستعداد للإنترنت وأخواتها، مما يدرس الآن تعميمُه، عالميًا، من نظم المعلومات. وفي ظلِّ هذا التفجُّر في إيصال المعلومة نجد أن العرب جميعًا، من حيث اللغة على الأقل منساقون وراء هذه الفورة في صناعة المعلومات، وبالتالي في الحصول عليها، واستخدامها، أي الإفادةِ منها.

والعرب، في عمومهم، يحكمهم دين، هو الإسلام القائم، كذلك، على المعلومة، فهذا الدين لم يأتِ من فراغ، ولم يكن يومًا من الأيام تجميعًا لانطباعات شخص، حاول التنظير لفهم الحياة والناس، بل قام على كتاب منزَّل، وفسَّرته سنَّة مطهَّرة،

وطبَّقه أناس وهو ينزل. وكان لدى المطبِّقين إشكالات شرعيَّة، أجاب عليها القرآن الكريم والسنة النبويَّة المطهَّرة في حينها. ثم جاء الصحابة والتابعون وأسهموا في تفسير القرآن الكريم، وشرح السنَّة النبوية، ثم ظهرت المدارس الفقهية التي اصطلحنا على تسميتها بالمذاهب، وهكذا، امتدَّت سيول من المعلومات الشرعية، أصبحت مصادر للمعرفة الإسلامية، يتَّكئ عليها العلماء اللاحقون في تحقيق مسائل، وإن كانت في صورها مستجدَّة.

ولا يتوقَّع أن يستغني الخلف عن السلف، في الحصول على المعلومة، والإفادة منها، ثم تطويعها للزمان والمكان، أخذًا في الحسبان أن هناك معلوماتٍ ثابتةً، لا يؤثِّر فيها الزمان ولا المكان.

ثم ظهرت الشروح الأخرى والاقتباسات والملخصَّات والموجزات والتجميعات والمعلومات السريعة، الظاهرة على شكل كتيِّبات مستلَّةٍ من كتبٍ كبار، وذلك تمشِّيًا مع الحاجة من ناحية، واستغلالاً لتقنية المعلومة، التي أتاحت وسائلَ لنشر المعلومات، مطبوعة، أو مسموعة، أو مسموعة مرئية، أو مقروءة على الشاشات، من ناحية أخرى. وكل هذه وسائل لنقل المعلومة الشرعية، تتجدَّد وتتغيَّر مع الزمان. وتظل الحاجة إلى المعلومة الشرعية قائمة.

وتظل التقنية تظهر بالجديد في مجال نقل المعلومة، ممَّا يستدعي استغلال هذه التقنية في المجال الديني، كما تُستغلُّ في مجالات أخرى. ولا فرقَ تقنيًا بين المعلومة والمعلومة. وهذا قد

يستدعي التفصيل في مجال التعامُل مع المعلومة الشرعية، من حيث توصيلُها إلى المستفيد، الذي هو الآن بحاجة إلى المعلومة الشرعية الصحيحة، التي تعينه على الاستقامة في حياته، وفي علاقته مع ربه، وفي علاقته مع الآخرين.

الوقفة الثانية : التثبُّت

هنـاك مفهومـات، تمـرُّ مصـطلحاتها علـى بعـض النـاس، دون الوقوف عندها طويلاً، ومعرفة دلالاتها. ومن أهمِّ هذه المفهومات ما جـاء في سياقه آيـة، أو آيـات في كتـاب الله تعـالى، أو حـديث عـن المصـطفى محمَّد بـن عبـدالله ﷺ. وبـالرغم مـن أنهـا تمـرُّ علـى المـرء كثيرًا، إلا أنها، فيما، يبدو تمـرُّ مـرورًا سـريعًا علـى أنهـا آيـة تُتلـى. ولعل آية التثبُّت من هذه الآيات التي تُقرأ في هذا المجال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝٦ ﴾. (الحجـرات ٠٠٦)، وقــرئ فتثَّبتــوا. وتحمــل مفهومًــا رائعًا في التعامل مع المعلومة/الخبر، من حيث كونُه قابلا للتصديق والتكذيب. وهكذا قالت العرب عن الخبر.

ولذا نجد أن بعض الناس يغفلون هذا المفهوم، عندما ينساقون وراء أيِّ معلومــة تأخــذ طــابع الإشــاعة، أو التشــهير بشــخص أو بمؤسَّسة. وتعـرض هـذه الأخبـار علـى أنهـا مسلَّمات، وليسـت مجرَّد إشـاعة، بـل إنَّ بعـض النـاس يعرضـونها بصـورة، وصـياغة، تـوحي للمتلقِّـي بالشـماتة غالبًـا، والتشـفِّي أحيانًـا، أي أنهـا معلومـات ذات غرض غير موضوعي. وأظـن أنَّ الأمَّـة تعـاني مـن هـذه المشـكلة، في مجتمعها الصغير والكبير. ولعلَّ مما يعـين علـى رواجهـا، مـع إغفـال مفهوم التثبُّت، هـو غيـاب المعلومـة الصـحيحة، غالبًـا، الـتي تمـارس الردَّ المباشر على الإشاعة، سلفًا، بحيث لا تتيح لها مجالاً للانتشار.

ويأتي ذلك قبل ظهور الخبر غير المتثبَّت فيه، وفي موارده. ذلك أن تكذيب الخبر، بعد وروده، لا يأخذ المساحة التي أخذها الخبر نفسه، في قبوله ابتداءً، لاسِيَّما إذا كان الخبر يوافق هوىً في النفس، لدى ناشريه أو متلقّيه.

ومن أطيب ما يمكن أن يسمعَه المرء من تلقّي الخبر أن يقول المتلقّي: نتثبَّت أوَّلاً، ثم نقبل أو نرفض. وهذا هو ديدن السلف الصالح، فيما يصل إليهم، دون مبالغة في ذلك، أو غلوٍّ فيه. وكان **ابو بكر الصديق** – رضي الله تعالى عنه – يقبل أيَّ شيء يرد عن المصطفى – عليه الصلاة والسلام – فيصدِّقه، ومع هذا فإنه – رضي الله تعالى عنه – كان يشترط لنفسه أن يتثبَّت من أنه جاء عن الرسول ﷺ. ومعنى هذا أنه لم يُغفل جانب التثبُّت، فيما ينقل له عن المصطفى ﷺ. ونحن نحتاج اليوم إلى التثبُّت في قبول الأخبار أكثر من أي وقت مضى، ذلك أن مصادر الأخبار قد تعدَّدت، وتنوَّعت، وتمايزت، وأصبحت ذات انتماءات، وتخدمُ أغراضًا خاصَّة.

وليس المرء بحاجة اليوم إلى أن يندمَ على ظُلمه، عندما يصيب أحدًا بجهالة، لاسِيَّما أنه يملك الابتعاد عن هذا المزلق، بالتثبُّت الذي يحميه، ويحمي غيره. والدعوة، هنا، إلى التركيز على مفهوم التثبُّت في المجالس، وفي خطب الجمعة، وفي الإعلام، وفي أي مناسبة، رغبةً في سدِّ الطريق على إشاعة الأخبار الخاطئة، ورغبة

في ترسيخ هذا المفهوم الرائع في حياة الأمَّة، فيما يتعلَّق بموقفها من الخبر.

ولعل من المناسب، أحيانًا، عدم الولوج المباشر فيما يتناقله الناس من أحاديث المجالس، لاسيَّما عند التعليق على حدث محلِّي أو إقليمي أو دولي، ذلك أن هذه الأحاديث غالبًا ما تفتقر إلى المعلومة الدقيقة، ويلاحظ على روَّادها حرصهم على إقحام أي جديد حول الحدث، بحسب رغبة المتحدِّث في توجيه دفَّة الحديث، في مصلحة الحدث، أو خلاف ذلك. والسبب في الرغبة في العزوف عن الخوض في هذه الأخبار هو رواتها، إذ إن غياب المعلومة الصحيحة يفتح مجالا واسعًا للشائعات، التي لا تخدم المصلحة في غالب الأحيان. وحيث إننا مطالبون دائمًا بالتثبُّت من المعلومة قبل إشاعتها، فإنها أمانة علينا ألا نتسرَّع في نشر معلومة غير ثابتة.

ويكثر الحديث، هذه الأيام، عن الحدث الذي هزَّ الجميع (١١/٩/٢٠٠١م الموافق ٢٦/٦/١٤٢٢هـ)، وجاء هذا التركيز على حساب الأخبار الأخرى، مثل الحدث الإقليمي الذي لا يزال يحصد العشرات من أبناء **فلسطين** المحتلَّة، في غيبة من التركيز الدولي على ما تعارف عليه العالم بالانتفاضة، باسمها الجديد: **انتفاضة الأقصى**.

وحيث ما تكون تجد الناس، على اختلاف مستوياتهم، يخوضون في هذا الحدث الذي سيطر على أذهان الناس، لهوله ولغرابته، إلى درجة جعلت بعضًا من الناس لا يزال في حالة ذهول.

وليس هذا تقليلا من شأن هذا الحدث، فهو حدث لا إخال اثنين يختلفان على ما خلَّفه في النفوس الباقية، ناهيك عن النفوس التي كانت ضحية له. إلا أن الوقفة، هنا، ربَّما تذكَّر في هذا الجدل القائم، الآن، الذي امتدَّ إلى ما وراء الحدث، مما كان مجالاً لوقفة لاحقة بعنوان: الأسباب، دعوت فيها إلى الحكمة في النظر إليه، وعدم التسرُّع في إطلاق الأحكام، والتعلُّق بما يرد من روايات غير ثابتة. وأحسب أن الحقيقة سوف تظهر يومًا ما، مع صحوة الناس من هول الحدث.

ونحن نجالس كثيرًا، ونسمع كثيرًا، ونتحدَّث في هذه المجالس كثيرًا، ونتناقل الأخبار والروايات، ولا بأس في هذا من حيثُ الأصلُ، ألا أننا نواجه أحيانًا إطلاقاتٍ في الأحكام أو الحقائق، وكأنها من المسلَّمات، التي لا تقبل النقض. وإن صحَّ هذا عند بعض الناس، وهو غير صحيح عند كل الناس، فإنه لا يصحُّ، من باب أولى، في المجالس، التي تضمُّ أولئك المتعلِّمين والمثقَّفين والمفكِّرين، المطالَبين، دائمًا، بالتثبُّت من المعلومة التي يتلقَّونها، ثم يلقُونها على الآخرين. ولا يعني هذا الحجرَ على تلقِّي المعلومة، أو إلقائها. ولكن التلقِّي والإلقاء مشروط دائمًا بالصحة في التلقِّي، والدقَّة في نقل المعلومة إلى الآخرين، لاسِيَّما في زمانٍ اختلفت فيه أشكال المعلومة، واختلفت مصادرها، التي تُستقى منها المعلومات.

وليس من المنتظر من كل متلقٍّ لمعلومة ما، مهما كانت أهميَّتها، أن يسارع بالتصديق بها والتسليم بمحتواها، فيجعلها

مجالا للسبق في الطرح في المجالس على أنها مسلَّمة، أما طرحها من باب مناقشتها والتحرِّي عنها والحوار حولها، فأمر آخر، وشأن يسير. أقول هذا وأنا أسمع أحيانًا عدم ارتياح بعض المعنيِّين من هذا الطرح المتسرِّع في مجالات النقد لمسؤول من المسؤولين، أو لمصلحة من المصالح العامّة والخاصّة، وهم يملكون المعلومة الصحيحة التي يمكن أخذها منهم مباشرة، قبل نشر المعلومة المغلوطة التي استهوت الناشر، وجعل منها مجالاً للنقل إلى الآخرين، من باب الإثارة. والآخرون، بدورهم، ينقلونها إلى غيرهم، وهكذا. وعند الرجوع إلى المصدر الأصلي للمعلومة المغلوطة تجده استقاها من مصدر آخر، لم يتثبَّت في تلقّيها، ولم يتثبَّت في نقلها.

ونحن مطالبون، من حيثُ المبدأ، بالتثبُّت من النبأ أو الخبر، والتبيُّن منه، بنصِّ القرآن الكريم، الذي يتعامل مع المعلومة على أنها خبر، يحتمل الصدق والكذب، وإنما تصدِّقه أو تكذِّبه القرائن من حوله.

المجالس:

وأعجب لأحاديث المجالس، التي يرغب الناس في قضاء وقتهم فيها، إذ إن كثيرًا منها لا تزال تفتقر إلى المصداقية، وتعتمد على قلّة التثبُّت في نقل المعلومة، بل والرغبة في إشاعتها لمجرد سماعها، لاسيَّما إذا كان فيها لمزٌ لأحد، أو غِيبةٌ لآخر. وربَّما شاعت هذه المعلومة غير الموثَّقة، بحُجَّة الرغبة في الإصلاح العامّ، بحكم

الانتماء المباشر إلى المجتمع المراد إصلاحه، في الوقت الذي تظهر عليه علامات التقصير في هذا المجتمع، فتكون إشاعة المعلومة بهذه الصورة ذات هدف نبيل، ولكنها قد تخلو من الصواب في الوسيلة، مهما كان نبل الغاية. كما أنها قد تخلو من الصواب، من حيث كونُها معلومةً خبرًا، تحتمل الصدق والكذب. وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة – رضي الله تعالى عنه – أن النبي ﷺ قال: «كفى بالمرء كذبًا أن يحدثُ بكلِّ ما سمع».[١]

والمهمُّ أن تصل المعلومة إلى المعني بها، بدلا من أن تكون مجالا للحديث في المجالس، يتناقلها الناس من مجلس إلى مجلس. وربَّما خرجت في البدء من صاحبها الأوَّل بحسن نيَّة، ثم أخرجها غيره في مجلس آخر، بل في مجالس أخرى، بسوء نيَّة، وبرغبة في إشعار الآخرين بالقدرة على جلب المعلومة، ثم تكون النتيجة وصمَ المعني بها، **أوَّلاً**، بالإهمال والتقصير، وثانيًا قلَّة المبالاة، وقلَّة الاهتمام.

آفة الأخبار:

وقد وصلتني معلومة تعنيني مباشرة، نقلها واحد إلى آخر له به صلة، والناقل الأوَّل نقلها عن واحد قبله، أحسب أنه مخلص في نقله، لكنِّي أحسب، في الوقت نفسه، أنه قد جانب الصواب في

---

(١) رواه مسلم.

الجهة التي نقل إليها المعلومة، إذ يبدو لي من الطريقة التي نقل بها الخبر إلى أن ناقلها الأوسط قد سمعها من ناقلها الأوَّل في أحد المجالس، ثم نقلها عنه إلى الناقل الثالث، الذي نقلها بدوره إليَّ عبر الهاتف.

وأحسب أن الناقل الأوَّل، رغم ثقتي بإخلاصه في الاهتمام بالمعلومة نفسها ورغبته في الإصلاح، لم يقف على المعلومة ذاتها بنفسه، بل ربَّما نقلها إليه أحد العاملين معه، بدافع الإصلاح، يحدوه الإخلاص كذلك. وعندما تثبَّتُ من المعلومة التي مرَّت بأربعة مصادر، أوَّلية وثانوية، تمثَّلت أمامي هذه المقولة العظيمة في ثقافتنا العلمية من أن «آفة الأخبار رواتها». فلم تكن المعلومة التي وصلتني، عبر أربعة مصادرَ، دقيقةً كلَّ الدقة المطلوبة في نقل المعلومة، إذ إنها ربَّما بُنيت على انطباعة أوَّلية، في مشهد واحد، لإجراء خاصٍ جدًا، ثم عُمِّمت على كل الإجراءات المتَّبعة في مجالها.

ولا يعني القارئ، هنا، ذكر المعلومة بعينها وظروفها، إذ إن الطرح هنا ينصبُّ على التثبُّت من المعلومة، أو النبأ، أو الخبر، قبل الدخول في فكرة إشاعته، ناهيك عن جعله موضوعًا لحديث المجالس!

ويقودُ هذا الطرح إلى التعرُّض لحديث المجالس، فيما يتعلَّق بمجال العاملين في جهاز من الأجهزة، لاسِيَّما إذا كان هذا الحديث مبنيًا على اتِّهام الأشخاص في ذممهم، ويشيع ذلك في

المجالس، دون اللجوء إلى التثبُّت من هذه الاتِّهامات، والمجالس في غنىً عن ذلك، إذ إن مجالات المجالس يمكن أن تشغل بغير هذا، مما يخرج منه الحاضر بنتيجة تنعكس على حياته، وبعدَ مماته.

ولا بُدَّ من اعتبار المتَّهم بريئًا حتى تثبت إدانته، بدلا من اعتبار الشخص مدانًا حتى تثبت براءته. وهو طرح شرعي قبل إن يكون قانونيًا، ولكن العبرة في تطبيقه في حياتنا اليومية، حتى في أصغر الأمور التي تجري بين الناس، فما بالكم فيما إذا كان الأمر يتعلَّق بذمم الناس وأعراضهم. ونحن بشر نخطئ، وقد تجرفنا العاطفة، حينما نسمع من طرف واحد، والأصل عندنا أن نسمع من الطرف الثاني. وهذا يتردَّد كثيرًا. والجميل فيه عند ترديده أنه ينبِّه الغافلَ الذي جرفته العاطفة، فقفز إلى النتيجة، وربَّما بنى على ذلك قرارًا ما.

ومهما يكن من أمر فإننا بشر نتعرَّض للخطأ في حياتنا العامّة والخاصّة، وخير الخطّائين التوّابون،[1] ومن التوبة إعادة الحقوق إلى أصحابها، وليس فينا من يصرُّ على أمر يتبيَّن فيه أنه غير صواب، فالصواب هو ضالّتنا، ومتى ما اقترن مع الصواب الإخلاصُ، دلَّ ذلك على حسن العمل وقبوله. وهذا يقتضي استمرار المرء في تقويم ذاته، وقبول تقويم الآخرين له، ولما يعمل، ولكن

(١) من منطوق حديث المصطفى محمد بن عبدالله ﷺ: «كل ابن آدم خطّاء وخير الخطّائين التوّابون». اخرجه الترمذي والدارمي وابن ماجه وأحمد ابن حنبل.

بالطرق السليمة المباشرة البعيدة عن القيل والقال، وتصدُّر المجالس، وشغلها بأعراض الناس. ثم قبل ذلك التثبُّت من المعلومة، التي يُراد التقويم من أجلها، حتى تكون الحجَّة قويَّةً. ومع هذا كله فعلينا أن نضع في أذهاننا أن الخلاف يحصل في شتَّى الحالات، التي يكون فيها تعامُل بين طرفين أو أكثر. وعلينا أن نقرَّ كذلك أن التقصير لازمةٌ من لوازم بعض الناس، بالاكتساب لا بالفطرة، وإلا لأصبح الأمرُ قُصُورًا، لا تقصيرًا. ولا يعاتب القاصر على قصوره، ويعاتب المقصِّر على تقصيره.

ولعلنا نوفَّق في أن نجعل هذا الخلاف خلافًا في العمل نفسه، وليس خلافًا شخصيًا، إلا أن الواقع يؤكِّد، دائمًا، على أن الخلاف في العمل يتحوَّل، دائمًا، وليس غالبًا، إلى خلاف شخصي. فندخل، عندها، في النوايا والمقاصد، التي لا يعلمها إلا الله تعالى.

--- --- ---

الوقفة الثالثة: الانطباعية

يزور أحد المهتمّين، من غير المسلمين، ديار المسلمين، ليكتبَ عن هذه الديار. وكتاباته هذه تقوم على انطباعات (Impressions)، حصل عليها من معايشته للمجتمع، الذي عاش فيه ردحًا من الزمن. وهذه الانطباعات تسجَّل، من قِبَلِه، على أنها أحكام عامة، وتعمَّم على الإسلام والمسلمين، في مجالات السياسة، والأخلاق، والمعاملات التجارية، والأنماط الاجتماعية. وإذا لم يأتِ المستشرق ليعيش بين المسلمين، فيكتب عن الإسلام، فإنه يغوص في الكتابات التي ركّزت على القرن الثاني عشر الهجري، الثامن عشر الميلادي إلى اليوم، ليأخذ منها سلوكيّات المسلمين، فيقدّمها للغير على أنها الإسلام.

وفي بطون الكتب أمثلة من ممارسات جاهلة، يقوم بها أناس جَهَلة. وهي ممارسات لا تمتُّ، من قريب أو بعيد، إلى العقل والدين والذوق بصلة، مثل ذلك المعتوه الذي يبقر بطنه، فيمشي في الشارع، وأحشاؤه تتدلّى أمامه، وقد وضعها على طبق يحمله، ليلفت بها الانتباه، في زمن قلَّ فيه الانتباه.[1] ومثل ذلك التاجر الذي يبيع الناس أفضل البضاعة، يضعها على ظاهر الوعاء، وفي أسفله يكمن الحشف والرديء من الحب، أو التمر، مما يناقض ما هو

(١) إدوارد سعيد. الاستشراق: النشأة، السلطة، الإنشاء/ تعريب كمال أبو ديب. - ط ٦. - بيروت: مؤسّسة الأبحاث العربية، ٢٠٠٣م. - ٣٦٦ ص.

أعلى الوعاء. ومثل ذلك المتلبِّس بالدين، الذي يظهر للناس أنه من الصالحين، ثم يمارس أعمالاً لا يمارسها أنصافُ الصالحين، وغيرها من الأمثلة. وهذه المواقف، من المشاهدات، هي المجال الخصب لمن يحاولون تتبُّع عورات الناس، ليعمِّموا هذه الأخطاء، ويجعلوها حجَّةً على الدين، الذي لم يصل في نفوسهم إلى مستوى ردع الناس عن هذه الممارسات.

ولا تقتصر المشاهدات هذه على الممارسات في المجتمع المسلم على المجتمع المسلم نفسه، بل، بحكم الخلفية الثقافية للمستشرق، تجده يتلمَّس معاملة المسلمين، على أرض الواقع، لغير المسلمين، من الأقليات الموجودة في المجتمع المسلم، فإن كانت سيئة فإن هذه فرصةٌ للتعميم على المسلمين جميعًا، ماضيًا وحاضرًا. ولعلَّ من أبرز ما يمكن الاستشهاد به في مقام الانطباعية هذا ما قامت به المستشرقة الإنجليزية **تساريس وادي**، المولودة في أستراليا، والتي نشأت في **القدس**، التي تشهد نشاطًا للديانات السماوية الثلاثة، اليهودية والنصرانية والإسلام، فكتبت عن ذلك في كتب ومقالات، منها **قوافل بعلبك**، و**العقل المسلم**، ولم تقتصر في إقامتها على **القدس**، بل جالت في **الملايو وإيران ونيجريا ومصر**.

وفي كتابها **العقل المسلم** نقلات انطباعية عن عقليَّة المسلمين، في الوقت الذي أُلِّفت فيه هذا الكتاب، وهو النصف الأول من القرن العشرين الميلادي، الرابع عشر الهجري، الذي لا

يقدِّم صورة طيِّبة عن المجتمع المسلم، بحكم القرب من الانفكاك من التبعية الاستعمارية، وظهور نزعات ونعرات، كان أكبر همِّها ألاَّ يكون للإسلام أثرٌ في العهد الجديد للمجتمع الناهض من ربقة الاستعمار. ولذا فإن الكاتبة لم توفَّق في إعطاء صورة موضوعية للعقل المسلم، وإن بدا في كتابها وقفاتٌ إيجابية، تُعَدُّ ومضاتٍ في طريق مظلم. وقد وقف الأستاذ **عبدالجليل شلبي** وقفاتٍ مسهبةً، مع هذا الكتاب، ومع الكاتبة في كتاب له بعنوان: **صور استشراقية**.[١]

والانطباعية ليست مقياسًا لأي مجتمع من ناحية، ثم إنها، بشكل أوضح، ليست مقياسًا للدين والثقافة، لأن الدين، كما نعلم، حُجَّةٌ على الناس، وليس الناس حُجَّةً على الدين. والمعادلة التي ينبغي أن ترسخ في الأذهان، دون أن تؤثِّر عليها الكتابات الخارجية، والداخلية أحيانًا، هي أنه متى ما قرُب الناس من الإسلام، استطاعوا تمثيلَه على الواقع، ومتى ما بعدوا عنه، بعدوا عن تمثيله على الواقع، ومع هذا كلّه يظل الإسلام حُجَّةً على الناس، وليس العكس، وعليه فالانطباعات لا تدخل في الحجِّية، وليست مقياسًا ثقافيًا.[٢]

---

(١) عبدالجليل شلبي. صورٌ استشراقية. – القاهرة: دار الشروق، ١٤٠٦هـ. – ٢٢٤ ص.

(٢) بحثتُ في الانطباعية لدى المستشرقين، على أنها مصدر من مصادر المعلومات عن الإسلام والمسلمين. انظر: «الفصل الثالث: رحلات المستشرقين مصدرًا من مصادر المعلومات عن العرب والمسلمين». ص: ١١٧ – ١٨٣.

=

وديار المسلمين، عدا الحرمين الشريفين، مفتوحة مشرَعة للرحَّالة غير المسلمين، ومبدأ الأسوار والبوَّابات مبدأ لم يعد له مجال في التاريخ الحديث. ولذا كان العالَمُ الإسلامي مفتوحًا للجميع، من التجَّار، والعاملين، والدارسين، والممثِّلين الدبلوماسيين، والمكتشفين الجغرافيين، وكل هؤلاء واجهوا المجتمع المسلم من منطلق ثقافي، مختلف عن الثقافة السائدة في المجتمع المسلم. ونحن لا نملك أن نغلق الأبواب أمام الرحَّالة، ولكننا نستطيع أن نعمل على إعطاء صورة صادقة، يحملونها معهم عن هذه الأمَّة، التي تترجم الإسلامَ اعتقادًا وسلوكًا.

وحيث إن المجتمع المسلم مفتوح للجميع، وإن فكرة الأسوار والحصون والقلاع كانت أسلوبًا قد مضى، فإن أنواعًا من الرحلات قد طرقت هذا المجتمع، ويمكن إجمال هذه الأنواع، بحسب أهدافها، على النحو الآتي:

- **أهداف علمية**: قصدُها التعرُّف على المنطقة، ودراستها من نواح عدَّة، جغرافية، واجتماعية، وبيئية، وطبيعية، وتجارية، ونحوها، من أجل التعامل مع هذا المجتمع، واتِّخاذ موقف واضح منه، ويدخل في هذا رحلات المستشرقين.

=

في: علي بن إبراهيم الحمد النملة. **الاستشراق والدراسات الإسلامية: مصادر الاستشراق والمستشرقين ومصدريَّتهم**. - الرياض: مكتبة التوبة، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م. - ٢٦٢ ص.

• **أهداف ثقافية:** وتدخل فيها رحلات المستشرقين والحملات التنصيرية، التي سعت إلى التعرُّف على المجتمع، رغبةً في التأثير الثقافي عليه، وجلبه إلى أحكام الإنجيل، وغالبية هذه الرحلات جاءت بمنظور إنقاذي لأمَّة تتخبَّط في الظلام، من وجهة نظر المنصِّرين. وتدخل فيها الرحلات السياحية، التي تهدُف إلى التعرُّف والتغيير.

• **أهداف اجتماعية:** هدفها التعايش مع المجتمعات، بدافع الإعجاب بها، وما تتَّسمُ به من بساطة وطيبة ووضوح ونقاء، قلَّ أن يكون متوافرًا في المجتمعات التي يقدُمون منها، بالإضافة إلى الرغبة في التغيير في نمط العيش، مما قد يصل إلى اعتناق الثقافة نفسها، أي اعتناق الإسلام والانخراط في المجتمع المسلم.(١)

• **أهداف سياسية:** غرضها توطيد العلاقات، والتقرُّب من القيادات العربية والإسلامية، رغبة في الحصول على دعم هذه الدول، في مسيرة تلك البلاد السياسية، في خضم التكتُّلات القائمة والمعروفة.

وهناك أهداف أخرى، قد تتَّضح في سياق هذا الموضوع، إلا أنه من المهمِّ النظر إلى الرحلات من خلال أهدافها، التي تُبيِّن أن بعضها أهدافٌ طيِّبة نزيهة، وبعضها أهدافٌ سيِّئة غير نزيهة. وليس من

---

(١) انظر: هاني المبارك وشوقي أبو خليل. **الإسلام والتفاهُم والتعايُش بين الشعوب** – دمشق: دار الفكر، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م. – ١١٢ ص. – (سلسلة حوارات لقرن جديد).

الموضوعية أن ننظر إليها على أنها، جميعها، نزيهة، أو أنها، جميعها، غير نزيهة، وإن ذهب البعض إلى أن معظم هذه الرحلات تحمل وراءها مقاصد غير طيِّبة. وجاء هذا الانطباع من خلال الظروف التي مرَّت بها المنطقة، كالاستعمار، والرغبة في استمرار التأثير عليها.

وقد أتاح هذا كثيرًا من المساحة لسوء الظن بالجميع، ما داموا قد قدموا من الغرب. ويؤيِّد ذلك أن هذا الشعور ليس بقوَّته في النظرة إلى القادمين من الشرق الأقصى. وبهذا يمكن القول إننا نعاني من أزمة ثقة، وعقدة سوء الظن في الجهة الغربية، مع أن الأصل عندنا حسن الظن في الجميع، حتى يتبيَّن لنا خلاف ذلك، دون الدخول في النوايا، التي لا تظهر لنا.

البُعد الرابع:

وقد ظهر كتاب باللغة الإنجليزية، يحتاج إلى ترجمة دقيقة لعنوانه: At Home in the Fourth Dimention، قبل ترجمته كله، إذ إن العنوان نفسَه ملفتٌ للنظر، ولا يوحي في الوقت نفسه إيحاءً قويًا بالمضمون. فهو من العنوانات الأدبية الموحية بالتحوُّل الذي حصل للمؤلِّفة **مريم مطر** (زوج القبطان **احمد مطر**، مدير عام الخطوط الجوية العربية السعودية السابق)، وهي أمريكية، أحبَّت العربَ وجزيرةَ العرب، عندما عملت فيها مدةً من الزمن.[1] بل ربَّما أقول من

(١) Merriam Matter. At Home in the Fourth Dimention.- London: Immel publishing limited, 1994.- 208 p.

القراءة الأولية للكتاب: إنها عشقت العرب وعاداتهم وتقاليدهم، وتعلُّقهم بالله تعالى، في جميع شؤونهم، في السرَّاء والضرَّاء، مما أدَّى بها إلى اعتناق الإسلام عن قناعة، كما ظهر من كتابها، الذي يبرز عشقها للمجتمع العربي المسلم البسيط، الذي كان سائدًا في السبعينات والثمانينات الهجرية، الخمسينات والستينات الميلادية. والكتاب يحتاج إلى وقفات متعدِّدة مع التواصل في قراءته، والرغبة في نقله إلى اللغة العربية، في أسرع وقت ممكن، للإفادة منه.

وهناك نوع من الكتابات حول العالم الإسلامي، كتبها الرحَّالة على مختلف فئاتهم وتخصُّصاتهم واهتماماتهم، بل ودوافعهم التي من أجلها جاءوا إلى المنطقة، ومن أجلها كتبوا ما كتبوه. وغالبًا ما تشتمل هذه الكتابات على انطباعات الرحَّالة حول مجتمع ضيِّق من المجتمع المسلم الكبير، ثم يسعى الكاتب إلى تعميم هذه الانطباعات، التي بُنيت على مشاهدات في الشارع الصغير، في ذلك المجتمع الضيِّق. وتعمَّم هذه الانطباعات على الإسلام نفسه، إذ يؤخذ الإسلامُ كله من خلال هذه الممارسات، التي يقوم بها أفراد في مجتمع صغير، فيُحكم من خلاله على الدين نفسه.[1]

---

(١) انظر مثلاً: إدوارد وليم لن. عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم: مصر ما بين ١٨٣٣ – ١٨٣٥/ ترجمة سهير دسُوم. – القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٤١١هـ/١٩٩١م. – ٥٩٢ ص. وفي حياة هذا المستشرق انظر: عدلي طاهر نور. المستشرق الكبير إدوارد وليم لين: حياته ومؤلَّفاته. – القاهرة: (مطابع دار النشر للجامعات المصرية)، ١٩٧٣م. – ٢٩٢ ص.

ونحن نعلم مدى ما وصلت إليه بعض المجتمعات من البدع والخرافات الفردية والجماعية، التي تحجُب حقيقة الإسلام عن النظر، وتسيء إلى فهم الإسلام، فهمًا يؤدِّي في النهاية إلى بروز صورة واضحة وصحيحة، تُنقل عن الإسلام من خلال الانطباعات، التي يخرج بها الرحَّالة من غير المسلمين. وحيث إن كتابات الرحَّالة تتفاوت في طرحها، بحسب اهتمامات الكاتب ودوافعه وأهدافه، فإنه ليس من العدل أن نقول إن جميع هذه الكتابات جاءت على وتيرة واحدة، أو أدَّت إلى إعلامٍ للغير متساوٍ. فانطباعات العلماء والدارسين تختلف عن انطباعات المنصِّرين، وذوي الغايات الاستعمارية، وذوي النوايا العدوانية. ولذا فإن الحكم ينبغي أن يكون تفصيليًا، بحسب قوة الانطباعات السلبية، وقربها من الحقيقة الإيجابية. ومن المهم تكرارُ الوقوف مع الإنتاج الفكري للرحَّالة الغربيين من مستشرقين وغيرهم، للتعرُّف على موقف هؤلاء من ثقافتنا وعاداتنا وتقاليدنا.[1]

---

(١) يمكن لمن يرغب في المزيد من الاطلاع على موضوع الانطباعية العودة إلى نماذج من كتب الرحَّالة الأجانب إلى البلاد العربية الإسلامية، وما كتبه المسلمون عن ذلك.

الوقفة الرابعة: الجهل

قالت العرب: «من جهل شيئًا عاداه»، ولم تثبُت هذه المقولة في وحي منزل، أو ذكر محفوظ، وعليه فإنها قابلة، مثل غيرها، للأخذ والرد، على اعتبار أن القاعدة عندنا أن كلاً يؤخذ من كلامه ويردُّ إلا المعصومَ محمَّد بن عبدالله ﷺ، الذي لا ينطق عن الهوى. ولذلك فإن هذه العبارة تؤخذ من هذا المنطلق، فيصدِّقها الواقع كثيرًا. وعند تطبيقها على ما يدور، الآن، في الإعلام الأجنبي، لاسيَّما الغربي منه، نجد أنها منطبقة، ذلك أنه على الرغم من تقدُّم صناعة الإعلام بعامَّة، والصحافة بخاصَّة، ورغم استخدام التخصُّصية في نشر المقالات والأخبار، ورغم وجود مراكز معلومات وتحليلها، وقواعد ضخمة لذلك، ورغم وجود محلِّلين صحفيين وإعلاميين، رغم ذلك كله، إلا أنه يظل هناك قدر ملموس من الجهل بالدين الإسلامي، وبالبلاد الإسلامية عمومًا، **المملكة العربية السعودية** (نموذجًا)، التي تطبِّق هذا الدين بوضوح تامٍّ، من خلال ما تظهره الأنظمة فيها.

ثم تتدخَّل بعد ذلك عوامل، وَجدتْ أرضًا خصبة لها في المجال الإعلامي، كالتأثير اليهودي على الإعلام، الذي سبق التنويه بأنه، مع ما يقال عنه، يظل يدخل في حيِّز الأوهام التي أعطت الموضوع أكثر مما يحتمل في هذا التأثير.(١) يقال هذا وقد سرى

(١) انظر: علي بن إبراهيم الحمد النملة. الشرق والغرب: منطلقات العلاقات ومحدِّداتها. — ط ٢. — الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٥م. — ١٧٣ ص.

الجهل إلى دور العبادة، وفي بعض البلاد الغربية، حيث يُكتب على لوحة الإعلانات البارزة في إحدى هذه الدور، بل في مقدمتها الظاهرة للعابرين، راكبين أو راجلين، أن سيدنا **محمَّد بن عبدالله** ﷺ يدعو إلى القتل، هكذا، وتقارِن هذه الدار دعوة المصطفى – عليه الصلاة والسلام – إلى القتل بدعوة **عيسى ابن مريم** – عليهما السلام – إلى نبذ القتل، من منطلق الوصايا العشر. وكأن سيدنا **محمَّد بن عبدالله** ﷺ جاء ليكون مخلاً بهذه الوصايا، التي يأتي تحريم القتل في مطلعها. وكأن سيِّدَنا **محمَّد ابن عبدالله** ﷺ، عند من يجهل رسالته، لم يأتِ مكمِّلا للرسالات السماوية. وكأن سيِّدنا الحبيب – عليه الصلاة والسلام –، عند مَن يجهل رسالته أو يتجاهلها، قد جاء بكل هذا من عنده.

وهناك من يدعو إلى اتِّباع أسلوب **الاستغراب**، من منطلق أن نعامل أولئك القوم بمثل ما يعاملوننا به. وهذا، وإن صدق في الأعراف الدبلوماسية، ونحوها، من منطلق المعاملة بالمثل، فإنه لا يصدُق، بحال، في مجال النظرة إلى القوم، من منطلق دينهم وأنبيائهم ورسلهم. ذلك أنه من تمام إيماننا، نحن المسلمين، أن نؤمن بهذه الأديان، وأولئك الرسل والأنبياء – عليهم الصلاة والسلام –.[1]

---

(١) انظر: علي بن عبدالرحمن الدعيج. (الاستغراب) وإمكانية تدريسه في الجامعات السعودية. – الجزيرة الثقافية ع ١١٧ (٦٢/٦/١٤٢٦هـ/ ١/٨/٢٠٠٥م). – ص ١٤.

الاستشراق:

والتطرُّق للاستغراب يعرِّج بنا على **الاستشراق**، الذي يكوِّن الآن قاعدةً من قواعد المعلومات عن الإسلام والمسلمين، ويستقي منه الإعلام الغربي هذه المعلومات، لاسيَّما فئة من المستشرقين الذين سيَّسوا الاستشراق، وطوَّعوه للإعلام، وسطَّحوا المعلومة، فيما يخدم هذا التوَجُّه الإعلامي، في حالة من الحالات التي يمرُّ بها العالم، ويكون المسلمون طرفًا فيها بإرادة، أو دون إرادة، أحيانًا.[1]

ولعلَّ أبرز الأمثلة لذلك المستشرق البريطاني **فرِد هاليداي**، الذي ما سمع بالأحداث الأخيرة (١١/٩/٢٠٠١م الموافق ٢٦/٦/١٤٢٢هـ)، حتى سارع في تجميع مقالات علمية، عنونها: **ساعتان هزّتا العالم**، وصدر باللغة الإنجليزية، في السنة نفسها. وبعض هذه المقالات تعود إلى سنة ١٤١٣هـ/١٩٩٣م. فلم يعكس العنوان محتوى الكتاب، سوى المقالة الأولى، التي شغلت عشرين صفحة من الكتاب، (٣١ – ٥١).[2] ورغم أن المؤلِّف قد أخرج أربعة

---

(١) انظر: حسن أوريدة. **الاستغراب او نظرة الآخر إلى الغرب**. – محاضرة ألقيت في افتتاح نشاط مؤسسة إدمون عمران المليح، ١٤٢٥هـ. وهي قراءة لكتاب كل من أفياشي مارغليت وإيان بوروما: **الاستغراب: الغرب في عيون اعدائه**.

(٢) فريد هاليداي. **ساعتان هزّتا العالم: ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، الأسباب والنتائج**/ ترجمة عبدالإله النعيمي. – بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٢م. – ٢٥٦ ص. وظهر الكتاب باللغة الإنجليزية عن الدار نفسها:

Fred Halliday. Two Hours that Shook the World.- London: Saqi Books, 2002.- 256 p.

عشر كتابًا، وهذا هو الكتاب الخامس عشر، بالإضافة إلى المقالات العلمية والصحفية، إلا أن هذا لا يسوِّغ القفز إلى إخراج كتاب علمي عن أحداث، لم تتَّضح الرؤية حولها بعدُ.

هذه الفئة من العلماء بنَتْ معلوماتِها على حكم مسبَق، وعلى جملة من الانطباعات، التي لم يفلح المزيد من القراءات والبحث في خلخلتها، بل إن القراءات كانت تتوجَّه إلى تعميق هذه الأحكام والانطباعات. ولا يوضع الدكتور **فرد هاليداي** كبشَ فداء، بل إنه قد يكون من أقرب العلماء إلى المنطقة، فهو يتردَّد عليها بين حين وآخر، في **مصر وتركيا وإيران والمملكة العربية السعودية، وجزيرة العرب** بعامَّة، وكتب عنها كلِّها، وزار معظمها، وكان محلَّ الترحاب من أهلها الطيِّبين، الذين يكرمون الضيف، ويتوقَّعون أن تبدأ معه علاقة حميمة، وما أن يعود إلى بلاده حتى يكيِّف ما لقيه، وما حصل عليه من معلومات لذلك الحكم المسبق والانطباعات.

وهذا الوضع، بقدر ما ينطبق على المستشرقين، ينطبق كذلك، وبصورة فاضحة أكثر، على الإعلاميين الغربيين، الذين يخرجون من جولاتهم بتقارير لا تعكس، بالضرورة، الواقع الذي عايشوه أثناء زياراتهم، ما عدا أولئك الإعلاميين الموضوعيين، الذين يجوبون الأرض، بحثًا عن الحقيقة العلمية، في البيئة والجغرافيا. وهم مُستثنون، بُعدًا عن تعميم الأحكام على الجميع.

وقد يُفهم من هذا أن اللوم، برمَّته، يلقى على هؤلاء، ولا بأس في تعديل هذا الفهم، حينما يُلقى شيءٌ من اللوم، يقلُّ أو يكثر، على المنطقة نفسها، التي لا يظهر أنها قد وفِّقت، التوفيق المطلوب، لتقديم الصورة الحقيقية لثقافتها ومُثُلها ومبادئها وواقعها، ومدى تطبيقها على الواقع لهذه المثُل والمبادئ والقيم. أدَّى هذا الوضع إلى التعلُّق بما يكتبه بعض الكتاب الغربيين عن بلادنا، من منطلق نقدي، يقوم على اختلاف في الفكر. ومن ذلك ما نقل على لسان **نعوم تشومسكي** في كتاب هو تجميع لعدد من المقابلات الصحفية بعنوان **الحادي عشر من ايلول**، مترجمًا ترجمةً عُجلى.[1] وكل الكتاب يصبُّ في البحث عن أسباب حادث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م الموافق ١٤٢٢/٦/٢٦هـ. إلا أنه يبدو من طرحه أنه نحا نحوًا فكريًا، قد لا نتَّفق معه فيه، وإن كان قد يُرضي هوىً في النفس، عند أولئك الذين يبحثون عن مثل هذا الطرح، إلا أنه قد عمد إلى المقارنة بين ما عملته دول الغرب، وما عُمل لها. وهي مقارنة تثير الانتباه دون شكٍّ، كما أنها تنطق بمفهوم الكيل بمكيالين.[2]

---

(١) نعوم تشومسكي. الحادي عشر من ايلول: الإرهاب والإرهاب المضادّ/ ترجمة ريم منصور الأطرش. – دمشق: دار الفكر، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م. – ١٨٠ ص.

(٢) انظر: دافيد راي غريفين. تقرير لجنة ٩/١١: التجاهُلات والتحريفات. – بيروت: الدار العربية للعلوم، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م. – ٣٨١ ص. وانظر له، كذلك: شُبُهات حول ٩/١١: اسئلة مقلقة حول إدارة بوش واحداث ٩/١١. – بيروت: الدار العربية للعلوم، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م. – ٣٢٦ ص.

ومع هذا ، فإن ما أرمي إليه يظلُّ قائمًا ، من وجود قدر واضح من الجهل بما نحن عليه، علينا أن نتعامل معه من منطلق أننا نحن نتحمَّل قدرًا من التقصير في بيان واقعنا ومنطلقاته، في زمان سهل فيه جدًا الاتهام، ولقي هذا الاتهام ما يعضِّده من حوادث، حتى لقد أصبح المسلم اليومَ ملاحَقًا في كل مكان من الجهة الغربية من الكُرة الأرضية، ثم الجهة الشرقية، بالنسبة لنا ، كذلك. وإذا ما كان هذا المسلم "ملتزمًا" ، كانت ملاحقته أقوى. وهذا وضع يحتاج إلى جهود في اقتلاعه من جذوره، التي مرَّت علينا على مدار التاريخ. والاقتلاع سهل طرحًا ، صعب جدًا واقعًا ، ذلك أنه هناك من يسعى إلى تثبيت هذه الصورة ، بل إلى تأجيجها.

وعلى مستوى النشر أضحت المكتبة العربية تعُجُّ اليوم بالكتب والأبحاث والدراسات، بعضها أصيل، وبعضها مترجَم. وهذا بحدٍّ ذاته خطوة طيِّبة في مسيرة الاقتلاع، يضاف إليها الرغبة في اللقاءات، وعقد الندوات، والتبادل الثقافي، في مواجهة علمية لهذا الوضع غير العادي؛ إذ إن الموقف يقتضي منا المواجهة، لا المجابهة.

--- --- ---

الوقفة الخامسة: التحَقُّق

الصحوة الإسلامية لن تكون صحوة بحقٍّ إن لم تعتمد على العلم، في العودة إلى الله تعالى، ذلك أن أمور العبادات، التي هي مؤشِّر قوي من مؤشِّرات الصحوة، إنما تقوم على التوقيف، أي أنها محسومة بالنصوص الشرعية من كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ. ومن مؤشِّرات الصحوة، القائمة على العلم، الحرص القوي والمبارك على معرفة سنَّة المصطفى ﷺ والعمل بها.

وسنَّته – عليه الصلاة والسلام – تخضع لمعيار دقيق، في التحقُّق من النص "المتن"، والرواة "الرجال"، وما يعرف عندنا بمصطلح الحديث. ومن تتبُّع الأحاديث، في متنها وسندها، يصحَّح الحديث أو يحسَّن أو يضعَّف، والضعيف لا يعمل به. ولذا ربَّما نجد بعض الممارسات العبادية، التي اعتمدت على حديث ضعيف، فينبِّه المحقِّقون لها، ويسعون إلى عدم التركيز على الاستمرار فيها، على أنها ممارسات عبادية مستقاة من سنَّة المصطفى ﷺ. وأقرب مثال على ذلك العبادات في شهر رمضان المبارك، لاسِيَّما الطريقة التي تتم بها صلاة القيام "التراويح"، من حيث عددُ ركعاتها، أو تسليماتها، ومن حيث الشفع والوتر، ومن حيث دعاء القنوت، ونصُّه، والإطالة فيه، والتقصير منه.

ويحكم ذلك كله ما كان قدوتنا **محمَّد بن عبدالله** ﷺ يقوم به، إلى درجة التعرُّف على نصِّ الدعاء، من حيث التصريح أو

التلميح، ذلك أن المدعو – سبحانه وتعالى – يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وهو تعالى يدرك مغزى الدعاء، من خلال ما ينويه الداعي، فلا مجال للتصريح الذي قد يخرج عن السمت المطلوب في مقابلة الله تعالى، وترك الأمر له سبحانه، في مسألة شمول الدعاء، ومن ثم الإجابة. والعلم الشرعي يطمئن الداعي في مسألة الاستجابة، وأسرار تأخُّرها من الله تعالى.

والتحقُّق هذا يؤدِّي إلى السلامة في العبادات، كما يؤدِّي إلى السلامة في الاعتقاد كذلك. ولذا فلا بدَّ من التوكيد على أهمية التحقُّق والتحقيق، والبعد عن الاستعجال في أمور العبادات كلِّها، لاسيَّما في النوافل والسنن، وكذا في الطريقة التي تمارس بها العبادات جميعها. والتحقُّق والتحقيق مؤشِّر حسن وإيجابي لقيام الصحوة الإسلامية، التي تهتمُّ بالصفاء. أما الانجراف المتسرِّع، والعاطفة الزائدة، والحماس المبالغ فيه، فإن هذه ليست معايير صادقة لصحوة مباركة، بل إنها تسيء إلى الإسلام أيَّما إساءة، ذلك أن ما ينتج عنها من ممارسات تصدرُ عن أشخاص محسوبين على الإسلام، وينظر إلى الإسلام من خلالهم.(١)

والتحقُّق يأتي من العلم، والعلم يحتاج إلى وقت وصبر وإصرار. والعلم الشرعي، كما ثبت، لا يؤخذ من الكتب وحدها، بل لا بدَّ

(١) انظر: محمود محمد الناكوع. الصحوة الإسلامية وقضايا للحوار. – لندن: دار ابن قدامة، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م. – ١٨١ ص. – (سلسلة قضايا ومواقف: ٣).

من استمرار فكرة التتلمُذ على العلماء، بأي صورة من صور التتلمُذ. ولذا لا بدَّ من استمرار المرابطة على العلماء، ومعهم، في حلقات العلم والدرس، وفي مقاعد الدراسة، وفي أي شكل من الأشكال، التي تكفل حصول طالب العلم على الإجازة في التحقُّق. والكتب، وحدها، قد لا تؤدِّي إلى العلم، الذي يحصل بالإجازة، ويخلط في الفهم مَن يعتمد على الكتب وحدها.

ومن التحقُّق يتبيَّن لنا، نحن العامّة، أننا كنا نقوم ببعض الممارسات في العبادات، ربَّما تكون داخلةً في مفهوم الغلوِّ في الدين، لم تكن ثابتة عن المصطفى – عليه الصلاة والسلام -، وليست بالضرورة من سنَّته ﷺ، فنجد أنفسنا نستغني عنها بروح طيِّبة، بعيدة عن التردُّد، ذلك أننا ننظر إلى الممارسات العبادية على أنها عبادات، وليست عادات، ولذا يسهل علينا التأقلُم مع أي تغيير قد يحصل في عبادة من العبادات، بعد أن يثبت من خلال التحقُّق حتمية هذا التغيير. وكلَّما زاد التحقُّق في الأمَّة ارتفع مؤشِّر الصحوة الحقَّة، ولذا فإن هذه دعوة إلى مزيد من التحقُّق ومزيد من التحقيق، والبُعد، بالتالي، عن الغلو والتطرُّف في فهم هذا الدين.[1]

---

(١) انظر: يوسف القرضاوي. **الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرُّف**. – الدوحة: رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، ١٤٠٢هـ. – ٢٣١ ص. – (سلسلة كتاب الأمَّة: ٢).

وفي مجال الفكر، تزخر المكتبة العربية الإسلامية بعدد غفير من الإنتاج العلمي والأدبي، القديم والحديث، المؤلَّف باللغة العربية وغير العربية، من لغات المسلمين واللغات الأخرى، من مؤلِّفين عرب ومسلمين ومستشرقين وأجانب. ومن هذه المؤلَّفات المُنشأ ابتداءً، ومنها المنقول من لغات أخرى، لاسيَّما منها ما ظهر باللغة العربية. وكنا في زمن غير طويل نتسابق إلى معرفة عنوان الكتاب واسم المؤلف، وذلك كان لقلَّة المنشور، ولقلة الموزَّع من المنشور، ولتعذُّر الاتصال السريع بحواضر الإسلام الحديثة، للتعرُّف على ما لديها من إنتاج. ولذا جاء شيء من التكرار والازدواجية في التأليف.

ولنأخذ، على سبيل المثال، موضوعًا مثل **الصحوة الإسلامية**، حيث نجد جملةً من المؤلَّفات في هذا الموضوع، وهذا مدرك، لكن الذي يحيِّر القارئ، الآن، تكرار عنوانات الكتب في هذا الموضوع الممثَّل به، فهناك جملة من الكتب التي تحمل العنوانَ نفسَه، وإن أُلحقت بعنوانات فرعية. ولذا يصعب ضبطُها، مع احتمال اختلاف طريقة المعالجة والمحتوى والتحليل، وغيرها من أغراض التأليف، إذ إن المكتبة الإسلامية تفتقر إلى أدوات الضبط الوراقي "الببليوجرافي"، الذي يُعين على سرعة الوصول إلى الكتاب، مهما كان الشبه موجودًا في جملة من الكتب، ويعين على عدم الازدواجية في التأليف وعدم تكرار المعلومات، ومن ثمَّ توجيه الجهود إلى الإبداع في الموضوعات نفسها، وفي موضوعات قريبة منها.

والـذي ينبغـي التوقُّـف عنـده، في متابعـة الإنتـاج العلمـي، في المجـالات الإسـلامية طغيـانُ المؤلفـات الفكريـة، الـتي تنظـر إلى الإسـلام نظـرة شموليـة وتحـاول تثقيـف النـاس، وتقـريبهم مـن الإسلام، من حيث كونُه صالحًا لكل زمان ومكان، وأنه دين واقعي شمولي، يبتعد عن التركيز على مجال حيوي، على حساب مجال حيوي آخر، كالروح في مقابل المادة. وهذا من حيث كونُه تقريبًا للدين من الناس أمر طيِّب، ولكنه طغى على التأليف في العلم الشرعي، الذي يعين على التطبيق، ويركِّز على الجانب العملي من هذه الواقعية، والشمولية، والصلاحية لكل زمان ومكان.

ويدخل في هذا المجال الولوج في حوارات بين مفكِّرين مسلمين حول قضايا معاصرة، وموقف الإسلام منها، مما يدعوه البعض بالعصرانية، من منطلقات عقلية تُرشد الباحث في النهاية إلى الجوازية في التطبيق، وتُعيد الإيمان إلى القلب فقط، دون التوكيد القوي على مسألة التقيُّد بالأحكام، من أركان الإيمان، إلى أركان الإسلام، إلى المعاملات، وهكذا من السلوكيات الخاصّة بالفرد المسلم، ذكرًا كان أم أنثى، والعامّة في المجتمع. وليس في هذا حجرٌ على الفكر، أو على العقل، لكن تغليبَهما على العلم الشرعي هو الأمر الذي يحتاج إلى نظر، وليس المجال هنا مجال الموازنة بين الطرفين، إذ إنهما غير مختلفين

ويلتقيان، فالإنسان مُطالب بإعمال فكره، وتحكيم عقله، فيما لم يأت به النقل.[١]

ومع هذا الكمّ الهائل من الإنتاج العلمي في المكتبة الإسلامية، لم تستطع المكتبات السيطرة عليه، ومع هذا فإن مستوى الإنتاج العلمي يُعَدُّ قاصرًا، بالمقارنة بالإنتاج العلمي في العقائد والمذاهب والتيّارات الأخرى، الموجودة على الساحة، كما أن مستوى الضبط الوراقي "الببليوجرافي" يُعَدُّ كذلك قاصرًا، بالمقارنة بما توصّلت إليه الثقافات الأخرى، عن القدرة إلى الوصول السريع للمعلومة.

(١) انظر: محمد السيّد الجليند. منهج السلف بين العقل والتقليد: تصحيح مفاهيم، درء شبهات، ردُّ مفتريات. – القاهرة: دار قُباء، ١٩٩٩م. – ٢٠٠ ص.

الوقفة السادسة: النقل والترجمة (١)

من وسائل نقل المعلومة الشرعية نقلُها لغويًا، من اللغة العربية إلى لغات أخرى، يتحدَّثها المنتمون للإسلام، وغير المنتمين إلى الإسلام، ولكنهم لا يتحدَّثون العربية. وتسمَّى هذه الوسيلة بالنقل والترجمة، وأوَّل ما يتبادر إلى الذهن في مسألة ترجمة المعلومة الشرعية نقل القرآن الكريم من اللغة العربية إلى اللغات الأخرى. ولكن القرآن الكريم كلامُ الله تعالى، المنزَّلُ من عنده، بواسطة جبريل – عليه السلام – إلى محمَّد بن عبدالله النبيِّ الأمِّيِّ ﷺ. وكلام الخالق تعالى لا يرقى إليه كلامُ المخلوقين، من حيث الصياغةُ والمعنى والمدلولُ والاستمرارُ، ولذا اصطلح المسلمون على أن يطلقوا على عملية نقل القرآن الكريم،[1] من اللغة العربية إلى أي لغة أخرى، ترجمة معاني القرآن الكريم، ويتحرّج المسلم العالِم من إطلاق الترجمة على القرآن الكريم، دون أن تكون مقيَّدةً بترجمة المعنى.[2]

وكان هذا مخرجًا حفِظَ للقرآن الكريم مكانته بلغته العربية، ودفع كثيرين إلى تعلُّم اللغة العربية، ليستطيعوا تذوُّق

(١) انظر: مصطفى صبري. مسألة ترجمة القرآن. – القاهرة: المطبعة السلفية، ١٣٥١هـ.

(٢) انظر: محمَّد سليمان. كتاب حدث الأحداث في الإسلام: الإقدام على ترجمة القرآن. – (القاهرة): مطبعة جريدة مصر الحرة، ١٣٥٥هـ.

القرآن الكريم، باللغة التي نزل بها. كما أنه كان مخرجًا لتعدُّد ترجمات المعاني في اللغة الواحدة، على أيدي أبنائها وغير أبنائها، بل ربَّما تعدَّدت ترجمة المعاني باللغة الواحدة على يد مترجم واحد، حيث يتبيَّن له دائمًا التقصير الذي يعتريه، مع كل ترجمة للمعاني. وهذا من طبع البشر.(١)

ومن العجيب أن ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغات اللاتينية، وإلى اللغات الأوربية الأخرى، كالجرمانية، قد بدأت على أيدي غربيين غير مسلمين. ورغم كثرتها إلا أن أبرزها ترجمة **جورج سيل** إلى اللغة الإنجليزية، التي وضع لها مقدِّمة، قرَّر فيها أن **محمَّدا** ﷺ هو الذي ألَّف القرآن الكريم، وإن كان لم يستبعد أنْ يكون قد عاونه أحد من حكماء عصره من اليهود والنصارى! وهذه فرية استشراقية قديمة، ولكنها أثَّرت كثيرًا على تأثير القرآن الكريم على قرَّاء ترجمة المعاني باللغة الإنجليزية دون شك. بل إن التأثير قد امتدَّ إلى قرَّاء ترجمة المعاني باللغة الفرنسية، عندما تبنَّى المستشرق **كازميرسكي** نقل ترجمة المعاني من اللغة الإنجليزية إلى اللغة الفرنسية، بالأسلوب الذي ترجمها فيه **جورج سيل**.

---

(١) انظر: محمَّد صالح البنداق. المستشرقون وترجمة القران الكريم: عرض موجز بالمستندات لمواقف واراء وفتاوى بشأن ترجمة القران الكريم مع نماذج لترجمة تفسير معاني الفاتحة في ست وثلاثين لغة شرقية وغربية. – ط ٢. – بيروت: دار الأفاق الجديدة، (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م). – ٢٣٨ ص.

وأعقب ذلك نقولٌ أخرى عن هذه الترجمة. وكان هذا التأثير سلبيًا، ولعلّه كان مقصودًا لصرف الآخر عن التعلُّق بالإسلام، من خلال تقديم المعلومة الشرعية الصحيحة، بالترجمة الدقيقة للمصدر الأول لهذه المعلومة. هذا في ضوء غياب جهود المسلمين القادرين على تقديم المعلومة الصحيحة، من خلال الترجمة الدقيقة لمعاني القرآن الكريم.

وإذا كان هذا الخلل قد اعترى نقل المعلومة الشرعية، من مصدرها الأوَّل إلى اللغات الأخرى، فمِن المتوقَّع أن يعتري الخللُ نقل السنَّة النبوية الشريفة عن طريق الترجمة، لاسيَّما أن في الحديث الشريف ما هو صحيح، وما هو حسن، وما هو ضعيف، وما هو موضوع. والضعيف والموضوع يختلفان في درجة قبولهما، على ما بيَّنه علماء السُّنَّة النبوية المطهَّرة (مصطلح الحديث)، لما فيهما من المعلومات الشرعية، ما لم يثبت عن المصطفى ﷺ، كما أن فيهما من المعلومات الشرعية ما لا يمكن أن يُعَدَّ من المعلومات الشرعية، لتعارُضه مع النقل الصحيح والعقل السليم. وكان هذا مجالا رحبًا للخلط في نقل المعلومة، مما كان مجالا رحبًا لتشويه الإسلام وسيرة المصطفى ﷺ، وبالتالي، للمعلومة الشرعية المستقاة من المصدر الثاني الرئيسي من مصادر التشريع الإسلامي، سنَّة المصطفى **محمَّد بن عبدالله** ﷺ.

وإن تكن هذه الوقفة قد ركَّزت على تشويه المعلومة الشرعية، من خلال تشويه مصدريها: الكتاب والسنَّة، فإن

المعلومة الشرعية في الجانب الآخر لا تزال مجالا واسعًا لخدمة أبنائها لها، ليس من خلال النقل اللغوي فحسب، بل من خلال وسائلَ حديثةٍ شتَّى.

وما دمنا ندور حول إسهامات غير المسلمين في التأثير على المعلومة الشرعية، فإن هذا التأثير لم يقتصر على ترجمات معاني القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، بل إن الدراسات حول هذه المعلومة تتعذَّر اليوم على الحصر.

وقد سعى الأستاذ الدكتور **فؤاد سزكين**، مدير **معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية** بفرانكفورت بألمانيا، إلى حصر ما كُتِبَ حول الموضوع باللغة الألمانية فقط. وكنت أراه يجمع البحوث والدراسات، يستعيرها من مكتبات أوروبا العامّة والجامعية والبحثية، ثم يقوم بتصويرها وتجليدها، والاحتفاظ بها في مكتبة المعهد. وقد أصدر لذلك قائمة وراقية "ببليوجرافية"، تزيد على خمسة مجلدات، ضخمة بمعاونة الباحث البوسنوي **إسماعيل بالتش**، وآخرين.

ولا يزال الأستاذ الدكتور **فؤاد سزكين** يواصل هذا المشروع، ويصدر قائمة وراقية "ببليوجرافية" جديدة بين الفينة والفينة. ولا يزال يجمع هذه الدراسات في الدوريات العلمية، ومن الكتب ووقائع المؤتمرات، حتى تكوَّنت عنده في مكتبة المعهد ثروةٌ علمية من هذه الدراسات، ربَّما كانت مجالا للدرس والتحليل، لاسِيَّما أن معظمها جاء من المستشرقين الألمان، أو ممَّن أرادوا البحث

والدراسة والكتابة باللغة الألمانية، التي تُعَدُّ لغةَ الاستشراق، وبالتالي، تُعَدُّ اللغات الأوروبية الأخرى عالةً عليها.

ويمكن القول، دون تعميم: إن هذه الدراسات حول المعلومة الشرعية لا تكاد تخلو من الخلل المتعمَّد في مجمله، وغير المقصود في قليل منه. ذلك أن هؤلاء الدارسين للمعلومة قد افتقدوا إلى عاملين مهمَّين، **أوَّلهما**: الافتقار إلى الانتماء إلى هذه المعلومة، وما تمثِّله من ثقافة، وبالتالي أعطاهم عدم الانتماء الجرأةَ في الحكم والتحليل، دون النظر إلى التأثير، ولو كان هذا التأثير سلبيًا.

والعامل الثاني: هو افتقارهم إلى السيطرة على اللغة العربية، التي جاءت بها المعلومة الشرعية، وهي، هنا، اللغة العربية، رغم محاولاتهم الجادَّة للسيطرة عليها.

وهذا **العامل الثاني** أخفُّ بكثير من العامل الأوَّل، ولكن تأثيره بدا واضحًا، من خلال اضطرارهم إلى الاستعانة بالعرب، يقرءون لهم وينسخون ما يكتبون، وحرصوا على أصحاب الخطوط الجميلة، في ضوء تعميم المطبعة ووسائل الاستنساخ الحديثة.[1]

---

(١) من أمثال: أحمد تيمور، وأحمد زكي، ومحمَّد محمود بن التلاميذ التركزي الشنقيطي، والشيخ طاهر الجزائري، وحسن حسني عبدالوهَّاب، وابن أبي شنب، وعبدالحيّ الكتَّاني، ومحمَّد رشاد عبدالمطَّلب، وفؤاد سيِّد، وكوركيس عوَّاد، وقاسم الرجب، وأحمد عبيد، وحمد الجاسر، والقاضي إسماعيل الأكوع، وإحسان عبَّاس، ومحمَّد يوسف نجم، وصلاح الدين المنجِّد، وإبراهيم شبُّوح، ومحمَّد المنوني، ومحمَّد إبراهيم الكتَّاني، والعابد الفاسي.
=

ولا شكَّ في أن هذا الموقف من المعلومة الشرعية كان له تأثيره السلبي عليها في مجتمع هؤلاء الدارسين، إذ أسهم هذا الأسلوب في إبعاد الناس عن المعلومة الشرعية الصحيحة، وبالتالي أسهم في ضعف فهم الإسلام، أو في سوء فهمه، مما كان له تأثيره على الإقبال على هذا الدين، الذي يقوم على المعلومة الشرعية الصحيحة.

=

والفقيه التطواني، ومحمود محمّد الطناحي. انظر: محمود محمّد الطناحي. مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي مع محاضرة عن الصحيف والتحريف. — القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م. — ص: ٢٢٣ – ٢٢٤.

الوقفة السابعة: النقل والترجمة (٢)

الحديث عن ترجمات معاني القرآن يقود إلى تلك التي انطلقت على أيدي المنصِّرين والمستشرقين منذ سنة ٥٣٧هـ/١١٤٣م من الأديرة والكنائس، ثم تعاقبت الترجمات أيضاً على أيدي المستشرقين، دون تدخُّل مباشر من الأديرة والكنائس والمنصِّرين، ولكن بقدر من الإيحاء الذي أملته العودة إلى الترجمات السابقة. وقد أحسن **مجمَّع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنوَّرة**، حينما عقد ندوة عن هذه الظاهرة، كانت تقويماً للماضي، وتخطيطاً للمستقبل، أُلقيت فيها بحوث قيِّمة.[1]

ومن البحوث التي قُدِّمت في الندوة بحث تقويمي للأستاذ الدكتور/ **محمَّد مهر علي** بعنوان: **ترجمة معاني القرآن الكريم والمستشرقون: لمحات تاريخية وتحليلية**،[2] وجدته بحثاً ماتعاً، خرج فيه المؤلِّف بعدد من النتائج، بعد استعراضه لعدد من الترجمات، مثل الترجمة الفرنسية **لأندريه دو ريار**، والترجمة اللاتينية الثانية **لمراتشي**، والترجمة الإنجليزية **لجورج سيل**، وكلها كانت في

---

(١) **مجمَّع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف. ندوة ترجمة معاني القران الكريم: تقويم للماضي وتخطيط للمستقبل.** – المدينة المنورة: مجمَّع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

(٢) محمَّد مهر علي. «ترجمة معاني القرآن الكريم والمستشرقون: لمحات تاريخية وتحليلية». – ٥٠ ص. في: **ندوة ترجمة معاني القران الكريم: تقويم للماضي وتخطيط للمستقبل.** – المرجع السابق –.

القرن الحادي عشر الهجري، قبل منتصف القرن السابع عشر الميلادي، ثم ترجمة ج .م. رودويل، وترجمة إي. إتش. بالمر، وكلاهما في القرن الثالث عشر الهجري، النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، ثم ترجمة آربري في القرن الرابع عشر الهجري، العشرين الميلادي. . ومن أهمّ ما خرج به الأستاذ الدكتور/ محمَّد مهر علي، بعد استعراضه لهذه الترجمات، بلغات مختلفة، وبأزمان مختلفة كذلك، الآتي:

- لجوء المستشرقين إلى الترجمة الحرفية للعبارات الاصطلاحية، وهذه يستحيل ترجمتها من القرآن الكريم إلا بالمعنى.[١]

- إعطاء معنى واحد للكلمة في كل مكان، بصرف النظر عن السياق والموضوع، مع تجاهُل المعاني الأخرى للكلمة.

- نسبة المفردات العربية إلى جذور أجنبية قدر الاستطاعة، وإعطاؤها معانيَ غيرَ مألوفة.

- استخدام مصطلحات نصرانية في الترجمة قدر الإمكان.

- التحريف المباشر في المعنى.

---

(١) انظر: أمين مدني. المستشرقون والقرآن: ليس المستشرقون وحدهم هم الذين تعثّروا في مجال اللغة. – المنهل. – مج (٤) (١٣٩٦/٤هـ – ١٩٧٦/٤م). – ص ٢٤٤ – ٢٢٨.

• إساءة الترجمة باستخدام معانٍ غير صحيحة للمفردات والعبارات.

• إعطاء معانٍ خيالية وخاطئة، نتيجة لعدم فهم اللغة العربية.

• إدخال عبارات تأويلية وتفسيرية في نصّ الترجمة، والأصل أنها تكون في الهامش، أو يُخطر أنها ليست من أصل النص المترجَم.

• إدخال تعليقات وتفسيرات فاسدة في الهوامش، مبنيَّة على الإسرائيليات والروايات الموضوعة، الموجودة في بعض كتب التفاسير.[1] وقد وجد المترجمون كمًّا من هذه الإسرائيليات، والأخبار الموضوعة، مع الأسف، في التفاسير العربية للقرآن الكريم، سردها بعض المفسِّرين من باب الأمانة العلمية، دون أن يكلِّفوا أنفسَهم عناء التعليق عليها، مما جعلها مرتعاً للمترجمين وغيرهم، ممن يبحثون عن جوانب نقصٍ في الدين القويم.

---

(١) انظر: موريس بوكاي. الأفكار الخاطئة التي ينشرها المستشرقون خلال ترجمتهم للقرآن الكريم (٢). - الأزهر. - ع ٩ (رمضان ١٤٠٦هـ - مايو يونيو ١٩٨٦م). - ص ١٣٦٨ - ١٣٧٥. وانظر. أيضًا: موريس بوكاي. الأفكار الخاطئة التي ينشرها المستشرقون خلال ترجمتهم للقرآن الكريم. - العروة الوثقى. - مج (٢٨) (شتاء ١٤٠٧هـ). - ص ٤٦ - ٥٥.

• عمد المترجمون إلى الإضافة على النص الأصلي أو الحذف منه عند الترجمة.

• عمد المترجمون، كذلك، إلى تبديل العبارة أو الكلمات في الأصل عند الترجمة.

• وقام بعض المترجمين بإعادة ترتيب القرآن الكريم، بحسب نزول السور، أي الترتيب الزمني للنزول، وأدَّى هذا إلى تجزئة بعض السور إلى (فقرات) حسب ما زعموه أنه يطابق السياق فيه المعاني.(١)

ويعطي المؤلِّف أمثلةً لكلٍّ هذه الفقرات الاثنتي عشرة، من خلال تحليل عميق من مؤلِّف مطَّلع عميق كذلك، مما يستدعي المزيد من التركيز على الترجمات الموصَّلة لمعاني القرآن الكريم من فرق علمية، ذات دراية تامَّة باللغتين والتفسير والأحكام، والقرآن الكريم يستحقُّ ذلك وأكثر.

--- --- ---

(١) انظر: أحمد فؤاد الأهواني. تغيير ترتيب المصحف. - زاوية: ما يقال عن الإسلام. - الأزهر. - مج ٤١ (١٣٨٩هـ). - ص ٣٠٥ - ٣٠٩.

الوقفة الثامنة: الحِفظ (١)

تذكر كتب التراث أن يهوديًا، حسن الثوب، حسن الوجه، طيِّب الرائحة، حضر مجلس الخليفة العبَّاسي عبدالله المأمون، وكان، حينها، أميرًا، فتكلَّم اليهودي، فأحسن الكلام، فسأله الخليفة سؤالا عارضًا: لِمَ لا تُسلم؟ فكانت إجابة الرجل أنه باقٍ على دين آبائه، إلا أنَّ عرضَ الخليفة على اليهودي ترك في عقله أثرًا، ودعاه إلى التفكير الجادِّ في هذا العرض.

ومن أجل أن يقتنع اليهودي بهذا العرض، قام بحيلة، لعلَّها فريدة من نوعها، إذ عَمِد إلى نسْخ ثلاث نُسَخٍ من التوراة، وحرَّف فيها، وهو ينسخها، وعرَضها للبيع في كنيسة، فاشتُريت النسخ الثلاث، . ثم عمد إلى نسْخ ثلاث نُسَخٍ من الإنجيل، وحرَّف فيها، فعرضها للبيع، في بيعة، فاشتُريت، دون الانتباه إلى ما طرأ عليها من تحريف. ثم نَسَخ ثلاث نُسَخٍ من القرآن الكريم، فعرضها للبيع في سوق الورَّاقين، بعد أن حرَّف فيها، فكان المُسلم المشتري يقلِّب النسخة، ويقرأ فيها، ويتبيَّن له التحريف، فيرمي بها. وهكذا الحال مع بقيَّة النُّسخ.

وبعد أن تبيَّنت له عنايةُ المسلمين بكتاب الله تعالى أسلم، وعاد بعد سنة للمأمون في مجلسه، يتحدَّث في الفقه، فيحسن

الكلام، فتذكّره المأمون، فسأله عن سرّ إسلامه، فقصّ عليه هذه القصّة.[١]

أفلا تكون هذه الحادثة مصداقًا لما ورد في كتاب الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ (الحجر ٠٠٩)، كما يقول سفيان بن عيينة، بينما لم يبقَ من التوراة والإنجيل إلا ما استحفظوا منهما، وكانوا عليهما شهداء. ولا يكفي، هنا، حفظه نصًّا مخطوطًا، أو مطبوعًا بين دفتي كتاب، بل إن الحفظ هنا يشمل حفظه في الصدور على تتابُع الأيَّام، ثم حفظه بتطبيق ما فيه من أحكام، وتصديق ما فيه من أخبار، ماضية ولاحقه.

- ومن مظاهر حفظ القرآن الكريم في الصدور أننا نجد من المسلمين من يحفظه عن ظهر قلب، بالتلقين والدراسة في حلقات تحفيظ القرآن الكريم، أحيانًا في مجتمعات مسلمة، لا تتحدَّث، بالضرورة، اللغةَ العربية.

- ومن مظاهر حفظ القرآن الكريم في الصدور أننا نشهد، سنويًا، تلك المسابقات، المحلية والدولية، لحفظ كتاب الله وتلاوته، تضطلع به هذه البلاد الطيبة ممثَّلة في **وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد**، التي تستحقُّ الإشادة والتقدير على الجهود المبذولة، للوصول إلى الأهداف من هذه

(١) وردت هذه القصّة لدى: ابن الجوزي في: المنتظم. – ١: ٥١. ولدى: البيهقي في: دلائل النبوّة. – ٧: ١٥٩ – ١٦٠. ولدى: القرطبي في: التفسير. – ١٠: ٥ – ٦.

المسابقات المباركة. كما تضطلع به فعاليات ثقافية واجتماعية أخرى، مثل الجنادرية: مهرجان التراث والثقافة السنوي، الذي يقيمه الحرس الوطني، ومسابقات تحفيظ القرآن الكريم بين المعوْقين، وغير ذلك. ومسابقات مماثلة في البلاد العربية والإسلامية. والسعيد من وفُقه الله تعالى إلى حفظ أكبر قدر ممكن من كتاب الله تعالى، حفظًا في الصدر وعلى الواقع. والسعيد، أكثر، من وفُقه الله تعالى إلى حفظ كتاب الله تعالى كاملا، حفظًا في الصدر، وعلى الواقع.

ومن أجمل الأشياء، وكثير من الأشياء جميلة، أن تستمع لفتىً يافع يتلو كتاب الله تعالى، حفظًا عن ظهر قلب. ويسأله مقدِّم البرنامج عن مدى حفظه، فيفيد أنه يحفظ كتاب الله تعالى كاملا، ولله الحمد، أو نصفه أو ثلثه أو ربعه، أو أقلَّ من ذلك. وتقوم على مظاهر حفظ كتاب الله تعالى جمعيَّاتٌ خيرية لحفظ القرآن الكريم، وتشرف عليها وزارة **الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية**. وما يماثلها في البلاد الإسلامية، وغيرها، ويقوم عليها رجال نحسبهم من خيرة المتحمِّسين لكتاب الله، وكلنا متحمِّسون لكتاب الله، ومنهم من ترك أثرًا طيبًا، ثم عاجله الأجل، فبقي أثره ممتدًا مستمرًا، لعلَّه من الصدقة الجارية، التي بقيت له في أعماله الخيِّرة، ومن هؤلاء، وهم كثير، الشيخ **زكي داغستاني**، والشيخ **عبَّاس مقادمي** – رحمة الله تعالى عليهما – في **مكَّة المكرَّمة**، والشيخ **عبدالقادر عطية**

- رحمه الله تعالى - في جدة، والشيخ صالح البليهي - رحمه الله تعالى - وهو صاحب جهود طيِّبة في مجال حلقات حفظ القرآن الكريم بمنطقة القصيم،

وكذا منهم الشيخ عبدالرحمن الفريان - رحمه الله تعالى - بمنطقة الرياض، الذي كان يتابع حلقات تحفيظ القرآن الكريم، في نطاق الجمعية الخيرية التي يشرف عليها، وغيرهم من أولئك الرجال في الحرمين الشريفين في مكَّة المكرَّمة والمدينة المنوَّرة، وفي المساجد الأخرى، في مناطق البلاد كلِّها، ممَّن لا تحضرني أسماؤهم. ولست هنا أحصر الأشخاص، فهم كثير، ولله الحمد والمنَّة، في شمال البلاد وشرقها وجنوبها ووسطها. مما يكوِّن ظاهرةً حسنةً، كانت موجودةً من قبل، ثم تضاعفت وانتشرت، وازدادت أعدادًا في الحلقات، وفي المنتظمين لها.

- ومن مظاهر حفظ كتاب الله تعالى تلك الجهود في خدمة كتاب الله تعالى، من تفسير وترجمة معانٍ إلى لغات عدَّة، مما سبق التعرُّض له. ولا تُنسى هنا جهود إدارة البحوث العلمية بقيادة سماحة الوالد الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله ابن باز - رحمه الله تعالى -، ثم بقيادة سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله آل الشيخ، مفتي عام المملكة، ورئيس هيئة كبار العلماء، التي تضطلع بمراجعة ترجمات معاني القرآن الكريم. وجهود الأزهر الشريف، والهيئات الإسلامية الأخرى في بلاد المسلمين جميعها.

• ومن مظاهر حفظ كتاب الله تعالى إدخال النص القرآني، أوَّلا، في الحاسب الآلي، ضمن برنامج محدَّد يُعين، بعد عون الله تعالى، على الوصول إلى الكلمة والآية والسورة، بصورة سريعة جدًا، تفوق ما كنا نعمله عندما كنا نستعين **بالمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمَّد فؤاد عبدالباقي** – رحمة الله تعالى عليه .. بل إن برامج الحاسب الآلي الناطقة مكَّنت من نسخ قراءات القرَّاء، الموجودين والمتوفَّين، مما يعين على القراءة الجيِّدة بعد الاستماع الجيِّد.

• ومن مظاهر حفظ كتاب الله تعالى استخدام الفضائيات، للوصول إلى أكبر عدد ممكن من المستمعين والمشاهدين، وتخصيص إذاعات، وكذلك قنوات تلفزيونية، للقرآن الكريم في **المملكة العربية السعودية**، وبعض الدول العربية والإسلامية. ولا تقتصر هذه الإذاعات والفضائيات على التلاوات، ولكنها تبثُّ برامجَ علميةً، مستقاة من كتاب الله تعالى وسنَّة رسوله **محمَّد بن عبدالله** ﷺ.

• بالإضافة إلى مظاهر حفظ كتاب الله تعالى، التي جرى ذكر شيء منها، يبرز مظهر من هذه المظاهر، يتمثَّل في قيام صرح ضخم يهتم بطباعة المصحف الشريف. وكان المصحف الشريف في طباعته شبهَ مقتصر على مؤسسات النشر التجارية، داخل البلاد العربية والإسلامية، تشرف على طباعته جهات وهيئات ولجان دينية موثوق بها. وربَّما جرت طباعته خارج العالم الإسلامي، بل إنه

طبع في أوربا، عندما بدأت الطباعة باللغة العربية في أوروبًا، رغم تحريم المجامع المسكونية لطباعته في أوروبا.(١)

• ولا تزال مؤسَّسات النشر التجارية تطبع المصحف، وتوزِّعه. ومع أنها سعيدة بذلك معنويًا، حيث تسهم في نشر كتاب الله تعالى، إلا أنها لا يمكن أن تغفل جانب الربح المادِّي، الذي يتيح الاستمرار في طباعة المصحف. وهذا أمر مفهوم، ما دام أن هامش الربح معقول، بحيث لا يكون الهدف من الطباعة تجاريًا بحتًا، دون مراعاة الربح المعنوي، الذي يكون مدعاة للبركة والخير، بعيدًا عن القياس المادِّي المحسوب بالقرش والريال.

• ومن هذا المنطلق الأخير، وهو النظر إلى الربح المعنوي المتمثِّل في الأجر العظيم على كل حرف من كتاب الله تعالى، يُقرأ من مصحف من المصاحف، وبعيدًا عن النظرة التجارية المادِّية، والنظر إلى المتاجرة الرابحة مع الله تعالى، أُنشئ **مُجمَّع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة**، حيث يُسهم، منذ بدايات الأربع مئة الهجرية، الثمانينات الميلادية من القرن العشرين، بطباعة المصحف الشريف وتوزيعه، إسهامًا ملحوظًا. ويزيد الموزَّع منه حتى الآن على مئتي مليون نسخة في أحجام مختلفة. والرقم هنا غير دقيق، لأنه يزيد. وهو

---

(١) انظر: قاسم السامرَّائي. الطباعة العربية في أوروبا. - ص ٤٥ - ١٠٨.

في: ندوة تاريخ الطباعة العربية حتَّى انتهاء القرن التاسع عشر، ٢٨ - ٢٩ جمادى الأولى ١٤١٦هـ/٢٢ - ٢٣ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٩٥م. - أبو ظبي: المجمع الثقافي، ١٩٩٦م. -.

بهذا يطبع نسخًا موثوق بها، أكسبته سمعة عالية بين المسلمين. وهو مشروع قصد من ورائه حفظ كتاب الله تعالى، بنشره، مجانًا، بين المسلمين. ولا نسبة تذكر لما يباع من المصحف الشريف، إذ لا تتعدَّى خمسةً بالمئة (٥٪)، وخمسة وتسعون بالمئة (٩٥٪) توزَّع مجانًا، داخل البلاد وخارجها. هذا بالإضافة إلى إصدارات أخرى، مثل ترجمات معاني القرآن الكريم لعدَّة لغات، شرقية وغربية، وإصدار القرآن الكريم مجوَّدًا ومتلُوًّا في أشرطة، ثم الاهتمام بسنة المصطفى **محمَّد بن عبدالله** ﷺ، والعناية بالندوات والمحاضرات والمؤتمرات، ذات العناية بكتاب الله تعالى وسنة نبيه ورسوله **محمَّد بن عبدالله** ﷺ.[1]

• وهكذا تتعدَّد مظاهر حفظ كتاب الله تعالى مادَّةً ومعنىً، وتزداد، ويتطوَّر الموجود. ويتحقَّق – بإذن الله تعالى – الوعد الذي قطعه الله تعالى في حفظ كتابه.

حفظ السنَّة:

• وهناك شباب يافعون يحفظون السنَّة النبوية المطهَّرة بأسانيدها، من كتب الصحاح. وهذه خطوة جميلة مهمَّة، رغم ما

(١) ما تم توزيعه في شهر ربيع الآخر من سنة ١٤٢٦هـ الموافق يونيه ٢٠٠٥م، عن طريق مجمَّع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، فاق مليونين ونصف المليون إصدارًا من إصدارات المجمَّع في اثنتين وأربعين (٤٢) لغة. وهذا يشمل المصاحف والتسجيلات، ونحوها من وسائل نشر كتاب الله تعالى. انظر: صحيفة الجزيرة ع ١١٩٦٤ (الجمعة ١٤٢٦/٥/٢٤هـ الموافق ٢٠٠٥/٧/١م). – ص ٥.

قد يقال إن وسائل حفظ المعلومات قد تطوَّرت كثيرًا، وأضحت كتب الصحاح، وغيرها من كتب الأحاديث، توضع جميعها في أسطوانة مدمجة واحدة، وتباع الآن في سوق المعلومات أسطوانةً واحدةً، تحتوي على مئة وثمانية وعشرين مجلَّدًا من كتب الحديث، وغيرها من كتب التراث. وربَّما أكثر من ذلك. ولا تعارُضَ مع تقنية المعلومات، نقلا وحفظًا، والحفظ في الصدور، إذ الحاجة إلى الحفظ تظلُّ قائمة في ثقافتنا، ومطلبًا حيويًا مهمًّا، لعله يُعدُّ سمةً من سمات هذه الثقافة الشامخة. وهنيئًا لمن وفَّقه الله إلى حفظ كتب الله، وقدْر من أحاديث رسول الله ﷺ، ثم حفظ التراث العربي، شعرًا ونثرًا.

الوقفة التاسعة: الحِفظ (٢)

الحفظ أسلوب تعليمي تربوي له اعتباره في الثقافة الإسلامية. وهو مراعىً منذ فجر الإسلام في مكّة المكرَّمة والمدينة المنورة، والأمصار الإسلامية الأخرى. فالقرآن الكريم يقوم على الحفظ في الصدور، حفظَ تعبُّد لله تعالى، يختلف عن حفظ الأشعار والروايات والأخبار والآثار، مع أهمية حفظها.

وكثيرٌ من أبناء المسلمين يحرصون على حفظ كتاب الله تعالى، ثم حفظ أحاديث المصطفى ﷺ، ولذا يُشجَّع هؤلاء الأبناء والبنات، ويُحفَّزون لذلك، وتقام لهم المسابقات المحلية والإقليمية والدولية. ولقد وقفتُ على نماذج من مدارس تحفيظ القرآن الكريم في الباكستان، التي يكثُر فيها الحفَظة، ويؤمُّون الناس في الصلاة بعامة، وفي صلاة القيام في شهر رمضان المبارك، داخل الباكستان وخارجها، في أوروبَّا وأمريكا. والأصل في جميع هذه الجهود أن تقتصر على هذه الخدمة الجليلة لكتاب الله تعالى، دون الولوج في "متاهات" التوجُّهات الحركية، التي تفقدها الهدف من إقامتها، وبالتالي تعرِّضها، ربَّما، لما لا تُحمد عقباه.

وهناك دعوة تربوية وافدة، تسخر كثيرًا من الحفظ، في العلوم كلِّها، الإنساني والاجتماعي والتطبيقي. وربَّما كانت النظرة التربوية في إلغاء الحفظ من العملية التربوية مقصودًا به

بعض العلوم، وليس كلَّ العلوم، إلا أنه رسخ في أذهان بعض اليائسين من العلوم الشرعية، فعمَّموا النظرية على كل العلوم.

وأودُّ هنا إثارة انتباه الداعين إلى نبذ الحفظ إلى عدم التعميم: لأن هناك علومًا وفنونًا لا ينفع معها إلا الحفظ، ومنها القرآن الكريم، ثم أحاديث المصطفى **محمَّد بن عبدالله** ﷺ، ثم نفائس الأدب، لاسِيَّما أبيات الشعر وقصائد العرب، التي هي ديوان العرب، فحبَّذا لو تخلَّص هؤلاء من النظرة التعميمية، ثم خصَّصوا تلك العلوم أو الفنون التي لا ينفع معها الحفظ.

وهذه وقفة عارضة، في خضم هذه الوقفات، حول حفظ كتاب الله تعالى، مصداقًا للآية الكريمة السابق ذكرها. أقول هذا لأذكِّر بعض الأكاديميين، من التربويين وغير التربويين، وبعض كتَّاب الصحافة من غير التربويين، الذين لا يرون جدوىً من الحفظ. وتراهم يلومون هذا التوجُّه، معمِّمين هذا اللوم على جميع المناهج، وجميع المواد التي تدرَّس في التعليم العامّ في البلاد الإسلامية.

ويتبعهم في هذا أولئك الذين ينظرون إلى هذا الأمر بسطحية، ويتهجَّمون على الحفظ بسطحية، كذلك، ويرون أن الحفظ بهذا الإطلاق، لا يخدم الإبداع. وليتهم كانوا دقيقين، فلاموا الحفظ في موادَّ ومناهجَ لا تحتمل الحفظ ولا تتطلَّبه. أما التعميم فإنه ليس من المصلحة، وإنما هو ناتج عن تأثُّر مباشر ببعض النظريات التربوية، الذين لا يكوِّن الحفظ، عندها، مؤشِّرًا ثقافيًّا، والتي

ينادي بها بعض التربويين، ممن لا ينتمون إلى هذه الثقافة، التي لا تدعو إلى الحفظ في كل شيء. ولكنها تؤكد الحفظ في أمرين مهمَّين، كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. والرسول ﷺ يدعو صراحة لمن حفظ عنه حديثًا ونقله عنه كما هو، فربَّ مبلَّغ يعي أكثر من وعي الناقل له.[1] ومع هذا فللناقل أجر النقل، بغضِّ النظر عن قدراته الذهنية في وعي المضمون. وحول هذا يقول الدكتور **جلال امين**: «إني لا أنوي بالطبع محاولة استقصاء ما يجب "حفظه" وما يستحسن "فهمه". ولكن أريد فقط أن أزعم أن هناك من عناصر المعرفة اللازمة، ما قد لا يفيد إنفاق الوقت على "فهمه" ومن المفيد "حفظه"».[2]

ويضيف **جلال امين** قوله: «هناك بعض الأمثلة الأخرى على بعض عناصر المعرفة التي لا بد بالطبع من الإصرار على فهمها، ولكن قد يكون من المفيد جدًا، بالإضافة إلى ذلك، حفظها عن ظهر قلب. من أوضح الأمثلة على هذا أن يحفظ المسلم أجزاء من القرآن الكريم، والمسيحي أجزاء من الإنجيل. والفهم والاستيعاب مطلوبان في كلا الحالين بالطبع، ولكن بعض الحفظ أيضًا مطلوب ومفيد.

(١) ونص الحديث: «ربَّ مبلَّغ أوعى من سامع». رواه البخاري في كتاب الحج. باب الخطبة أيام منى. حديث رقم ١٦٢٥.

(٢) انظر: جلال أمين. **عصر التشهير بالعرب والمسلمين: نحن والعالم بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١**. – القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٤م. – ص ٥٧.

يُضاف إلى ذلك، أيضًا، حفظ بعض النماذج الرفيعة من الأدب والشعر، حيث لا بدَّ هنا طبعًا من الفهم والاستيعاب، ولكن كم أفاد الحفظ هنا في صقل لغة مَن يقوم من يقوم بالحفظ وتعميق إحساسه بجمال هذه اللغة. لقد ظلّت أجيالٌ متتالية من الإنجليز تحفظ أجزاء من شكسبير عن ظهر قلب، وكذلك فعلت أجيالٌ متتالية من الفرنسيين مع راسين، ومن الألمان مع جوته..إلخ. وكم أفادت أجيال من المتعلّمين المصريين والعرب من حفظ القرآن الكريم وشعر المعلّقات، وغيرها من عيون الشعر والنثر العربي، في الارتفاع بمستوى التعبير والفصاحة، والتمكُّن من الحصول على الكلمة المناسبة بالضبط للمعنى المقصود. فضلاً عما تتضمَّنه درجة معقولة من الحفظ من تمرين مفيد للنفس على ممارسة فضيلة الصبر والانضباط».[1]

(١) انظر: جلال أمين. عصر التشهير بالعرب والمسلمين: نحن والعالم بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١. - المرجع السابق. - ص ٥٧.

الوقفة العاشرة: الشفافية

الشفافية مصطلح حادث، من حيث التركيزُ عليه واستخدامُه. ولم نكن نركّز عليه، من قبل، في الطروحات الثقافية والفكرية، بهذا القدر الذي يطرح عليه الآن. والمهمُّ في هذه الوقفةِ الشفافيةُ في الإفصاح عن المعلومات، التي كانت تُعَدُّ زمنًا مضى في خانة السرية. وعندما درستُ المعلومات دراساتٍ تمهيديةً، وجدتُ أن هناك عواملَ أربعةَ، ينبغي مراعاتُها في التعامل مع المعلومة، درستُها على بحث أحد خبراء المعلومات، واسمه روبرت هيز، وكان يحاضِر في جامعة كاليفورنيا في لوس انجلس. ولا أزال احتفظ بورقته هذه منذ سنة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، حيث ركّز على هذه العوامل الأربعة وهي: ملكية المعلومات، وسرِّيتها، وخصوصيتها، وأمنها.[1]

وفي ضوء هذا التوجُّه نحو الشفافية ستكون سرِّية المعلومات ضعيفةً، من حيث حجمُ المعلومات الخاضعة للسرِّيَّة، وإن ظلّت هناك حاجة إلى قدرٍ من السرِّيَّة، لدواعٍ سياسية واجتماعية وأمنية. والذي يلاحظ أن استخدام السرِّية، أو الرغبة فيها، يطبَّق، أحيانًا، بل غالبًا، على معلومات لا تدخل، من حيث مضمونُها، في

---

(١) انظر:

R. M. Hayes. "Issues in Developing the Infrastructure of National Information Systems: A Key Note Presented to the First International Conference. Cairo, Egypt, December 13-15. 1982.

هذا المفهوم، إذ لا يترتَّب على إفشائها أي ضرر ظاهر. والعجيب أن يُعمَّم على الناس، أو فئة منهم، "خطابٌ سرِّيٌّ"، والتعميم لا يتَّفق مع السرِّيَّة، بل قالوا في هذا المجال: إنك إذا أردت أن تشيع معلومة فأحطْها بالسرِّيَّة. وبالتالي فإن النزوع إلى الشفافية أصبح في التعامُل مع المعلومة، والتعامُل مع المستفيد من المعلومة.

وعليه، فإن الشفافية، مع كونها مطلبًا، إلا أنه يظل هناك حاجة إلى قدر من الاحتفاظ بالمعلومة، حتَّى على المستوى الشخصي، تلك المعلومة ذات العلاقة المباشرة بخصوصية الأشخاص، وتلك المعلومة ذات العلاقة بالأمن الوطني، وتلك المعلومة التي يرغب صاحبُها في الاستحواذ عليها، ليس لأنها سرِّية، ولكن لأنها ملكٌ له، تُعَدُّ من ثروته، التي يحتفظ بها لنفسه. ولذا ظهرت اتفاقيَّات الملكية الفكرية على أنها إحدى مقوِّمات السعي نحو هذا المفهوم العلمي، الذي يُنظَر إليه على أنه مفهوم جديد، وإن لم يكن جديدًا، وإنما هو امتداد لمحاولات سابقة، وإنما الجديد فيه هو التسمية فقط. والذي يُتحفَّظ عليه، هنا، في طرح مفهوم الشفافية، أن يتعدَّى الأمر من مجرَّد الإفصاح عن المعلومة، وهي أمر معنوي، إلى الإفصاح عن المحسوس في حياة الناس.

وهذا ما رأيته في طرح إحدى الكاتبات، التي بدأت تستخدم مصطلح الشفافية لتقيس فيه، أو من خلاله، المجتمع المسلم بعامَّة، والمرأة المسلمة بخاصَّة، مما يقتضي الشفافية في مناقشة هذا الأمر، لئلا نُؤخذ بهذه الشفافية، التي يُراد لها، من هذه

الكاتبة وصويحباتها، أن تخرج عن الطور، كما خرجت عنه مَن قبلها، وستخرج عنه مَن بعدها.

الوقفة الحادية عشرة: الأكاديمية

الأكاديمية، كما تُعرَّف، هي النظرة العلمية الموضوعية المجرَّدة للأشياء، ومعالجة القضايا، أو المسائل أو المشكلات، معالجةً بعيدة عن العاطفة. والمشكلة التي تحتاج إلى هذا المفهوم عن الأكاديمية هي أن التجرُّد من العاطفة في معالجة القضايا، أو المشكلات أمر يكاد يكون مستحيلا في عالم اليوم، إذ تتدخَّل الانتماءات في النظرة إلى المشكلة. ويصعب عمليًا، لا نظريًا، عدم تدخُّل الانتماء. فهل إدخال الانتماء، أي انتماء، في النظر إلى المشكلة يبعد معالجتها عن الأكاديمية؟ وهل يعني دخولُ الانتماء في المعالجة دخولَ العاطفة بالضرورة؟ إذا قلنا بهذا سلَّمنا بأن الانتماءات مسائل عاطفية، لا أكاديمية، وعندها لن يكون للأكاديمية مكان في معالجة القضايا والنظر إلى المشكلات.[1]

وقد تعوَّدنا، في النظرة الأكاديمية، أن نحتكم، من أجل الخروج بحلٍّ للمشكلة إلى معيار، أو مجموعة معايير، هذه المعايير إمَّا من تطوير البشر، ماضيًا أو حاضرًا، أو أنها مرسومة توقيفًا عن طريق الوحي المنزَّل على الرسل - عليهم السلام -. والمعايير المرسومة، توقيفًا بالوحي هي، عندنا، المعايير الكاملة، ولذا نعتدُّ بها عند قياس أيِّ حلٍّ لأيِّ مشكلة. ولكن الذين لا يؤمنون بهذه

---

(١) يرى عالم الاجتماع المشهور ماكس فيبر أن التجرُّد العلمي التامّ. وعدم التحيُّز. غيرُ ممكن. عند اختيار موضوع الدراسة.

المعايير: بسبب استقائها من الوحي، يحكمون علينا بأننا نظرنا إلى المشكلة نظرة انتمائية، وسعينا إلى حلّها بموجب هذه النظرة الانتمائية، وكأننا بهذا قد حكّمنا العاطفة، في نظرتنا إلى المشكلة، وليس هذا صحيحًا بحال.

انظروا، مثلا، إلى قاضٍ يحكم بحكم المعيار الشرعي على أحد معارفه، والحكم هذا ليس في مصلحة هذا القريب، والقريب ينظر إلى القاضي نظرةً فيها رجاء بأن تتدخَّل القرابة، مثلاً، في حجم الحكم، لا في الحكم نفسه. ولكن القاضي، بحكم أنه مُحاسب وحده يوم الجزاء والحساب، يصدر حكمه بناء على المعيار الشرعي، وليس بناء على الانتماء القبلي، أو العرقي، أو الأُسْري. وقد يحتاط القاضي؛ لئلا يُتَّهم، أمام الناس، بأنَّه خلط في حكمه بين المعيار الشرعي، والانتماء الأُسْري، أي خلط بين الموضوعية والعاطفة. ولا ينتظر منه ذلك أمام الله تعالى، ثم أمام وليِّ الأمر.

ولا يكاد يوجد شخصٌ، يحكم على أمر من الأمور، دون الانطلاق من معيار يستند إليه، فإن كان هذا المعيار منطقيًا، عقليًا، متجرِّدًا، اتَّسم الحكم بالموضوعية، أي بالأكاديمية، دون التركيز على انتماءات هذا الحكم. وإن يكن المعيار أقربَ إلى القلب والأحاسيس والمشاعر والوجدان، اتسم الحكم بالعاطفية، دون التركيز على انتماءات هذا الحكم.

والمراد الوصول إليه أن الانتماءات ليست معيارًا للحكم على قضية بأن هذا الحكم موضوعي أو عاطفي: لأن محاولات إبعاد الأحكام عن الانتماءات لا تستقيم بحال، فاقتنعتُ بأن الانتماء لازمةٌ من لوازم الحكم على الأشياء.

الأكاديمية تبرز في التريُّث والدراسة والبحث والاستشارة، والتعرُّف على الحيثيات والظروف، التي تحيط بالمشكلة قبل الخوض في البحث عن البدائل والحلول، ثم اختيار أفضل هذه البدائل، حلاً مقترحًا للمشكلة، وأقول "حلاً مقترحًا": لأنه ليس، بالضرورة، الحلَّ الوحيدَ للمشكلة، فالأكاديمي، بموجب هذا البحث والدرس والإحاطة، يخرج بحكم مجرَّد موضوعي، وعند التنفيذ نجد أن الشخص، أو الفريق المناط به التنفيذ، يعجب من هذا الحلِّ، بحكم أنه، مع تجرُّده وموضوعيته، لا يتناسب، بحال، مع الحال التي سينفَّذ فيها، أو عليها، الحلُّ، ولكنه يُستخدَم للاستئناس به، ويضيف المنفِّذون عليه، ويحذفون منه.

وإذا كان هذا قد يوحي بجفاف النظرة الأكاديمية للأشياء، فإن هذا هو الصحيح، إذ المتوقَّع من النظرة الأكاديمية أن تكون خالية من المرونة، أو التسيُّب في النظر إلى الأشياء، وهي تُعرض، ثم يجرى عليها التحوير والتعديل والتبديل، وتطوَّع حسب البيئة التي ستنفَّذ فيها نتائجُ النظرة الأكاديمية.

ويبدو أن هناك نبرةَ استهجان للأكاديمية، في بعض المواقف، عندما يقال لك: لا تكن أكاديميًا صرفًا، ويطلب منك تلطيف

النظرة الأكاديمية بشيء من النزول إلى الواقع، الذي قد لا يُرضي الأكاديمي، الذي يسعى إلى أن يرفع من الواقع إلى الأفضل، لا أن ينزل إليه، ويستسلم لبعض ظروفه، القابلة للتطوير، أو النهوض بها إلى الأفضل.

ولعلَّ من مسؤولية الأكاديميين أن يُصرُّوا على أكاديميتهم، مع شيء من الواقعية، التي لا تملي التنازُل عن النظرة الأكاديمية. ولكنها تحتِّم صبغها بصبغة انتمائية، تجعلها قابلة للتنفيذ، في البيئة التي يُراد لها أن تعيش فيها، ولو أدَّى هذا الإصرار إلى شيء من المعاناة، فإنه كلَّما زادت المعاناة دلَّ ذلك على قوَّة الإصرار.

--- --- ---

الوقفة الثانية عشرة: السياسة

من العجب أن يُغفَل البعد السياسي، سببًا من أسباب الهوان، وتزعَّم هذا جمع من الناس، جعلوا آخر ما يخوضون به هو السياسة، وجعلوا هذا منهجًا لهم في التعامل مع الحياة كلّها. ومن العجب أيضًا أن يُحمَّل البعد السياسي كلَّ الأسباب، والحكمة، التي يبدو عليها قسط كبير من الصدق، تنصُّ على: «كما تكونون يولّى عليكم». وهذا أيضًا منهج يسعى إلى إصلاح الأساس، فإذا صلُحت الرعيَّة صلُح الراعي، كما أنه إذا صلُح الراعي صلُحت الرعيَّة، ولكن جمعًا يُغلِّب نظرةً على أخرى.

ولقد مرَّ على المسلمين، في الزمن المعاصر، ما يوحي بصلاح الراعي، الذي لم ينتظر صلاح الرعيَّة، فكان أن تسرَّع الراعي في مشروع الصلاح والإصلاح، دون وجود القابليَّة، على ما يظهر، فدُلقت قنانُ الخمر في الشوارع، وقطّعت أيدي السارقين، في بلد معظم أهله فقراء، بل وأُعدم من اتُّهم بالردَّة. كلُّ هذا والأساس (القاعدة) لم يكن مستعدًّا لمثل هذا الاستعجال، مما أدَّى إلى فشل هذا المشروع، وتنحية صاحبه عن السُّلطة.

إن تطبيق الشريعة في مجتمع غُيِّبت عنه أوليَّات الشريعة، ليس مجرَّد فورة قائمة على تشخيص سطحي لمدى قابلية الناس لتطبيق الشريعة. ثم إن تطبيق الشريعة على الناس قد لا يقتصر على مظاهر التطبيق من خلال إقامة الحدود، وإنما الحدود، فيما

يظهر، تأتي لاحقًا، عندما يترسَّخ الدينُ في النفوس، وإن طال الزمن.

ويتردَّد لدى المتابعين أن الخليفة الراشد الثاني **عمر بن الخطاب** – رضي الله تعالى عنه – لم يُقم حدَّ السرقة في زمن من زمان خلافته، وهو ما سمي **بعام المجاعة**، لأنه رأى، بحكمته وفقهه وعلمه، أنه ليس الزمان الذي يقام فيه الحدُّ، ليس لأن القابليَّة لإقامة الحدِّ غير متوافرة، ولكن لأن الظرف الآني لم يسمح بذلك. فكانت الحكمة البالغة التي تُعدُّ تشريعًا للمسلمين؛ لأنها سنة الخليفة الراشد **عمر بن الخطاب** – رضي الله تعالى عنه..

وعليه، فإن الاستعجال غيرُ مطلوب، والتركيزَ على المظاهر قد يضرُّ أكثرَ ممَّا ينفع، مع عدم إغفال القول المأثور: إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، فهو قول مأثور مقبول لذلك السلطان الذي يحكم بالقرآن، وهذا عامل مهمٌّ في قبول هذا القول المأثور. إن أمام الدعاة والعلماء مشروعًا في إعادة الناس – من الأساس – إلى الدين، إلى الأساس، دون الاستعجال الذي أضرَّ بالدعوة والدعاة ضررًا كان له أثر واضح في الوصول إلى النتائج المرجوة.

ولئن كثُر الدعاة فإنها كثرةٌ تفتقرُ إلى قدر من العلم والحكمة، مهما ردَّدَ من الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة، والآثار الحكيمة، ولكنَّها مع هذا لم تستقرَّ في نفوس بعضٍ من الدعاة، الذين قد يكونون قد غلَّبوا العاطفة في هذا المجال، الذي

يحتاج إلى تغليب الحكمة والعقل والرويَّة. وهذا طرح قد لا يعجب بعض المهتمِّين والمعنيِّين، وقد يُساءُ فهمه، ولكنه مع هذا محاولة للتقليل من التعليق على النتائج، بدلا من تلمُّس الأسباب، وما آثار الإلحاد والاستعمار والاستشراق والتنصير إلا نتائج لأسباب دبَّت في جسم الأمَّة. ومع هذا يظل التفاؤل هو المهيمن على هذا المسار، مهما بدت الأمور في ظاهرها غيرَ مشجِّعة على التفاؤل.

الفَصْلُ الرَّابِعُ

وَقَفَاتٌ
مَعَ التَّفَاعُلِيَّاتِ

الوقفة الأولى: الأسباب:

ما يمرُّ به العالم اليوم من تطوُّرات متسارعة جدًّا، لاسيَّما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م، الموافق السادس والعشرين من جمادى الآخرة ١٤٢٢هـ، على المستوى العالمي، وقبل ذلك اجتياح العراق للكويت في الثاني من أغسطس ١٩٩٠م، الموافق الحادي عشر من محرَّم ١٤١١هـ، ثمَّ ما تلا ذلك كلَّه من اجتياح القوَّات الأجنبية للعراق، ثم، على المستوى المحلِّي السعودي، ثم الخليجيي، بروز حركة الإرهاب، هذه التطوُّرات وصلت تقريبًا إلى كل بيت في هذه المعمورة، إنما يجعل ذلك كله الحليمَ حيرانَ. ويؤكِّد دائمًا أن النقص والتقصير سمةٌ مترسِّخةٌ في بني آدم، مهما وصلوا إليه من قدرات مادِّية وفكرية.[1]

وليست هذه الوقفة تأخذ طابعَ ادِّعاء الحكمة والتنظير، ذلك أن ما حدث يستدعي وقفات تقويم، لتحليل الأسباب التي أدَّت إلى هذه النتائج، وبالتالي النزوع إلى الوقاية، بدلا من القفز إلى العلاج، فالوقاية كفيلة – بإذن الله تعالى – بالاستغناء عن العلاج، مع ما يكفُله العلاج من شيء كثير. ولن يبحثَ الأسباب إلا أولئك

---

(١) انظر، في هذا الصدد: عبدالله بن ناصر الحمود. من اين أُتينا؟: محاولة لفهم الواقع الذي استعصى. – الرياض: المؤلِّف، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م. – ٢٤٨ ص. وانظر، ايضًا: مجموعة من المفكِّرين. السعوديون والإرهاب: رؤى عالمية. – الرياض: غيناء، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م. – ٥٥٩ ص.

الأشخاص الذين أوتوا قدرًا عاليًا من الحكمة، بعيدًا عن المؤثِّرات العاطفية، التي تطغى هذه الأيام على الأحداث.

والبحث في الأسباب يستدعي وقتًا طويلا ورويَّة، واستحضار جميع الأبعاد الباعثة لهذه الأسباب، بما في ذلك التقويم الذاتي، أو نقد الذات، وتلمُّس وجوه التقصير في التعامُل مع التطوُّرات المتسارعة جدًّا، وتحديد الموقف الموضوعي منها، وتخصيص التشخيص، والبعد عن التعميم، الذي طغى على أحداث الساعة الراهنة. والحكمة فضل من الله يؤتيه من يشاء، ولا تخلو أمَّة من حكماء أوتوا الحكمة، ولديهم الرغبة في التشخيص، كما لديهم الرغبة في تلمُّس أسباب الوقاية من حدوث أيِّ أمر مخلٍّ بسرٍ من أسرار الوجود.

ودون التوسُّع في هذا الطرح، فإن المؤمَّل أن تنزِع الأمم والشعوب إلى هذا المنحى، في معالجتها لقضاياها، فتقرِّب من الحكماء لديها، وتضعهم على المحكّ، وعندها سوف تتضاءل الأحداث – بإذن الله تعالى –، ذلك أن هذه الفئة سوف تضع يدها على الجرح، الذي يؤدِّي إلى مثل ما نحن عليه اليوم من تطوُّرات، ليست في مصلحة البشرية.

وقد جرى حديث بيني وبين أحد الدُّعاة، وقد زار الغرب في رحلة دعوية، وعاد بانطباعة غير طيِّبة عن العمل الإسلامي في تلك البلاد. وأبيت في الحديث معه، بحضور بعض المعنيين، إلا أن أرفع راية التفاؤل، حول العمل الإسلامي في كل مكان، حتى في وضع

المسلمين الراهن في بقاع كثيرة من أرض الله، شرقًا وغربًا وشمالا وجنوبًا. وما هذه الحركات التي يواجهها جمهور كبير من بني الإسلام إلا مؤشِّرٌ صادقٌ على حتميَّة التفاؤل. وأرى أن ما يتعرَّض له المسلمون في هذه البقاع إنما هو نتيجةٌ، وليس سببًا للصحوة الإسلامية، المتمثِّلة في السعي الصادق إلى العودة إلى الله تعالى. وأؤكِّد على كلمة السعي الصادق: لأني أرى أن العودة لم تكتمل من ناحية الثبات والاستقرار على الطريق المستقيم، وإنما هي محاولات تدعو إلى التفاؤل، مع قدر من الحذر، في حال المسلمين.[1]

ومهما حاولنا تعليق الأسباب، فيما يمرُّ بالمسلمين، على غير المسلمين بالدرجة الأولى، ومهما حاولنا توكيد نظرية المؤامرة والمخطَّط لتقويض دعائم الإسلام، ومهما لاحظنا من ممارسات تؤيِّد نظرية المؤامرة والمخطَّط، إلا أنه ينبغي علينا، جميعًا، أن نلتفت إلى وضع المسلمين، في معظم بلاد المسلمين، وبلاد غير المسلمين، فنزن هذا الوضع بالميزان الشرعي، لنرى مدى قرب المسلمين الحق من الإسلام. وكلَّما قرُب المسلمون حقًّا من الإسلام خفَّت التحديَّات أمامهم وخفتت، والعكس صحيح.

ومن ناحية أخرى فإن ما يحصل للمسلمين اليوم من غير المسلمين، ومن بعض المسلمين أحيانًا، لم يكن ليحصل في زمن

(١) انظر: يوسف القرضاوي. الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرُّق المذموم. – القاهرة: دار الشروق، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م. – ١٧٦ ص.

مضى خضع فيه المسلمون لغير الاستعمار، ولم يعرف في عالمهم من وقف في وجوههم، إلا أشخاص خلَّد التاريخ جهادَهم ضدَّ الاحتلال (الاستعمار)، وانطلقوا من الخلايا والزوايا والمساجد، وكانوا، حقيقةً، هم النواة التي قامت عليها هذه الصحوة المباركة.[1] أما بقيَّة المسلمين فكانوا مشغولين في دنياهم، ولم يكن لهم حول ولا قوة، ليس لقلَّة فيهم، ولكن لغلبة البُعد عن الله بينهم.

وعودٌ على هذا الداعية الذي عاد بانطباعة غير حسنة عن وضع المسلمين هناك، أقول: إنه لا يمكن لشخص أن يخرج بانطباعه عامة من زيارة سريعة. وألوم أولئك الذين يمضون أيامًا معدودة في بلاد من بلاد الله الواسعة، فيعودون بأحكام تعميمية سريعة. وهم كانوا في وضع المكرَّمين، الذين يُنقلون من مكان إلى آخر، وقد طُبِّقت عليهم، من باب الإكرام ليس إلا، فكرة **حُرَّاس البوابات** Gatekeepers التي مرادها إطلاعهم على جزء يسير من وضع عام، وإغفال بقيَّة الأجزاء، من جسم متكامل، فيه الحسن كما فيه السيئ.

ولا يعني هذا التفاؤل خلوَّ الساحة من التقصير والقصور، بل هي ساحة تغص بالتقصير والقصور، التقصير في الإمكانات العلمية والعملية، والقصور في علمية من يتولُّون رعاية العمل

---

(١) انظر: عبدالعظيم رمضان. الغزوة الاستعمارية للعالم العربي وحركات المقاومة. – القاهرة: مكتبة الأسرة، ١٩٩٩م. – ٢٠٣ ص.

الإسلامي، في بلاد المسلمون فيها أقليَّة، والعلماء بينهم أقلُّ من القليل. وليس في هذا تعريضٌ بالعلماء الموجودين، ولكنهم لا يتمكنَّون من تغطية كل مركز ومسجد ومدينة وولاية، وهكذا.

ويعني التفاؤل، أيضًا، البعد عن اليأس الذي لا يدخل قلب مؤمن، فأبو يوسف – عليهما السلام – يؤكِّد على أبنائه أنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.[1] ويعني التفاؤل، أيضًا، المضيَّ قدُمًا في تحمُّل المسؤولية، بالقدر الذي يستطيع فيه الفرد تحمُّلَ المسؤولية، دون أن يحمِّلَ نفسه أكثر مما تحتمل، وإلا لم يتحقَّق تحمُّل هذه المسؤولية.[2]

فكل شخص قادر على تحمُّل قدر يسير من حمل ثقيل. فإن عرف هذا القدر استطاع المضي، وإلا غرس قدميه في الرمال. والتفاؤل يعين على إدراك أن هناك آخرين من حَمَلة المسؤولية، يسهمون في حملها، فلا يشعُر الفرد، ولا يُشعِر نفسه، أنه الوحيد الذي يحمل هذه الأمانة.

---

(١) ﴿ يَـٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾. (يوسف ٠٨٧).

(٢) انظر: لا تحسبوه شرًا لكم. – ص: ١٢٧ – ١٣٣.

في: جعفر شيخ إدريس. الإسلام لعصرنا. – الرياض: مجلة البيان، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م. – (سلسلة كتاب المنتدى)

الوقفة الثانية: التلاقُح

الحضارة تقوم على أسس، لا خبطَ عشواء. وهذه الأسس تعتمد على تجارب سابقة، وعندما تتسلَّم أمَّة زمامَ الحضارة، تتسلَّمها من أمة سبقتها إليها، وهذا ما يسمى اليوم **بتلاقُح الحضارات**. والحضارة الغربية قامت على حضارة سابقة، هذه الحضارة هي التي قامت على الإسلام، والحضارة الإسلامية استأنست بالحضارة الإغريقية والهندية والفارسية، في أمور الدنيا بشكل واضح، على أنه رافد تالٍ للرافد التعبُّدي، الذي قام على الوحي من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولا صحَّة لمن يقول بأن هذا الوحي نفسَه كان مستمَدًّا من الحضارات السابقة، وقد قيل ذلك.

ولا تنتقل الحضارة من أمَّة إلى أخرى، إلا إذا أبدت الأولى عجزها عن مواصلة الإمساك بزمامها، لأسباب في هذه الأمَّة، أو لأسباب دخيلة عليها، وافدة من خارجها، فتضعف الأمَّة عندما تتخلَّى عن المقوِّمات، التي قادتها إلى الإمساك بزمام هذه الحضارة. وقد أُريد للمسلمين أن يمسكوا بزمام الحضارة، متى ما اعتنوا بالرافد الأوَّل لها، وهو الوحي، وما فيه من مقوِّمات الحياة.[1]

لقد أوجد الغربيون حضارةً مستمدَّةً من الحضارة الإسلامية، وشجَّعهم على ذلك أن هذه الحضارة قد ربطتهم بحضارات كانوا

---

(١) انظر: علي عبدالحليم محمود. التراجُع الحضاري في العالم الإسلامي وطريق التغلُّب عليه. - المنصورة: دار الوفاء، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م. - ٤٥٦ ص.

ينتمون إليها، قبل إن يتخلّوا عن مقوِّمات الإمساك بزمام الحضارة،[(١)] ولكنّهم أخذوا من الحضارة الإسلامية ما يتناسب مع نظرتهم الماديّة للحياة، لأنهم لو أخذوا الحضارة، بكلّ مقوّماتها لأضحوا مسلمين. ثم أضافوا عليها وطوّعوها لزمانهم ومكانهم، فأصبح المسلمون الذين كانوا يستقبلونهم للتعلُّم والتعليم والإفادة، يذهبون إليهم للتعليم والتعلُّم والتدريب والإفادة، وهكذا.[(٢)]

وكان الانبهار بتلك الحضارة مسيطرًا على معظم أولئك المتعلّمين، بما حقّقته تلك الحضارة من تقدُّم واضح وملموس في شتّى وسائل الحياة الماديّة على الأقلّ. أدّى هذا الانبهار إلى التأثُّر بالأسلوب الذي تُدار فيه الحياة. وتعدّى الأمر الماديّات إلى الأفكار، فكان نتيجة هذا تبنّي الأفكار، على أنها هي التي أوصلت الآخر إلى ما وصلوا إليه. وأصبحت مناقشة الأفكار والجوانب المعنوية في الحياة أمرًا مرفوضًا، إذا كان يهدُف إلى رفض هذه الحضارة، والتحذير منها.[(٣)] بل أصبح من غير المقبول الدعوة إلى أخذ حسنات هذه الحضارة أو تلك، ونبذ سيئاتها، على

---

(١) انظر: توفيق يوسف الواعي. الحضارة الإسلامية مقارنةً بالحضارة الغربية. – المنصورة: دار الوفاء، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م. – ٨٦٠ ص.

(٢) انظر، مثلاً: توماس باترسون. الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ. – القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٤م. – ١٢٠ ص.

(٣) انظر، مثلاً: كولن ولسون. سقوط الحضارة/ نقله إلى العربية أنيس زكي حسن. – ط ٤. – بيروت: دار الآداب، ١٩٨٧م. – ٤١٥ ص.

اعتبار أن كل ما في هذه الحضارة حسن، وإن وافق البعضُ، جدلا ومن الناحية النظرية، على خلاف ذلك.[1]

وهذا الموقف "المتطرِّف" في القبول المطلق كان من المتوقَّع أن يؤدي إلى موقف آخر "متطرِّف" في الرفض المطلق للحضارة، والدعوة إلى العودة المباشرة إلى الأصول والأسس الأولى، التي قامت عليها الحضارة الإسلامية. مع أن العودة إلى الأصول، بالمفهوم الذي مقتضاه العودة إلى الرافد الأوَّل، وهو الوحي، يُعدُّ من المسلَّمات التي لا يبدو أنها موضع خلاف. فالحضارة الإسلامية لا يمكن أن تكون حضارة إسلامية، إذا ما تناست الرافد الأوَّل. إنما النقاش، هنا، هو حول الروافد الأخرى غير الأصليَّة، أي الفروع والمقوِّمات المعينة على قيام الرافد الأول. وبعبارة أخرى، ليس النقاش ثقافيًا حول قبول التثليث، مثلا، على أنه من مقوِّمات حضارة أخرى.

وليس النقاش ثقافيًا حول قبول عدم وجود إله، أو وجود نبيٍّ، هو خاتم الأنبياء، أو وجود كتاب منزَّل من الله تعالى على نبيِّه **محمَّد بن عبدالله** ﷺ، أو أن هذا الكتاب قابل للتغيير، أو الزيادة أو النقص، فهذه من ثوابت الأمَّة لمن تمسَّك بزمام الحضارة، مرَّة أخرى، إذا ما وضعتها على طاولة النقاش مع حضارات أخرى.

---

(١) انظر، مثلاً: أسوالد إشبنغلر. تدهور الحضارة الغربية/ ترجمة أحمد الشيباني. - ٢ مج. - بيروت: دار مكتبة الحياة، (١٩٦٤م).

فإذا تجاوزنا هذه الأصول على أنها مسلَّمات لا تخضع للنقاش، لم يعد هناك داعٍ للتطرُّف في القبول المطلق، أو الرفض المطلق، ذلك لأن المسائل التي ستطرح للنقاش هي من النوع الذي يعين على قيام الحضارة، أو لا يعين على قيامها. وهنا تصبح المسألة مسألة رأي، يعتمد على الأثر في جانب، أو يغلِّب العقل في جانب آخر، أو ينظر إلى الواقع فيطوِّع له الأثر، أو يطوِّعه للأثر، ويطوِّع له العقل أو يطوِّعه للعقل، وهكذا. لأن الأمر، حينئذ، يصبح من كلام البشر، وكلام البشر يؤخذ منه ويردُّ، على ما أثر عن **مالك بن انس واحمد بن حنبل – رحمهما الله تعالى –**.[1]

وإنما وقفتُ هذه الوقفة رغبةً في مناقشة هذه المفهومات، التي لا أرى أنها قد نالت حظَّها من النقاش، ورغبة في التحديد الدقيق للمصطلحات التي تتردَّد الآن، وتؤخذ، في غالب الأحيان، دون مراعاة لمدلولاتها، وتأثير هذه المدلولات.

---

(١) انظر، مثلاً: جرجي زيدان. تاريخ التمدُّن الإسلامي. – ٣ ج. – راجعه وعلَّق عليه حسين مؤنس. – القاهرة: دار الهلال، ١٩٦٨م.

الوقفة الثالثة: الاختلاط (١)

المقصود هنا المخالطة، أخذًا من حديث المصطفى ﷺ: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظمُ أجرًا من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم».[1] والمجتمع المسلم يتكوَّن من مجموعة من الأفراد، ذكورًا وإناثًا، صغارًا وكبارًا. وفيهم المحسن، وفيهم المؤمن، وفيهم المسلم، وبين المسلمين الفاجر والفاسق والضال. وفي المجتمع المسلم كافرون ومنافقون، ولا يخلو مجتمع من وجود معظم هذه الأنواع من الناس، من حيثُ علاقتُهم بالله تعالى، إحسانًا وإيمانًا وإسلامًا، وفجورًا، وفسوقًا، وضلالا، وكفرًا، ونفاقًا.

والمحسنون والمؤمنون والمسلمون عرضةٌ لأن يعتريهم الضعف، كما تعتريهم القوة. والإيمان، كما نعتقد، يزيد وينقص. وقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن – سبحانه وتعالى – يقلّبها كيف يشاء.[2] وكذا الحال مع الفجَّار والفاسقين والضالين، منهم من يترك الفجور، ومنهم من يقلع عن الفسوق، ومنهم من يهتدي، فيدع الضلال. بل إن من الكافرين من يُسلم، ثم يؤمن، ثم يحسن،

---

(١) رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع. حديث رقم: ٢٤٣١. ورواه ابن ماجه في كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء. حديث رقم ٤٠٢٢. ورواه أحمد في المسند. مسند المكثرين من الصحابة. حديث رقم ٤٧٨٠. واللفظ لابن ماجه وأحمد.

(٢) سبق تخريج الحديث من رواية مسلم.

وإن كان أول إسلامه قد يتعرَّض للفجور والفسوق والضلال. وهذه، على ما يبدو، سنة الله تعالى في عباده. وكلما ازداد العبد علمًا، وعملا بما يعلم، زادت مسؤوليته نحو الاختلاط بالناس، والصبر على أذاهم، ليكون هذا الشخص مصلحًا، متعديًا في صلاحه ذاتَه إلى غيره من الناس، بعد أن كان صالحًا، لازمًا صلاحُه لنفسه. وعليه فإن المصلح أكثر مسؤولية من الصالح، وهكذا.

والذي ينبغي النظر إليه لدى مخالطي الناس أن يكونوا من الصابرين على أذاهم. وليس المقصود، هنا، أولئك الرجال الذين تعارفنا عليهم بأنهم يعملون في مؤسسة تُدعى **الرئاسة العامّة لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر** فقط، ولكن المقصود جميع من يتولى الإصلاح أن يكونَ صابرًا على أذى الناس، وهذا يعني بالضرورة أن يكون صالحًا بذاته، قبل إن يبدأ بإصلاح الآخرين.

ومن المهمّ، هنا، عدم اللجوء إلى التقوقع على الذات، وعلى ثُلّة من الزملاء، أو الأصدقاء، أو الرفاق، ممّن جمعهم التوجُّه الضيِّق، دون النظر إلى الآخرين من أبناء المجتمع، ممّن قد يصدر عنهم شيء من الإيذاء للمصلحين من الناس. وإذا حصل هذا التقوقع فإنه مدعاة إلى الاتّهام بأن المتقوقعين غير قادرين على الاختلاط بالناس، والصبر على أذاهم. ولعل بعض المتعجِّلين من الطيِّبين لا يقبل أنصاف الحلول، فإمّا أن يخالط الآخرين، فيغيِّر

كلَّ شيء، وبكلِّ سرعة، وإمَّا ألاَّ يخالط الآخرين، إلاَّ مَن اتفق معهم في القدرة الفورية على التغيير.

على أن القدرة الفورية على التغيير قد تؤدِّي إلى آثار عكسية، قد تصل، بحسب الحال، أحيانًا، إلى الردَّة العنيفة، ولذا ينبغي الحذر والأخذ بالتدرُّج.(١) وإذا كانت النية صادقة في طلب التغيير، ولو بعد حين، فلعل الله تعالى يعلم بحال الصابرين، ويغفر لهم صبرهم على ممارسات من الفجَّار والفُسَّاق والضالين، الذين يرجى لهم الإقلاع عمًّا ألصقهم بما لصقوا به، فليست هذه المصطلحات الشرعية لتطلق على شخص بعينه، إلاَّ إذا اتَّسم بالصفات التي تخوِّل إطلاقها عليه. ومن أهم ما نحتاج إليه اليوم، من مجالات الدعوة، مجال الانطلاق إلى الآخرين، والاختلاط بهم، والصبر على أذاهم.

--- --- ---

(١) انظر، مثلاً: آمال قرامي. قضية الردَّة في الفكر الإسلامي الحديث. - مرجع سابق. - ١١٧ ص.

الوقفة الرابعة: الاختلاط (٢)

في زمان يتقلَّص فيه العالم إلى أصغر من قرية صغيرة، وفي زمان تطغى فيه الدعوة إلى العولمة، من منظور اقتصادي، لن ينفلت عن المنظورات الأخرى، كالسياسية والثقافية والاجتماعية، في هذا الزمان يتعيَّن التوكيد على الحضور العربي الإسلامي في اللقاءات العالمية، التي تسير في هذا المسار، بحيث يكون لهذا الحضور تأثيرٌ على التوجُّهات، التي يسعى إلى تبنِّيها جمع من أولئك المؤتمرين، الذين يسعون إلى ترسيخ نظرتهم للأمور، التي لا تتَّفق، بالضرورة، مع المنظور الإسلامي، الذي يتَّسم بالنظرة الأعمق، والأبعد عن مجرد زمان محدَّد. وهناك من يتحفَّظ على حضور هذه اللقاءات الدولية، بحُجَّة أنه لا ينفع، أو عدم الحضور لا يضرُّ، إذ إن هذه اللقاءات لا تتَّسم بالإلزامية، التي تصدر عنها مشروعات اتفاقيات، أو معاهدات دولية.

والميل إلى الحضور مسوَّغ لعدة أسباب، يكفي أن يقال عنها: إنها تبرز وجهة نظر أخرى، ليست واضحةً للجميع، إن لم يتمّ توضيحها في هذه اللقاءات. ونحن من هذا المنظور مطالبون بالحضور لبيان وجهة نظرنا، بدلاً من الاحتفاظ بها لنا، دون إشاعتها بين الناس، الذين قد لا يصلهم هذا الصوت. والحضور هنا يكون على مستويين: المستوى الرسمي والمستوى الشعبي، وكلاهما يصبُّ في نتيجة واحدة: وهي تنوير هؤلاء المجتمعين بالمُثل

والمبادئ، التي نعتقد أنها أصلح من تلك التي يراد لها أن تكون هي السائدة.

ونحن نعتقد أن تلك المُثُل والمبادئ، التي يتبنَّاها الآخرون، بائنة الضرر، ولكن الذين يتبنَّونها ربَّما لم يطَّلعوا على ما هو أفضل منها. وقد يكون في الاختلاط هذا شيء من الضرر عند بعض من يظنُّون ذلك، ولكن النفع الذي يُجنى من الحضور أكثر من أي ضرر يمكن أن يكون. ويقابل هذا الضرر، إن وجد، بما تتيحه هذه اللقاءات من الاعتراض أو التحفُّظ أو بيان الحقِّ. ولعل هذا كلُّه داخلٌ في حديث المصطفى محمَّد بن عبدالله ﷺ السالف ذكره.

إن من مسئوليتنا، اليوم، أن نتحمَّل الشيء الكثير، ونذهب إلى هذه اللقاءات والمؤتمرات، ونحن واثقون تمامًا ممَّا نحمله للغير، ونحاول أن يتبنَّوا ما نحمله من فكر وثقافة في الوهلة الأولى، أو نحاول، كما ذُكر، أن ننقل للغير أن هناك فكرًا وثقافة لا ترغب في الانصهار في الفكر والثقافة، التي يُراد لها أن تطغى عالميًا. ومهما يكن من أمر، فإن الحاجة إلى هذا الآخر هي التي أتاحت مثل هذا الوضع. وإذا ما سعت بقيَّة الدول إلى تقليص الحاجة، لوجدنا أن التأثير سيتقلَّص، وسيتبيَّن أن هناك بدائلَ أفضلَ من المعروض، ولكن الحاجة أعمت الحاضرين عن هذه البدائل الموجودة.

وستستمر هذه اللقاءات في الانعقاد، وستستمر الحاجة إلى الحضور والاختلاط فيها، ذلك الحضور الفاعل المتفاعل مع موضوعات هذه اللقاءات. وعلى أيٍّ حال، فالذي يظهر هو ضرورة الحضور في هذه الأنشطة العالمية، التي تُعنى بالإنسان والحياة، والإعداد لها إعدادًا مناسبًا، وفي وقت مناسب، بحيثُ تتحوَّل إلى إثبات حقائق، بدلا من مواقف الدفاع والاعتذار والتبرير. ولا يكفي تسفيه التوجُّهات العِلمانية، في فرض مفهومٍ للإنسان والحياة، بل، مع هذا، يمكن مواجهة هذه التوجُّهات بتقديم التوجُّه الإسلامي الواضح.

الوقفة الخامسة: الاختلاط (٣)

المصطفى محمَّد بن عبدالله ﷺ لا ينطق عن الهوى، وما يقوله - عليه الصلاة والسلام - ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ ﴾ (النجم ٤:٠٠)، ومن ذلك نبوءته - عليه الصلاة والسلام - باتِّباع سنن من كان قبلنا، حذو القُذَّة بالقُذَّة، حتى لو دخلوا جحر ضبٍّ لدخله المسلمون، ومَن قبلنا هم اليهود والنصارى، كما هو منطوق الحديث الشريف.(١)

وهناك عادات إسلامية، جاء الإسلام بترسيخها في المجتمع المسلم، قد لا تتَّضح حكمتها لكل الناس، وبالتالي فإنه ليس من الحكمة تسفيه هذه العادات، لاسيَّما إذا وردت بنصٍّ نبوي شريف. ولكن الاتِّباع الوارد في الحديث الشريف أودى ببعض الناس أن يجعلوا بعض العادات الإسلامية، المأمور بها شرعًا من الأمور التافهة. وقد قرأت طرحًا أوصلها إلى هذا الوصف غير اللائق، لأنه ليس في الآداب الإسلامية توافه. وقد ينظر بعض الناس أنه من الحضارة أن نتَّبع سنن من كان قبلنا في كل شيء، حتى في العادات المتعلقة بالسلوكيات اليومية.(٢)

---

(١) «لتتَّبعُنَّ سَنن من كان قبلكم، حذوَ القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جُحر ضبٍّ لدخلتموه». الحديث رواه البخاري ومسلم بألفاظ.

(٢) انظر: جحر الضبّ: المزالق والمحاذير. - ص: ١٢٧ - ١٥٧.

وما الذي يضيرنا أن نخالف الآخر، إذا ما كانت هذه المخالفة ستكسبنا أجرًا، هو أجر الاتِّباع لسنة المصطفى محمَّد ابن عبدالله ﷺ، وأجر المخالفة لليهود والنصارى، ومن سار على نهجهم، هي أمور سهلة جدًا، ولكننا لا ننظر إليها من واقع سهولتها، بل إن بعضنا، ينظر إليها من واقع أننا نريد أن نُري الآخرين أننا في صفِّهم، في العادات والتقاليد، بينما هم يتوقَّعون منَّا ألا نكون مثلهم في العادات والتقاليد، لأننا نمثِّل ثقافة مختلفة في أشياء كثيرة، وإن اتفقت في أشياء أخرى مع ثقافات أخرى. وإننا بحاجة، دائمًا، إلى أن نتذكَّر جحر الضب، كلَّما عنَّ لنا أن نبرز أنفسنا، من خلال ثقافتنا.

وهذا مظهر من مظاهر الخصوصية، التي لا نفتأ نسوِّقها للغير، خصوصية التميُّز الدافع، لا خصوصية التقوقع على الذات، والانغلاق على النفس. وهي خصوصية الانطلاق، التي تسمح بتبنِّي الآخر لها، بل إنها تدعو لذلك من خلال ما نقدِّمه نحن من قدوة للآخر، في سلوكيَّاتنا ومسالكنا وأنماط حياتنا، من عادات وتقاليد إسلامية ثابتة، بأصول التشريع الإسلامي، وليست مجرَّدَ موروثات محليَّة، لا علاقة للدين بها، ولا مجال لخلطها به.

وقد يَعدُّ بعضُهم هذا الطرح مظهرًا من مظاهر التسطيح، ثم التزمُّت، الذي لا ينبغي التركيز عليه كثيرًا، وأنه يُعدُّ من الأمور الصغيرة. وهي كلمة أخفُّ بكثير ممن عدَّها من التوافه؛ لأنني أؤكِّد دائمًا أنه ليس في الدين توافه على الإطلاق، ويقع في الحرج

من يعتقد ذلك. ولست منبريًا إلى الدفاع عن هذا اللوم، من منطلق أنه ليس في الدين صغائر، والتوجُّه لعظائم الأمور لا ينفي الالتفات إلى الأمور التي تُعَدُّ صغيرة.

واللوم الثاني، الذي قد يرد في دعوى التسطيح، أن الأمَّة تمرُّ بأزمات عظام، يحسن طرقها والوقوف عندها، بدلا من الوقوف عند العادات في الأكل والشرب، لاسِيَّما أن بعض علمائنا متَّهم بالاهتمام بالأمور أو الأحوال الشخصية في حياة المسلم، على حساب الأمور الجسام التي تعصف بالمسلمين.

ولقد عايشتُ فئة من الناس تحزَّبوا، أعُدُّهم من الغلاة المتطرِّفين، الذين أرادوا تعطيل كل شيء في حياة المسلم، حتى يتمَّ التغلُّب على هذه الأزمات الجسام، التي تمرُّ بها الأمَّة، لا أقول كلَّ شيء على سبيل التعميم، لأنهم لم يتركوا الفروض، ولكنهم أرادوا تعطيل الأمور الشخصية، حتى يقيِّض الله لهذه الأمَّة من يقودها، كما كانوا يقولون على المنابر، وفي المجالس، وفي نشراتهم التي تعبِّر عن توجُّههم. وهذا، كذلك، مظهر من مظاهر التزمُّت، إذا ما كان هذا هو التوجُّه نحوه.

ولستُ في هذا أطرق أمرًا، يُحسب أنه على حساب أمور أعظمَ منه، لأنني لا أرمي لذلك، ولا أميل إليه، وأحسب أني قد وقفتُ كثيرًا عند المنهج الوسط، التي نريد دائمًا أن نتَّسم به. ومع هذا فإنه من الموضوعية أن أؤكِّد على أن بعضنا لا يقدِّم نفسه على أنه

متزمّت، أو متعصّب، أو من الغلاة، حتى يتبيَّن له ذلك، مع التعمُّق في العلم الشرعي، والأخذ عن العلماء والفقهاء الوسطيِّين.

ولعلَّ الحماس لا يأخذ منَّا مأخذه، بحيث نعطّل أمورًا في سبيل أن نقيم أخرى. على أن لنا قدرات، وقدراتنا، مهما كانت، محدودة. ونحن مطالبون بإقامة هذا الدين على قدر ما أوتينا من قدرات: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ... ﴾. (البقرة ٢٨٦)، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾. (التغابن ٠١٦).

وليس من المنهج الشرعي القويم، كما يظهر، أن نعطّل ما نقدر عليه، حتى يتحقّق ما لا نقدر عليه، وليس من المنهج الشرعي القويم، كذلك، أن نتعمَّد المخالفة: بحجَّة أننا لو لم نخالف لرُمينا بالتزمُّت من ناحية، أو لرُمينا بعنايتنا بالأمور الصغيرة في الدين، على حساب الأمور الكبيرة. فأن يكونَ الإنسان عندنا سويًا في دينه وفي خلقه، خير له من أن يتعلّق بأمور، هي، نعم، مهمَّة، لكنها فوق طاقته هو، والسؤال عنها يوم القيامة قد لا يكون بقدر السؤال عن التفريط، الذي حصل منه في حياته الخاصَّة، ومع مَن يعول.

ومهما يكن من أمر فإن التنبيه حول هذه الوقفات يكسب صاحبها مزيدًا من التأمُّل والتفكير، والتنبُّه إلى ما قد يغفل عنه.

الوقفة السادسة: الاختلاط (٤)

المعصية تصرُّفٌ سلوكي في الحياة، غير مرغوب فيه، يقوم به شخص أو أشخاص، ويعود ضرره عليه، أو على الآخرين، أو على المجتمع بعامَّة. وكثيرٌ من الناس، اليوم، من يقترف معصيةً من المعاصي. والأصل في الناس الابتعاد عن المعصية، ذلك أن الله - تعالى - قد خلق فيهم القابلية الفطرية للابتعاد عن الشرِّ، وتلمُّس الخير. وواقع الأمر أن الشخص نفسه قد يكون واقعًا في معصية، وهو يرفع راية الدعوة إلى الإقلاع عن المعصية. وأحسب أن هذا الشخص يقع في المعصية، دون إدراك منه أنه واقعٌ فيها، بل إن الدعوة إلى الإقلاع عن المعصية قد توقع صاحبها في معصية أشدَّ من المعصية المراد الإقلاع عنها، فترسِّخها، عنادًا ومكابرة.

والأصل في المسلم المؤمن الحرصُ على الدعوة إلى الإقلاع عن المعصية. ولن يكون قادرًا على ذلك إلا إذا خالط الناس، وصبر على أذاهم مصداقًا لحديث المصطفى ﷺ عن المخالطة، السالف ذكره. والتعامُل مع العصاة ضربٌ من ضروب النهي عن المنكر، والنهي عن المنكر، كما الأمر بالمعروف، لا يتأتَّى إلا بالعلم والصبر والحلم والرفق. أمَّا خلاف ذلك فإنه مدعاة للنفور والابتعاد عن الداعية، الذي قد يكون فظًّا غليظ القلب، فينفضُّ الناس من حوله: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى

ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾. (آل عمران ١٥٩). هذا مع الأخذ بالحسبان أن المعصية لا تعني الخروج من الملّة، وأن العاصي لا يزال داخلاً في حدود الإسلام. فإذا كان التعامُل مع غير المسلمين من أهل الكتاب والوثنيين والملحدين مطلوب فيه الرفق والحلم والصبر والعلم، فالتعامُل بهذه الروح مع المسلمين من باب أولى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴿٢٩﴾ ﴾. (الفتح ٠٢٩).

والشدَّة مع الناس، هنا، لا تتناقض مع متطلَّبات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ إن لها مكانها، وللرفق والعلم والحلم والصبر مكانها أيضًا. وكأني ببعض الشباب، من الدعاة بخاصَّة، يتعاملون مع العصاة بشيء من القسوة، التي تنفِّرهم من قبول الدعوة إلى الإقلاع عن المعصية، وتولِّد فيهم الإصرار على الاستمرار في طريق الخطأ، وهم، أي العصاة، يعلمون أنه خطأ.

وإقلاع الفرد العاصي أو المجتمع العاصي عن المعصية لا يتمُّ بسرعة وسهولة، ولكن هذا لا يعني الاستسلام لهذا الواقع، والعزوف عن المجتمع واللجوء إلى أبسط الحلول، بالاختلاط بالمقلعين عن المعصية، وترك العصاة وحدهم تفترسهم المعاصي.

ومخالطة العصاة لا تعني، أيضًا، إقرارهم على معاصيهم، ولا الاعتراف بأنها أمر يسير، بل إن في المخالطة بيانًا لما في المعاصي من بلاءٍ مستشرٍ على العاصي، وعلى من حوله.

ولعلنا نتذكَّر، دائمًا، موقف موسى وهارون – عليهما السلام – من فرعون المتألِّه، الذي وصل به الأمر من الكفر إلى ادِّعاء الربوبية. فيبعثهما الله تعالى له، ويوجِّههما بأن يقولا له قولا لينًا لعله يتذكَّر أو يخشى: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾. (طه ٤٤:٠) . وقد ثبت في علم الله تعالى أن فرعون لن يتذكَّر ولن يخشى، ولكن هذا الحكم ليس في يد البشر، وما عليهم إلا الدعوة إلى الله.

الوقفة السابعة: الاختلاط (٥)

يبدو أن هناك توجُّهًا يلوح في الأفق للعودة إلى البساطة، فقد بدأت تظهر صيحات تدعو إلى نبذ العادات المقيِّدة لأخذ الراحة، في التعامُل مع المعطيات اليومية للحياة. ومن ذلك أسلوب الأكل، وما يسمِّيه بعضنا دون تردُّد "بالإتيكيت"، في تناول الطعام والشراب، والجلوس في المحافل الدولية، والمناسبات الرسمية، لاسِيَّما أن هذه الصيحات تعيد أصل التمسُّك بهذه العادات إلى ظروف اجتماعية، كانت قائمة من قبل، لكنها تميل إلى الاضمحلال مع مرور الوقت، بحيث ينزعُ الناسُ إلى البساطة، التي لا تعني بالضرورة العودة إلى البدائية، التي تصوِّرها لنا بعض الأفلام، التي تجني على التاريخ وصانعيه، إلا أنه يبدو أن الناس قد بدءوا يملُّون هذا الأسلوب في تناول الأشياء.

وقد جرت العادة، أو "الإتيكيت" في المآدب، عالميًا، أن يأكل الناس بأيديهم اليسرى، ويقطعون باليمين، بينما الصورة معكوسة في الأدب الإسلامي، وبالتالي فقد يكون من غير المألوف، الآن، عالميًا أن يأكل الواحد منا باليمين، فترتيب طاولة الطعام ينهج هذا المنهج، حتى أنك إذا عدَّلت ترتيب المائدة، تبعك النادل، وأعاد ترتيب السكِّين والملعقة والشوكة، ووضعها الوضعَ الذي تدرَّب عليه في معاهد الفندقة، أو الدورات التي حصل عليها. ويصل الأمر إلى أن بعض التابعين منا لا يتردَّد في اتِّباع سنن من كان قبلنا، على

أن ذلك مسلك حضاري. ويُضرب بهذا السلوك المظهري مثلاً لشيوعه، ويمكن القياس عليه.

وأضحت البساطة في التناول مطلبًا محبَّبًا، سرى على الطرح الذي بدأ يتشبَّث بالوضوح والشفافية، مما يعني البُعد عن التصنُّع، الذي يُعَدُّ سمةً من سمات السلوكيات الرسمية في اللقاءات الرسمية الخاصّة. وبالتالي، فإن الناس يُرَحِّبون بمن يكون على هذه الشاكلة، دون أن يخلَّ هذا بمكانة هذا الشخص الاجتماعية، إذ إنه ليس بالضرورة أن تُكتسب المكانة الاجتماعية بذلك التصنُّع الذي تراه مستهجنًا، ممن لا ينتظر منه هذا الأسلوب في التعامُل مع الأشخاص والأشياء.

وقد يذهب الذهن في العودة إلى البساطة أو البدائية، بالمفهوم الإيجابي لكلمة البدائية، إلى أنها بدأت تفرض نفسها بفعل الضرورة، التي هي نتيجة لتوسُّع الإنسان في استغلال معطيات الحضارة بالتقنية المتطوِّرة جدًا. وقد اضطُرَّت خطوط الطيران إلى العودة إلى البساطة هذه، دون قصد، ولكن للضرورة، عندما ألغت الخطوط آلات الأكل الحادَّة، واستبدلت بها آلاتٌ بلاستيكية، قد تتكسَّر عند استعمالها في الأحوال العادية، مما يضطرُّ الراكب معه إلى إغفال استخدام هذه الآلات أو الأدوات، وبالتالي، استخدام الأيدي في إيصال الطعام من المائدة، إلى الفمٌ. وهذا ظاهر لمن يتابع الركّاب في أكلهم، مع أن "الإتيكيت" لا

يسمح بمتابعة الآكل وهو يأكل، ولكن لا مانع من اللحظ السريع، الذي يعطي هذه الانطباعة.

وهل هذا الطرح يتوافق مع الصيحات التي تنادي بالعودة إلى البساطة في السلوكيات، وترك الإنسان على سجيَّته المؤصَّلة، التي تتماشى مع الضوابط التي يرسمها المجتمع، ويتوارثها الناس، من منطلق أنها لا تخرج من مفهوم المباح، الذي هو في الدين دائمًا أصل الأشياء، أو الأصل في الأشياء؟ والعودة إلى البساطة بهذا الطرح لا تعني، بالتوكيد، العودة إلى التقزيز والرثاثة في العادات والتقاليد، على ما تصوِّره الأفلام التاريخية في الأنماط الغذائية، وفرق بين هذا وذاك، وإنما جاء التوكيد على ذلك سعيًا إلى نزع هذا الفهم من بعض مَا قد يتبادر إلى أذهان مَن يتنصَّل من كل ما يعين على سلامة المظهر في السلوك بعامة، وفي العادات الاجتماعية بخاصة.

وتستمرُّ رغبة الناس في العودة إلى هذا النهج، الذي يبعث على الراحة والاستمتاع، بدلاً من ربط الشخص نفسَه بتصرُّفات لا يقتنع بها، وليست بالضرورة من معطيات ثقافته. ولذا فإن هذه الدعوة تكتنف، دون تعمُّد، التخلُّص من أساليب التغريب، التي تبنَّاها بعض الشرقيين، في الوقت الذي يحاول فيه الغربيون التخلُّص منها. على ما مرَّ بيانه في وقفة الاختلاط (٣).

الوقفة الثامنة: الشدُّ

الحساسية من الأشياء تتولَّد عندما يكون هناك نوع من الشدِّ في موضوع من الموضوعات، أو أمر من الأمور. والشدُّ بين الإسلام والأديان الأخرى موضوع مستمرٌّ، ولكنه يتفاوت في القوَّة من زمن إلى آخر. وقبل سنين معدودة لا تصل إلى ربع قرن من الزمان لم يكن الشدُّ بين الإسلام والأديان الأخرى ظاهرًا على السطح، على الرغم من أن اليهوديَّة تجثُم على أرض إسلاميَّة، وتحتلُّ ثالث الحرمين الشريفين، وأولى القبلتين في بيت المقدس من فلسطين المحتلَّة. إلا أن المعنيِّين بالأمر من العرب الفلسطينيين، وغير الفلسطينيين لم ينظروا جميعًا على أن هذا الوضع جزء من الشدِّ بين الإسلام والأديان الأخرى.[(١)]

وكانت هناك محاولات، متعمَّدة، ترمي إلى إبعاد هذا المفهوم من الأذهان، في الوقت الذي يتوالى فيه وقوف جماعات من اليهود أمام ما يسمُّونه بحائط المبكى،[(٢)] وهم يتلون أسفارهم، يتعبَّدون بها.[(٣)] ثم مع بروز ظاهرة الصحوة الإسلامية، وإظهار الإسلام على

(١) انظر: حسن حنفي. «الغرب والبحث عن عدو». - ص: ٢٣٨ - ٢٥١.
في: الإسلام والغرب: صراع في زمن العولمة. - تأليف مجموعة من كتَّاب العربي. - الكويت: مجلة العربي، ٢٠٠٢م. - (سلسلة كتاب العربي: ٤٩).

(٢) انظر: جيل كيبل. ثأر الله: الحركات الأصولية المعاصرة في الديانات الثلاث. - ط ٢/ ترجمة نصير مروَّة. - ليماسول (قبرص): دار قرطبة، ١٩٩٨م. - ٢٢٢ ص.

(٣) انظر في نظرة الآخر إلى مفهوم الصحوة الإسلامية: دليب هيرو. الأصولية =

السطح، بشكل أقوى مما كان عليه من قبل، زاد الشدُّ قوَّةً.[١] ذلك أن الإسلام جادٌّ في عزَّة المسلمين، وبُعدهم عن الهوان والذلَّة والصغار. وهذا يعني امتدادَ المدِّ الإسلامي في أرض الله الواسعة، وحلوله بديلاً لأفكار وضعيَّة وتنظيمات وقتية. ومن هنا يزداد الشدُّ.

وليس الشدُّ أصلاً من أصول العلاقة بين الإسلام والأديان الأخرى، وبوضوح أكثر بين الإسلام والنصرانية واليهودية، ولكن الشدَّ يبدأ عندما يرفض أرباب الأديان الأخرى الاعتراف بالإسلام، نظامًا للحياة، يكفُل عيش الجميع، تحت حماية الأحكام الشرعية، التي تعطي كل ذي حقٍّ حقَّه.[٢] ومع هذا فإن هذا الرفض ليس مسوِّغًا للُّجوء إلى الشدِّ في العلاقة المفضية إلى التعايُش. وقد حصل هذا التعايُش، القائم على التسامُح، في الأزمنة الأولى للإسلام، إلى الدرجة التي جعلت بعضًا من غير المسلمين

=

الإسلامية في العصر الحديث/ ترجمة عبدالحميد فهمي الجمال. – القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧م. – ٥١٢ ص. – (سلسلة تاريخ المصريين: ١٠٧).

(١) انظر في العلاقات بين اليهودية والنصرانية والإسلام: خلف محمَّد الحسيني. اليهودية والمسيحية والإسلام. – القاهرة: المؤسسة المصرية العامَّة للتأليف والطباعة والنشر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٤هـ. – ٢٢١ص.

(٢) انظر: عاطف علبي. التسامُح والثقافات. – التسامُح. – ع ٥ (شتاء ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م). – ص ٢٩٩ – ٣١٤.

يسيئون إلى هذا التسامُح من المسلمين، فيسعون إلى تحقيق أغراض ذاتيَّة، لا تتَّفق مع التوجُّه العام في المجتمع المسلم.(١)

وتاريخ الدولة العباسية حافل بممارسات أولئك الذين كانوا مقرَّبين من الولاة والأمراء والخلفاء، ولكنها لم تكن ممارساتٍ عامَّة، بل إن بقيَّة الآخرين كانوا يتمتَّعون بحقوقهم التي كفلها لهم الإسلام، رغم ميل بعض الأشخاص من المسلمين إلى عدم الرضا التَّام بهذه الحقوق تعطى للغير. ولكن الأمر ليس متروكًا للأشخاص، بل هو شرع مفروض على الجميع، يزداد إيمان الشخص ما ازداد تطبيقًا له، ولو جاءت بعض أحكامه على غير ما يهواه بعض الأفراد.(٢)

وتزداد الحساسية والشدُّ هذه الأيام بين المسلمين وغيرهم مع وضوح الرؤية أكثر، في فلسطين المحتلَّة، وفي أصقاع أخرى من العالم، ومن ذلك أرض البلقان، التي قادت أحداثها الدامية كثيرًا من المفكِّرين إلى الإيمان التامِّ بأن المسألة قضيَّة وجود الإسلام على الأرض الأوروبية، ورفض الأوروبيين، البروتستانت والأرثودوكس والكاثوليك، على حدٍّ سواء، هذا الوجود. وقد

(١) انظر: شوقي أبو خليل. التسامُح في الإسلام: المبدأ والتطبيق. - بيروت: دار الفكر المعاصر، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م. - ١٤٤ ص. - (سلسلة هذا هو الإسلام: ٣).

(٢) انظر في مناقشة هذه الفكرة من تسامُح الخلفاء العبَّاسيين مع غير المسلمين: علي بن إبراهيم الحمد النملة. ظاهرة النقل والترجمة في الحضارة الإسلامية. - ط ٣. - الرياض: المؤلف، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م. - ٢٨٢ ص.

خفَّت مع هذه الأحداث النظراتُ إلى الأسباب العرقية، أو النزاع على الأرض من أجل الأرض.

ليت المسلمين يوفَّقون إلى تقديم الإسلام للغير على أنه ليس خطرًا يهدِّد وجودهم، بل إنه نعمة تحفظ للإنسان كرامته، وتحترم وجوده، وتعينه على حياة هانئة مطمئنَّة.(1) وهذا يمكن أن يتمَّ عندما يفهم المسلمون أنفسُهم الإسلامَ على حقيقته، تطبيقًا على الواقع، وليس مجرَّد أفكار واجتهادات، في التحليل والتفسير لنصوص الكتاب والسُّنَّة. عندها سيتمكَّن المسلمون من إزالة الحساسية والشدِّ، مع الاعتراف التَّامِّ أن الآخر لن يخضعَ جميعًا لحكم الإسلام ونظامه في الحياة؛ ذلك أن الصراع بين الحقِّ والباطل مستمرٌّ،(2) وأن الآخر لن يرضى عن المسلمين حتى يدخل المسلمون في ملَّتهم بنصِّ القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿ وَلَن

---

(1) انظر العددين الخاصين بالتسامح ومنابع اللاتسامح من مجلَّة: **قضايا إسلامية معاصرة**. - ع ٢٨ - ٢٩ (صيف وخريف ٢٠٠٤ - ١٤٢٥هـ)، التي تصدر عن مركز دراسات فلسفة الدين ببغداد. وانظر، كذلك: طروحات مجلَّة التسامح، التي تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، في عُمان. مع التوكيد على التفريق بين التسامح المطلوب والتساهل الذي قد يصل إلى حدِّ التسيُّب، بما في ذلك ليُّ أعناق النصوص.

(2) انظر: عادل محمد صالح أبو العلا. **الصراع بين الحقِّ والباطل كما جاء في سورة الأعراف**. - الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م. - ٧٩٠ ص. وانظر أيضًا: إبراهيم بن محمد أبو عباة. **الصراع بين الحقِّ والباطل**. - الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٢هـ/١٩٩١م. - ٨٥ ص.

تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (البقرة ١٢٠).

إلا أن حدَّة الحساسية وقوَّة الشدِّ سوف تخفُّ كثيرًا، عندما يفهم الآخر الإسلامَ على حقيقته، ولا يبقى حينئذ إلا المعاندون المكابرون المدافعون عن مصالحَ شخصية، لفُّوها بلفافة الدين، وهؤلاء موجودون في كل زمان ومكان. وتلك مسؤولية من مسؤوليات المسلمين اليوم عمومًا، والدُّعاة منهم بخاصة، في التعامُل مع الآخر بهذا المقتضى.

الوقفة التاسعة: التناهي

لقد لعن الله تعالى اليهود، فقد كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ﴿ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (المائدة ٠٧٩). ويُفهم من هذا أن أيَّ أمَّة لا تتناهي عن المنكرات، التي تتعاطاها، هي حقيقةٌ بالطرد والإبعاد من رحمة الله. وضمنًا يُفهم من هذا، أيضًا، أن الأمم التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر حَرِيَّةٌ بأن تنال رحمة الله تعالى، وعونه وتوفيقه. وكثير من الأمم تتَّفق على مبادئ ومُثُل وقيَم، تتمثَّل في جملة من السلوكيات الحسنة (الإيجابية)، وسلوكيات أخرى غير حسنة (سيئة أو سلبية). فالسلوكيات الحسنة هي الوضع الذي يتذاكر الناس فيها، ويشدِّدون عليها، ويدعو بعضهم بعضًا إلى التمسُّك بها. وبالتالي يتعارُف المجتمع على سلوكيات مشينة، ممارَسة، ولكنها غير مقبولة وتتعرَّض للمقاومة المنظَّمة، أو التطوُّعية، من أبناء المجتمع أنفسهم، على اختلاف في الأساليب. والأصل عندنا، نحن المسلمين، أن كلَّ واحد منَّا مطالب بالإسهام في بناء المجتمع، وحمايته من المنكرات الفكرية والسلوكية، التي قد تحصل من البشر، مهما وصلوا إلى قدر عالٍ من الوعي والثقافة والحضارة.

بل إنه قد يقال: إنه كلَّما زاد هامش الوعي والحضارة والثقافة، زاد هامش الوقوع في أخطاء في الممارسة، نظرًا إلى أن الوعي اليوم والثقافة ترتبطان بمقوِّمات، ليست بالضرورة مستمدَّة

من الأصول التي قامت عليها الأمَّة، بل إنها غالبًا مستمدَّة من ثقافات أخرى، لها هي مقوِّماتها التي اختارتها لنفسها، وارتضت لنفسها أيضًا أن تمارسها. وسعت إلى تعميمها على الآخر، في خضم الدعوة المحمومة إلى العولمة، التي لا تنسى السعي إلى عولمة الفكر، أو عولمة الثقافة.[1]

وهذا يعني طغيان فكر القوي على الضعيف، وثقافة الأعلى على الأدنى، كما هو مضمون محاضرة الدكتور **فهد العرابي الحارثي** التي ألقاها في **مكتبة الملك عبدالعزيز العامَّة** في ١٤١٩/٨/١٧هـ الموافق ١٩٩٨/١٢/٦م، بعنوان "موقعنا في الكونية الإعلامية الجديدة: العولمة والفضائيات العربية."[2] ونحن، من منطلق مقوِّماتنا الثقافية، ومهما ضعُفنا اليوم، فإننا لا نقبل سيطرة ثقافة أخرى على حياتنا، مهما كانت هذه الثقافة قويَّة. ولكننا مع هذه لا نمنع من الأخذ عن هذه الثقافة، ونتمثَّل شيئًا من مقوِّماتها، التي تتَّفق ونظرتنا نحن لهذه المقوِّمات. وبالتالي فإننا نلحظ أن هناك ممارسات في تلك الثقافة لا تتَّفق مع منطلقاتنا، فنتناهى عنها، ونسعى إلى توصيل هذا التناهي إلى معتنقي تلك الثقافة، مهما

---

(١) انظر: برهان غليون وسمير أمين. ثقافة العولمة وعولمة الثقافة. - مرجع سابق. - ٢٤٠ ص.

(٢) فهد العرابي الحارثي. موقعنا في الكونية الإعلامية الجديدة. - مرجع سابق. - ٦٦ ص.

وصل بنا الضعف الآني المؤقّت.[1] ولن نوصِّل هذا إلى الآخر حتى نتفاهم نحن على الأسلوب، لا على المبدأ، ونتّفق على ضرورة التناهي في المجتمع. وهذا، بعد التفاهم والاتّفاق، يتمُّ على أنه من فرض الكفاية، عندما يعود الأمر إلى تنظيم هذا الأداء، وقيام مؤسَّسة، أو مؤسَّسات تقوم به.

ولعلَّ الذين ينحون هذا المنحى ليسوا بالضرورة على اقتناع من هذا الطرح، ذلك أن الأمم، في ماضيها وحاضرها ومستقبلها، لم تستغنِ، ولا تستغني، ولن تستغنيَ، عن نمط من أنماط الدعوة إلى التغيير، مع الحفاظ على مقوِّمات البناء الاجتماعي، التي اتَّفق الناس عليها، وتلقَّوها من منطلقاتهم الثقافية، القائمة، دائمًا، على الدين، مهما اختلفت الوسائل والطُّرق. فكلُّ ثقافة تأمر بمعروفها، وتنهى عن منكرها، بطريقتها التي ترتضيها.

ولا يمكن أن يقومَ مجتمع صالح دون أن تقوم فيه أجهزة الحسبة، التي يأتي منها جهاز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وعندما فَقَد هذا الجهاز الرسمي، في بعض المجتمعات، قدرته على التأثير اضطرَّ المجتمع نفسه إلى إقامته، بالمتطوِّعين من أبنائه، الذين لا يزاحمون أجهزة الحسبة الأخرى، بل يعاضدونها ويتعاونون معها. وقام هذا الأسلوب في أكثر المجتمعات وعيًا وإدراكًا

(١) انظر: مصطفى النشّار. ضدُّ العولمة. – ط ٢. – القاهرة: دار قُباء، ٢٠٠١م. – ٣٣٢ ص.

وتحضُّرًا. ذلك أنه كلَّما زاد الإدراك والتحضُّر والوعي، تفتَّحت مجالات جديدة للمنكر: لأن الحضارة قد اقترنت بالتفتُّح على الآخر، والأخذ منه.

ولا يؤخذ من الآخر، دائمًا، كلُّ ما هو إيجابي، بل قد ينسلُّ المنكر، الذي يحتاج إلى من يقف متصدِّيًا له، من خلال مقاييسَ متَّفقٍ عليها، وليس من خلال نظراتٍ شخصيةٍ، تقوم على المزاج أو النظرة القاصرة، أو حتى على التعصُّب ضدَّ كل ما هو جديد، أو قادم من الآخر. وأخيرًا، فإن الذي يتصدَّى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنما يخدم بهذا العمل غيره من أبناء مجتمعه. وقليلاً ما يستفيد منها القائم بها فائدةً عاجلة، ولكنه يحتسب لذلك كلِّه الأجرَ العظيم عند الله تعالى.

وكون هذا الأسلوب غير موجود، تنظيمًا وعلى مستوىً رسمي، في المجتمعات القويَّة المتعالية، لا يعني أنها ليست بحاجة إليها، وأنها، كما زعم بعض المتابعين، وصلت إلى قدر من الوعي، بحيث لا تحتاج إلى مؤسَّسة أو جهاز أو أي شكل من أشكال تنظيم التناهي عن المنكرات. والواقع أن تلك المجتمعات عادت، أخيرًا، إلى شكل من أشكال التنظيم للتناهي عن المنكرات، التي فشت فيها. وعليه فإن التناهي يظلُّ ضرورة ملحَّة، لئلا تتعرَّض الأمَّة للطرد والإبعاد من رحمة الله.

وإذا تحقَّقت ضرورة التناهي عن المنكر لتحلَّ البركة، وتقرُب الأمَّة من رحمة الله تعالى، فإن التناهي عن المنكر،

وبالتالي الأمر بالمعروف، يقتضي مؤهلاتٍ ثلاثةً ضرورية، تسبق التناهي وتصحبه وتلحقه، وهي العلم، والرفق، والصبر. يقول شيخ الإسلام أحمد بن تيمية في الجزء الثامن والعشرين من **مجموع الفتاوى**: «فلا بدَّ من هذه الثلاثة: العلم والرفق، والصبر. العلم قبل الأمر والنهي، والرفق معه، والصبر بعده، وإن كان كل من الثلاثة مستصحبًا في هذه الأحوال؛ وهذا كما جاء في الأثر من بعض السلف، ورووه مرفوعًا، ذكره القاضي أبو يعلى في **المعتمد**: «لا يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر إلا من كان فقيهًا فيما يأمر به، فقيهًا فيما ينهى عنه، رفيقًا فيما يأمر به، رفيقًا فيما ينهى عنه، حليمًا فيما يأمر به، حليمًا فيما ينهى عنه».[1]

ومن المتقرِّر أن المعاصي سببُ المصائب، وأن الطاعات سبب النعم. والمعاصي لا تفرض نفسها على المجتمع، بل يقودها إليه العصاة، لعدَّة أهداف، قد لا تتحقَّق جميعها عند كل عاصٍ. فتقوم الحاجة إلى ردع العصاة بالمؤهِّلات الثلاثة المذكورة. وكلَّما ضعُف العصاة قلَّت المصائب، والعكس صحيح. والمصائب قد لا تصيب العصاةَ أنفسَهم وحدهم: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ (الأنفال ٢٥)، ولكنها ستصيب الآخرين بالبلاء، فالجميع في مركب واحد، وعليهم

---

(١) أحمد ابن تيمية. مجموع فتاوى شيخ الإسلام احمد بن تيمية. - مرجع سابق. - ٢٨: ١٣٧.

الحفاظ على هذا المركب، والأخذ على يدي أولئك الذين يخونهم التفكير، فيرغبون في الوصول إلى الغاية بأي وسيلة، حتى لو أدّى الأمر إلى غرق هذا المركب في النهاية، وأدّى بالتالي إلى هلاك جميع الراكبين، وليس أولئك الذين خانهم التفكير، فقط.

وعود إلى ابن تيمية – رحمه الله تعالى – في الجزء الثامن والعشرين من **مجموع الفتاوى**، حيث يقول: «وإذا كان الكفر والفسوق والعصيان سبب الشرّ والعدوان، فقد يذنب الرجل أو الطائفة، ويسكت آخرون عن الأمر والنهي، فيكون ذلك من ذنوبهم، فيحصل التفرُّق والاختلاف والشرّ. وهذا من أعظم الفتن والشرور، قديمًا وحديثًا؛ إذ الإنسان ظلوم جهول، والظلم والجهل أنواع، فيكون ظلم الأوَّل وجهله من نوع، وظلم كلٌ من الثاني والثالث وجهلهما من نوع آخر وآخر».[1]

والنتيجة أن من لا يملك المؤهلات الثلاثة: **العلم والرفق والصبر**، أو يجد في نفسه قصورًا في أحدها، فإنه حريٌّ به أن يبتعد عن التناهي العامّ، ويقتصر على نهي نفسه عن المنكر، وأمرها بالمعروف. ولعل هذا مفهومٌ من منطوق كلام شيخ الإسلام **ابن تيمية**، بحيث يصل المرء إلى نتيجةٍ مؤدّاها أن هذا الصنف من الأفراد، رجالاً ونساءً، غيرُ مطالب بالتناهي، والله سبحانه وتعالى

(١) أحمد ابن تيمية. **مجموع الفتاوى**. – المرجع السابق. – ٢٨: ١٤٢.

أعلم بالسرائر، ولعله تعالى يثيب الراغب في التناهي، مع عدم القدرة عليه بثواب القادر عليه.

ومن الجميل جدًّا أن يشعر جميع الناس من أبناء المجتمع المسلم بمسؤوليتهم تجاه هذا الضابط المهمّ من ضوابط المجتمع. ومع أن الحكم الشرعي لهذه الشعيرة الدينية هو من فرض الكفاية، إلا أن الجميع مطالبون بقدر من الإسهام في هذا، ليس على سبيل الفرض العين، ولكن على سبيل المسؤولية الذاتية الشخصية. ممّا يؤكّد هنا أن كلَّ مسلم يتحمَّل قدرًا من المسؤولية تجاه مجتمعه، بقدر ما أوتي من قدرات على تحمُّل المسؤولية، قد تكون قدراتٍ علميةً أو قياديةً إداريةً، أو قدرة قائمة على المنصب أو الجاه أو الثراء، أو القدرة على التأثير الإيجابي. فإن لم يكن قادرًا على التأثير الإيجابي فإنه يُسهم بالابتعاد عن هذا الأمر، لأنه، في وضعه هذا، قد يُسيء أكثرَ مما يُحسن، في الوقت الذي يعتقد فيه أنه يؤدِّي هذا القدر من المسؤولية.

ومثل هذا النوع من الناس معذور في عدم الإسهام المباشر بالتناهي، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن المفسدة المترتِّبة على قيامه بهذا تفوق المصلحة المرجوَّة منه. وعليه فإنه ليس كلُّ الناس قادرين على التصدِّي لهذا الأمر، حتَّى في أصغر الحالات داخل المنزل، مثلا، ومن الخير لهذه الفئة أن تبتعد عن التغيير.

الوقفة العاشرة: التَّهْيِئة

تمرُّ المنطقة العربية، ومن بينها البلاد الإسلامية ضمنًا، بمرحلة حسَّاسة جدًا من تاريخها. هذه المرحلة هي نتاج تراكُمات بدأت قديمًا، وليست وليدة اليوم. تناقش هذه الفكرةَ المؤلِّفةُ عَزةُ علي عزَّت في كتابها: **صورة العرب والمسلمين في العالم**.[1] هذه المرحلة ليست كلها من تدبير الآخر، على أناس يتفرَّجون، ولكنها كما يؤكِّد **مالك ابن نبي** – رحمه الله تعالى – جاءت بسبب توافر **القابلية** لدى العرب، ليمرُّوا بهذه المرحلة. وهذا أمر مهمٌّ لابد من التوكيد عليه، إذ إن التعامل مع الإنسان لا يمكن أن يتمَّ، دون أن يكون له أثر فيه. وهذا الأثر إمَّا أن يكون سلبًا أو إيجابًا.[2]

ويمكن للفكر أن ينطلق إلى أي سلوك، يعني هذا المرء أو ذاك، دون أن يكون له رأي فيه، إلا أن يكون هناك عمل ما ضد إرادة المرء، كأن يخضع لسحر يسلُب الإرادة، أو أن يُسلَّط عليه

---

(١) عَزةُ علي عزت. **صورة العرب والمسلمين في العالم**ـ القاهرة: مركز الحضارة العربية، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م. – ٢٠٤.

(٢) انظر: مقدِّمة الطبعة الفرنسية بقلم: الدكتور عبدالعزيز الخالدي، حيث ينقل عن مالك بن نبي عبارته التي أضحت نظريةً: «لكي لا نكون مستعمرين يجب أن نتخلَّص من القابلية للاستعمار». – في: مالك ابن نبي. **شروط النهضة**/ ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبدالصبور شاهين. – دمشق: دار الفكر، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م. – ص ٩.

مخدِّر يسلُبه إرادته، كذلك، كما يفعل الحكماء/الأطباء الجرَّاحون مع مرضاهم، وكما يفعل الآسرون مع أسراهم المستعصين عليهم.

وأحسب أن **القابلية** قد تولَّدت لدى العرب والمسلمين، عندما أقبلتْ عليهم جحافل المستعمِرين، فقد كان العرب والمسلمون في حال من الضعف، جعل الاحتلال مسألةً مطلوبة، دعا إليها بعض العرب أنفسهم، لإخراجهم مما كانوا عليه من الضعف والهوان، حتى لقد بات المتحدِّثون عن النهضة العربية يؤرِّخون لها بالحملة الفرنسية على مصر، كما يؤرِّخ آخرون من القوميين لهذه النهضة بإلغاء الخلافة العثمانية الإسلامية في الآستانة/إسطنبول، على يد **مصطفى كمال أتاتورك**. لكن هذه **القابلية** لم تكن متوافرة إبَّان الحملات الصليبية التسع، التي امتدَّت قرابة مئتي سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٥م إلى ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م، إلا أنها لم توفَّق، بسبب ضعف القابلية أو عدمها، فكانت ممارساتٌ استفاد الصليبيون الغزاة من المسلمين المغزيِّين منها، وتعلَّموا منهم بدلاً من أن يُعلِّموهم.(١)

وفي هذا يقول القسِّيس **جورج ليونارد كاري**، فيما نقلته عنه مجلَّة **الاجتهاد**: «أعي تمام الوعي أن صراعات العصور الوسطى بين

(١) انظر: أمين معلوف. الحروب الصليبية كما رآها العرب/ ترجمة عفيف دمشقية. – الجزائر: المؤسَّسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، ٢٠٠١م. – ٣٥٢ ص.

الإسلام والمسيحية تلقي بظلالها القاتمة على هذه القضية. ولا يشعر أي مسيحي في الوقت الحاضر بالرضا عن الطريقة التي اتبعها أسلافنا في حسم الصراعات في الماضي. فقد تسبَّب الصليبيون في إحداث آثار جسيمة في علاقات المسيحيين ببعضهم وعلاقاتهم بالمسلمين، فهناك الكثير لنعتذر عنه».[١]

وإذا عُدنا إلى واقعنا اليوم، ودون اللجوء إلى جلد الذات، نجد أنه من المحتَّم أن نتحمَّل جزءً غيرَ يسير مما يقال عنَّا، سواء في ممارستنا الفردية أو العامّة، التي عادت علينا وبالاً، ولم تخدمنا، وإن كانت محسوبةً على أصحابها، إلا أن بعض هؤلاء الأصحاب لا يمثّلون أنفسهم، ذلك أنهم يخضعون، ربَّما دون شعور منهم، لأنْ يكونوا مُهيِّئِين لما يمكن أن يحدث لهم ولمنطقتهم، في مستقبل قريب من تاريخ التهيئة، إذ إنهم هم الذين يدْعون في النهاية إلى التدخُّل الخارجي على بلادهم وعلى منطقتهم، فيوجِدون القابليَّة لهذا التدخُّل، ربَّما مرَّة أخرى، دون شعور منهم.

ولعل هذا ما حدث للعراق الذي ستثبته الأيام القادمة، أو تنفيه،[٢] إذ هيَّأت القيادة العراقية السابقة المجال لما يحدث الآن في هذا البلد، الغني بمواطنيه، وتراثه، وثرواته الطبيعية، تحت سطح الأرض وفوقها، إلا أنه غُيِّب عن الساحة العربية والإسلامية، ثم

---

(١) جورج ليونارد كاري. تحدِّيات العلاقات بين الديانات الكبرى. - **الاجتهاد**. - ع ٣٠ (شتاء ١٤١٦هـ/١٩٩٦م). - ص ٢٠٥ - ٢١٥. والنصُّ من ص ٢٠٦.

(٢) أثبتت الأيام والأحداث أكثر مما كان متوقعًا.

الدولية، طيلة أكثر من ثلاثين عامًا، هي زمن التهيئة. وإذا صحَّ عشرة بالمئة (١٠٪) من الروايات، التي تُذكر عن الممارسات التي كانت تقوم بها القيادة العراقية السابقة، فإن العيب ليس للزمان، ولكن لمن يعيشون هذا الزمان في ذلك المكان.

هذا مشروع تنظيري يمكن أن تُقاس عليه حالاتٌ عدَّة، مرَّت على العالم كله، وليس فقط على المنطقة العربية، والإسلامية تبعًا، تشهد عليه الأحداث السابقة، من خلال استقراء التأريخ. ويمكن أن تقاس عليه حالات فردية خاصَّة، تكون فيها التهيئة حاضرة في الذاكرة، ومن خلال منظومة من الإرهاصات. ولعلَّ هذا المشروع فيما يتعلَّق بالتهيئة يخفِّف العبء على منظور الشمَّاعة، التي يبحث فيها عن متحمِّلٍ للذنب كلّه، وإن كان هذا المبحوث عنه يتحمَّل الذنبَ جُلَّهُ.

إن صورة العرب والمسلمين في العالم، على رأي السيدة **عزة علي عزت**، ستظل على هذا القدر من الغبش، ما لم يجزم العرب أنفُسُهم على تصفيتها، من خلال إعادة النظر في موقعهم من الخريطة، هذا الموقع الذي ظلَّ حسَّاسًا، وسيظل كذلك، لعوامل عديدة، ذات علاقة بالجغرافيا والبيئة والموارد والدين والتاريخ. ولعلَّ أهل هذه المنطقة يُهيِّئون، بدلاً من أن يُهيَّأوا، وهذا ممكن، وقد حصل في الزمان الذي مضى، ويمكن أن يحصل في الزمان الآتي.

الوقفة الحادية عشرة: المروق

صدر كتاب للكاتبة التونسية **آمال قرامي**، ويأتي الكتاب ليعالجَ مفهوم الردَّة، أو قضية الردَّة في الفكر الإسلامي الحديث، في صفحات مفعمة بالمعلومة الموثَّقة، والنقاش المباشر، والمصارحة في معالجة قضية الردَّة، وإن لم تخلُ المؤلِّفة من غمز أو لمز، ولكن القارئ يقرأ لمن يؤخذ من كلامه ويُردُّ.[١]

ومن الأمور التي تعرَّضت لها السيِّدة **آمال قرامي** قضيَّة إلحاد المسلم، ودواعي هذا الإلحاد، فتذكر من الدواعي لذلك تخلِّي الأسرة عن تربية الأولاد تربية دينية، وترك ذلك للدولة، من خلال نظام التربية والتعليم. وفي المقابل قد تكون هناك أسرٌ متحلِّلة، أدَّى انحلالُها وتفريطُها إلى الانسلال من الإسلام. وفي الوجه الآخر وُجِدت أسرٌ حرصتْ، حرصًا فيه قدر من الإفراط، على تنشئة الأولاد تنشئة دينية صالحة، بحيث «يمارس فيه الآباء سلطة على الأبناء، فيحاسبونهم على النوافل وكأنَّها فرائض، وعلى المكروهات وكأنَّها محرَّمات».[٢] وهذا بدوره قد يؤدِّي إلى الإلحاد، كما تذكر المؤلِّفة.

ولعلَّ هذا مما عنته المؤلِّفة في عنوان جانبي أعطته اسم الردَّة الصامتة التي هي، على حدِّ قولها، من الظواهر التي استشرت في

(١) آمال قرامي. **قضية الردَّة في الفكر الإسلامي**. – مرجع سابق. – ١١٨ ص.

(٢) آمال قرامي. **قضية الردَّة في الفكر الإسلامي**. – المرجع السابق. – ص ٥٦.

المجتمعات الحديثة، وبرزت في ضعف المبالاة، أو عدمها، بالدين، بحيث يصعب اليوم في بعض المجتمعات المسلمة، وليس في كلها، التمييز بين المسلم وغير المسلم، «إذ إنه لا يكفي أن يحمل الشخص اسمًا عربيًا، أو أن ينتمي إلى أسرة مسلمة لنجزم بأنه مسلم، فكثيرون هم أولئك الذين وجدوا أنفسهم "مسلمين" بالوراثة، أو بالتقليد الاجتماعي، أو بالعادة، فيكون إسلامهم نتيجة لذلك، كما قال رشيد رضا: إسلامًا جغرافيًا، أو لنقل هو إعلان لفظي عن الانتماء الديني».[1]

ولقد جمعني عزاء لبعض المسلمين في تونس العاصمة، فدار حوار حول الفتاوى، وطريقة صياغتها، والميل إلى الأخذ بالأحوَط لسدِّ الذرائع، فانبرى أحدهم لائمًا ذلك الشخص الذي نبَّهه على أن لحم الخنزير ومشتقاته حرام، بنصِّ القرآن الكريم. واستنكر عليه هذا التنبيه، والأمَّة تمرُّ بمحنٍ سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية، وكأنّي بهذا الشخص يمثِّل إحدى هذه المحن، إذ إن من المحن الثقافية السعي إلى تحليل ما حرَّم الله، بدواعي أن الأمَّة مشغولة بما هو أعظم من أداء الصلاة في وقتها، أو الامتناع عن أكل لحم الخنزير، أو شرب الخمر. وكأن صاحبنا هذا كان نتيجةً لأسرة متحلّلة ساعدته على الانسلال من الدين، وإن لم ينسلَّ

(١) آمال قرامي. قضية الردّة في الفكر الإسلامي. – المرجع السابق. – ص ٣٩.

تمامًا ، ولكن صاحبي الآخر الواعي نبَّهه إلى ضرورة التوقُّف عند الأمور التي وردت فيها نصوص، واضحة في تحليلها أو تحريمها.

لقد مرق، و يمرُق، جمعٌ من الناس من الدين لأسباب متعدِّدة، لها صلة بالتربية والتوجيه، ولها صلة بالقدوة، ولها صلة، كذلك، بالتشدُّد، ولن يشادَّ الدين أحدٌ إلا غلبه، وخير الأمور الوسط – دائمًا – فلا انحلال يؤدِّي إلى الانسلال، ولا إفراط يؤدِّي، كذلك، إلى الانسلال. ثم قبل ذلك، وبعده، الهداية من عند الله، والله تعالى يهدي من يشاء، ولكنه السعي إلى التوسُّط في الوصول إلى هذه الهداية، التي جعل الله للبشر مسؤوليةً فيها مباشرة، من خلال هداية الإرشاد والتوجيه، لا من خلال هداية التوفيق.

الوقفة الثانية عشرة: الغُربة

في استقراء شامل وسريع لأوضاع العالم الإسلامي، اليوم، يستشعر بعض المتشائمين حديث المصطفى ﷺ حول غربة الإسلام: «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء».[1] وهناك من يكاد يجزم بأن هذا الحديث الشريف ينطبق علينا اليوم. إلا أن هناك متفائلين آخرين، يصرُّون على أن الأمر لم يصل إلى هذا الحدِّ، ويؤكِّدون أن الإسلام بخير، والحمد لله. ولكل من الرأيين حُجَّته وبراهينه، المستقاة من واقع المسلمين. والمقياس الذي ينبغي عليه وزن حال العالم الإسلامي اليوم ينحصر، فيما يبدو، بمعيارين أساسيين:

المعيار الأول: صحَّة العقيدة وسلامتها في قلوب الناس، وعقولهم، وأذهانهم.

والمعيار الثاني: ترجمة هذه الصحَّة والسلامة إلى أفعال وأقوال، أو مدى ترجمة صحَّة العقيدة وسلامتها على الواقع قولاً وفعلاً.

ولا بدَّ من وضوح كل معيار من المعيارين، من حيث مفهومُهما، إذ إن هناك إطلاقًا متكرِّرًا لمصطلح العقيدة، لا يعني

---

(١) رواه مسلم وابن ماجه والترمذي واحمد بن حنبل. واللفظ لابن ماجه. دون «كما بدأ»، باب بدأ الإسلام غريبا. حديث رقم ٤٠٣٤. بتحقيق محمّد مصطفى الأعظمي.

دائمًا بالضرورة إحاطة الشخص المطلِق لهذا المصطلح، بما يعنيه هذا المصطلح، فقد يؤكِّد على إطلاقه، ويكرِّره أقوام في عقائدهم خلل، وفي تصوُّراتهم العقدية خلل، أو نقص على أقلِّ تقدير. فليس إطلاق المصطلح الديني الإسلامي يعني فهم هذا المصطلح.

والعقيدة اسم جامع شامل لكل ما يتعلَّق بالتوحيد، بأنواعه الثلاثة، المعروفة لدينا، في دراساتنا الأوَّلية للتوحيد: توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات. وقد أدخل بعض المتأخِّرين أنوعًا أخرى للتوحيد، كتوحيد الاتِّباع، وتوحيد الحاكمية! وفي هذا المفهوم مدلولات فرعية، تتعلَّق بالأسباب والمسبِّبات، بحيث يُنظر إلى المادَّة من حولنا، من بشر أو موارد أو مادة، على أنها أسباب أو وسائل، تتمُّ من خلالها السيطرة على المراد، سواء أكان هذا المراد رزقًا أم شفاءً، أم أيَّ نعمة من النعم.

ولابد من اتِّخاذ الأسباب المشروعة في سبيل الحصول على النعم، فالسماء لا تمطر ذهبًا ولا فضَّة. وينبغي أن يراعى في الأسباب المتَّخذة قدرتها المادِّية على أن تكون سببًا. ولذلك فإن الأموات، مثلاً، ليسوا من أصحاب القدرة على جلب النعمة، أو جلب المنفعة، أو الضرر، وعليه فإنه لا يمكن عَدُّهم من الأسباب. ومن هنا تلغى فكرة التوسُّل بالأموات، وطلب غير الممكن منهم.

وإذا ما رسخ هذا المفهوم في النفس وفَّر المسلمون كثيرًا من الاهتمام بالأموات من الأولياء والصالحين، فاقتصرت علاقتهم بهم

في الدعاء لهم، وزيارتهم، كلّما سنحت الفرصة، لا لجلب منفعة، ولا لدرء مفسدة، بل للسلام عليهم، والدعاء والاستغفار لهم. وسيوفّر هذا على المسلمين كثيرًا من الشطط والخلل في عقيدتهم، وستحسن أحوالهم.

ولو تجاوزنا الأموات إلى الأحياء، نجد أن الله تعالى يسّر خلقه لأعمال، يقومون بها، وسخّرها لهم. وفي هذه الأعمال مساس مباشر في حياة الآخرين. ولننظر إلى الطبيب، مثلاً، فقد سخّره الله ليكون سببًا في شفاء الناس، بعد أن تمكّن من السيطرة على هذا العلم، ولكنه مهما سيطر على العلم، فإنه لا يعدو أن يكون سببًا في الشفاء، إذ الشفاء من الله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝ ﴾ (الشعراء ٠٨٠). وكون الشفاء من الله تعالى لا يمنع من اتّخاذ الأسباب، مع التوكّل على الله تعالى. ومن اتّخاذ الأسباب زيارة الطبيب، وأخذ العلاج.

وينسحب على هذا قدرات أرباب العمل، وصنّاع القرار، في السيطرة على أرزاق الناس، إلى الحدّ الذي لا يُخرجهم عن كونهم أسبابًا في جلب الرزق، وليسوا هم جالبيه. ومثل هذا يقال في مسائلَ تفصيلية، يستوجبها مصطلح العقيدة. فمتى ما كانت هذه المسائل واضحة في النفوس صحّت العقيدة. على ألاّ يُفهم من هذا أن يكون الجميع علماء في هذا المجال، بل إن هناك ما يُعلم من الدين بالضرورة. وممّا ينبغي أن يعلم من الدين بالضرورة سلامة المعتقد.

والمعيار الأوَّل له علاقة بسلامة العقيدة، والمعيار الثاني ذو علاقة بالأفعال والأقوال، التي تترجم سلامة العقيدة إلى الواقع، فالعقيدة في القلب، أي أنها مفهومات راسخة في الذهن، لا تبرز بذاتها، وإنما تبرزها الممارسات، فقوَّة الإيمان وضعفه ليسا مجالا للوزن المادِّي، إلا من خلال التصرُّفات التي يقوم بها المرء، ويمكن أن يحكم عليه، من خلالها، بأنه ضعيف الإيمان، أو قوي الإيمان، هذا مع الأخذ بالاعتبار أن الإيمان يقوى ويضعف، أي يزيد، وينقص.

والممارسات على نوعين، نوع تتحدَّد العلاقة فيه مع الله تعالى مباشرة، كالعبادات التوقيفية، وبشكل واضح في مسألة الصلاة والصيام والحج. ونوع تتحدَّد فيه العلاقة مع الله تعالى من خلال التعامُل مع البشر، وهذا ينطبق على جميع أنواع التعامُل مع الناس، القريب منهم والبعيد، والصغير والكبير، والذكر والأنثى، وذلك مثل الزكاة والصدقات والأوقاف، والعلاقات الأسْرية، والتعامل الاقتصادي والتجاري، وعلاقة الراعي بالرعية، والجيرة، والسَّير، وضبط المجتمع... الخ. وهذه الممارسات، في مجملها، تعود بالنفع المباشر على البشر، وقد تعود بالضرر المباشر على الأفراد، كذلك، من حيث تعطيلُها لمصالح فردية، على حساب المصلحة العامَّة، أو الجماعية، والمصالح العامَّة مقدَّمة على المصالح الخاصة، ولذا فإن ممارستها تُعَدُّ من الطاعات، إذا ما عقدت النية على أنها عبادات.

والإساءة إلى الناس لا تقتصر على ضرر الناس في الدنيا فحسب، بل إنها تخضع لمفهوم الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة كذلك، ومن هنا تأتي الدعوة إلى إقامة الحدود، وتطبيق الأحكام: لأن في فعلها ذاتها تطبيقًا لمفهوم العبادة، ومن ثمَّ القرب من روح الإيمان. ولعل هذا من مسوِّغات الدعوة الملحَّة إلى تطبيق الشريعة، في المجتمعات الإسلامية التي لا تطبِّق فيها الشريعة، في بعض المجالات.

والذين يقولون بغُربة الإسلام اليوم يحتجُّون لذلك بأن هذا المعيار غير مطبَّق، تطبيقًا تامًا في بعض المجتمعات المسلمة، وليس فيها كلِّها. وأن الأمور في بعض المجتمعات متروكة للتطبيقات الفردية، فمن شاء أن يعبد فليعبد، ومن شاء ألاَّ يعبد فلا يعبد، بالمفهوم الذي لا يُكره الناس على الدين، ولكن بالمفهوم الذي يكفُل قيام مجتمع مسلم، سالم من كثير من المشكلات، التي تترتَّب على عدم تطبيق الشريعة في المجتمع، فلا يستطيع إنسان أن يحكمَ صيام المرء، ولا يستطيع إنسان أن يتأكَّد أن القائم لأداء الصلاة يؤدِّي الصلاة، فعلا، ولكن الإنسان يستطيع إيجاد الجو الذي يتمُّ فيه الصيام، وتقام فيه الصلاة، من خلال جملة من التشريعات، التي تعين الناس على العبادة، وكذا الحال مع المعاملات التجارية، والعلاقات الاجتماعية، وعلاقة الراعي بالرعية.

وإيجاد الجوّ المناسب للعبادات لا يأتي تلقائيًا، فإن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن. وهنا يأتي عامل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أي تأتي قوّة السلطان، مع تعدُّد وسائل هذه القوّة، وتعدُّد وسائل التطبيق. وما لم تتدخّل قوّة السلطان في تهيئة الجو، فإن الأمور تتحوَّل إلى شيء من الاجتهادات، التي تولّد شيئًا من الغلوّ في الدين، من حيث الرغبةُ في التطبيق، أو الرغبةُ عن التطبيق. وهذا ما يطلق عليه في مصطلحات اليوم التطرُّف، بجناحيه: الغلوُّ الذي يؤكّد على ضرورة تطبيق الإسلام، في مجالات الحياة كلها، والغلوُّ الذي يسعى إلى إبعاد الإسلام عن الحياة العامّة.

والسلطان يستطيع أن يوازن بين الأمرين، ويستخدم أسلوب الوسط، الذي قامت عليه الأمّة، ويدرك، بما أوتي من قدرات تخدمه، مدى القدرة على التطبيق الكامل، أو التطبيق التدريجي، والتطبيق على المنتمين للإسلام، والتطبيق على الجاليات والأقليّات غير المسلمة، في المجتمع المسلم... وهكذا. وإذا اجتمعت قوّة السلطان واقتناع مجمل الناس أمكن التطبيق الدقيق بيسر وسهولة. وأقول مجمل الناس، هنا، لأنه لا يتوقّع من الجميع الاقتناع، فالمجتمع هذا مجتمع بشري، له وعليه.

ومهما يكن من أمر فإن الحكم على غُربة الإسلام ينبغي أن يستوحي المعيارين السابقين، وإلا وقع الفرد في محذور الهلاك، الذي ورد فيه حديث المصطفى ﷺ: «من قال هلك الناس فهو

أهلَكَهُم أو أهلَكُهُم»، [1] ولمن قال بالغُربة مسوِّغاته. ولكن المقياس ليس الماديات والمرئيات المحدودة، ولكنه الاستقراء والمعايير. وسيظل الإسلام والمسلمون بخير، رغم كل الأحداث.

---

(١) رواه مسلم. وسبق تخريجه.

الفَصْلُ الْخَامِسُ

وَقَفَاتٌ
مَعَ الْمَسْلَكِيَّاتِ

الوقفة الأولى: الاستقامة

ويُقصد بها هنا، الالتزام. وعندما يُطلق مفهوم "المسلم الملتزم"، يتبادر إلى الذهن ذلك الشخص المتديِّن، الذي أكَّد على تطويع جميع أفعاله وأقواله للدِّين الإسلامي، وحرص على عدم الخروج من هذا المفهوم، مغلِّبًا النهج الذي كان عليه المصطفى ﷺ وصحابته – رضي الله تعالى عنهم –. وهذا الوصف يعني الاستقامة (الالتزام)، فيقال: شخص مستقيم (ملتزم).

والاستقامة مفهوم أكثرُ أصالة من مصطلح "الالتزام"، فقد وردت الآثار تحثُّ على الاستقامة.[1] ولا يعني هذا أن غير المستقيم (غير الملتزم) من المسلمين صار، بهذا المفهوم، من غير المسلمين! أي أن الشخص الذي لديه تفريط في بعض الأفعال، أو لديه فسق، أو تجاوزات في المخبر والمظهر، لا يعني بحال أنه شخص غير ملتزم، ولكنه الاصطلاح الذي يطغى، عادة، على مجرَّد الإطلاق اللفظي اللغوي للكلمة. ولذا نجد بعض علماء المسلمين يتحفَّظون على هذا المصطلح: **الالتزام**، ويفضلون المصطلح: **الاستقامة**، كما يتحفَّظون على مصطلح الصحوة.[2]

---

(١) انظر: باب الاستقامة. في: أبو زكريًا يحيى بن شرف النووي الدمشقي. رياض الصالحين. ط ٣/ حقَّق نصوصه، وخرَّج أحاديثه، وعلَّق عليه شعيب الأرناؤوط. – بيروت: مؤسَّسة الرسالة، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م. ص ٦١ – ٦٢.

(٢) انظر: عدنان علي رضا النحوي. الصحوة الإسلامية: إلى أين؟. – ط ٢. – الرياض: دار النحوي، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م. – ٢٤٦ ص.

والأصل في جميع المسلمين أن يكونوا مستقيمين (ملتزمين)، والأصل أن هذه الكلمة لا توحي بأكثر مما ينبغي على كل مسلم أن يفعلَه، وإن بدا عليه بعض التفريط في أمور داخلة في الفروع، وعملها يدخل في مفهوم "اللمَم"، الذي لا يُخرِج من المِلّة. وإذا اختار المرء الاستقامة (الالتزام) طريقًا ومنهجًا أصبح، بالضرورة، يمثّل القدوة؛ لأنه يحرص على عدم الخروج عن الأحكام التي تمليها عليه استقامته (التزامه). ولأنه ينبغي أن يكون قدوةً، فإن عليه أن يفهم الاستقامة (الالتزام) فهمًا واقعيًا، وأنها سارية على جميع التصرُّفات والسلوكيات، وأن ما يمكن أن يقبل من غيره، على مضضٍ، لا يقبل منه هو من باب أولى. ومن هنا يحدِّد بهذه التصرُّفات والسلوكيات الشمولية في مفهوم الاستقامة (الالتزام)، فلا يكفي للمسلم أن يلتزم في جانب، ويفرِّط في آخر.

فإذا رأى أن المظهر جانبٌ من جوانبِ الاستقامة (الالتزام)، وهو كذلك، فإن عليه أن يدرك أن الجوهر جانبٌ مهمٌّ من جوانب الاستقامة (الالتزام). وإذا رأى أنَّ العبادات التوقيفية جانبٌ مهمٌّ من جوانب الاستقامة (الالتزام)، وهي كذلك، فإن عليه أن يدرك أن بقية العبادات والمعاملات جوانبُ لا تقلُّ أهميَّةً من جوانب العبادات التوقيفية، مع الأخذ بالحسبان أن الجميع محكومٌ في تصرُّفاته وسلوكياته وعباداته ومعاملاته، بمراتب المفروض، أو الواجب والمباح، والمكروه والمحرَّم. وإذا أُخِذَت هذه المراتب في الحسبان تبيَّن أن الأهمية المذكورة هنا لا تُغفل هذه المراتب.

ومن هذه المعاملات العلاقات الزوجية والأُسْرية، وعلاقة الجوار، والعلاقات التجارية، والوظيفية، والاجتماعية، والبيئية، والتعامُل مع منجزات البلد ونظمه وقوانينه، التي تتماشى مع مفهوم الاستقامة (الالتزام)، وبالتالي تتماشى مع هدي الإسلام، ولا تناقضه، أو تعارضه. فتكون الاستقامة (الالتزام) في كل شيء، حتى في إماطة الأذى عن الطريق، التي هي مرتبة تُعدُّ أدنى مراتب الإيمان، على ما هو منصوص من حديث المصطفى ﷺ،[1] وحتى في إعطاء الطريق حقَّه، من غضِّ البصر، واحترام الإرشادات المرورية، وأماكن الوقوف وغيرها.

إن الاستقامة (الالتزام) منهج متكامل وميسور، ويبعث على السعادة وتحقيق الذات، والإسهام في بناء مجتمع مسلم ملتزم. فإذ ما تحقَّقت هذه الشمولية اتَّضحت شخصية المستقيم (الملتزم) أمام الآخرين، وكان هذا المستقيم (الملتزم) داعيةً بالقدوة، حبيبًا إلى النفس، مؤثِّرًا على الآخرين، فينال التشجيع والمباركة من هذا المجتمع، فتزداد رقعة الاستقامة (الالتزام)، ويعمُّ الخير المجتمع.

والاستقامة (الالتزام) ظاهرة دينية صحيَّة طيِّبة، زادت في ضوء الصحوة الإسلامية، التي تعيشها الأمَّة الإسلامية. وهي مظهر من مظاهر التديُّن، لها علاقة مباشرة بالمظهر وبالجوهر

(١) سبق ذكر الحديث وتخريجه برواية مسلم.

وبالتصرُّفات، أي السلوكيات.[١] وكلُّ من اختار هذا المسلك يضع نفسه موضع الاختبار من عامَّة الناس، ومن أولئك الذين لا يرحِّبون بأي مظهر من مظاهر الاستقامة (الالتزام). ذلك أن المجتمعات قد اعتادت على قياس الإسلام بالأفراد، وليس قياس الأفراد بالإسلام، فالسلوكيات غير المتوقَّعة من الملتزم تؤخذ عليه هو، من حيث كونُه فردًا من جماعة من المستقيمين (الملتزمين). ولا تلاقيَ بين الاستقامة (الالتزام) والتشدُّد، والتنطُّع، والتزمُّت، والغلو "التطرُّف" في الدين، إذ إن هذه مفهومات منفِّرة من الدين، وبالتالي فلا صلةَ لها بالاستقامة (الالتزام).[٢]

وبسبب هذا الخلط، ولأن الشابَّ، وغير الشابِّ، قد اختار الاستقامة (الالتزام) منهجًا لحياته الخاصّة والعامّة، فإنه مطالبٌ بمجموعة من السلوكيَّات الخاصّة والعامّة، قد لا تُنتظر كلُّها من غير المستقيم (الملتزم)، وإن كانت في الأصل مطلوبةً من الجميع. ومن أبرز هذه السلوكيات:

---

(١) انظر: محمد بن صالح العثيمين. الصحوة الإسلامية: ضوابط وتوجيهات/ إعداد وترتيب أبو أنس علي بن حسين أبو لوز. - الرياض: دار المجد، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م. - ٢١٦ ص.

(٢) انظر: ناصر بن عبدالكريم العقل. من قضايا الصحوة: حاجة الصحوة إلى الفقه في الدين، العلماء هم الدعاة، ظواهر وسمات يجب تجنُّبُها. - الرياض: دار المسلم، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م. - ١١٤ ص.

• الموازنة، وهي أن يلتزم «عقيدة الإسلام ومنهج الإسلام من الكتاب والسُّنَّة لتحقيق وتطبيق الموازنة التربوية لهذا الكائن البشري، وترك المناهج الأرضية التربوية في ذلك».[١]

• التعقُّل، والحكمة، وسعة الأفُق، والثقافة الشرعية والعامَّة، ويكون ميَّالاً للموضوعية مع الابتعاد عن العواطف، والتشنُّج في النظر إلى القضايا التي تعصف بالمجتمع الصغير، والمجتمع المسلم الكبير.[٢]

• السماحة والبشاشة، وبُعد النظر، والبعد عن التقطيب، ونبذ الشعور، دائمًا، بأنه محاربٌ أو متحدّىً، أو أنه يعيش في مجتمع غريب، وأنه، وحده، هو الذي يحمل هموم الأمَّة، مع ما تلقاه الأمَّة، اليوم، من ويلاتٍ، تعاني منها.

• الهدوء، والوقار، والصبر، والرفق، والتحمُّل، والعلم، والفقه في العلم، بحيث لا يخوض في مسألة علمية إلا وهو يفقه ما يخوض فيه.

• الحفاظ على المال العامّ، والنظام السائد، الذي لا يتعارض مع أحكام الشرع، كأنظمة السير، من حيث الوقوفُ والسيرُ، والالتزامُ بالسرعة، واحترامُ الآخرين، وإعطاءِ الطريقِ حقَّه.

---

(١) عجيل النشمي. صحوة التديُّن والواقع المعاصر. – ط ٢. – الإمارات العربية المتَّحدة: جمعية الإصلاح والتوجيه الاجتماعي. د. ت. – ص ٣٩.

(٢) انظر: يوسف القرضاوي. ثقافة الداعية. – ط ٨. – القاهرة: مكتبة وهبة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م. – ١٢٨.

• حسن الظن بالآخرين، وحسن النية، وعدم القفز إلى النتائج، أو الدخول في المقاصد، بل عليه بالظاهر، والله وحده هو العالم بالنيَّات.

• إعطاء الأهلِ حقوقَهم كاملةً، سواء أكانوا والديه، أم زوجَه وأبناءه، بحيث لا يقصِّرُ مع أحد منهم، بحُجَّة الدعوة، أو الانشغال بها، وبهموم المسلمين، فلا بُدَّ من إدراك المستقيم (الملتزم) أن من الانشغال بالدعوة وبهموم المسلمين الانشغال بالأهل بإعطائهم حقوقَهم. ومثل هذا يسري على الأقارب والجيران، فلا يهجر أقاربه ولا جيرانه، ويَعُدُّ هذا من الدعوة، التي قد تثنيهم عن سلوكيات لا يرغبُ هو فيها.

• الحفاظ على نظافة البلد، الذي يعيش فيه، النظافة الحسية والمعنوية، سواء أكانت بلده، أم أنه ضيف على أهلها، إلى حين، وذلك في حدود ما يستطيعه من إبراز مفهوم القدوة، فلا يرمي بالشارع ما لا يُرمى، ولا يسعى إلى الوصول إلى نظرة متشائمة، من حيث النظافةُ العامّة، بل يُسهم فيها ويحرص عليها، وإن منظر المستقيم (الملتزم) وهو يزيل الأذى عن الطريق ليعبِّر عن القدوة، التي يبحث عنها الناس.

• الالتزام في مدرسته، أو جامعته، أو عمله الخاصّ، أو العامّ، من حيث أداءُ الواجبات، والحضورُ في الموعد المحدَّد، والانصرافُ كذلك، والمبادرةُ والاقتراح والتفاني، والجدُّ والاجتهاد.

• المحافظة على المظهر العام، من حيث الشكلُ واللباس، فكما هو مطالبٌ بإعفاء لحيته، على الوجه الذي جاء به الشرع، وعدم الإسبال في لباسه، على الوجه الذي جاء به الشرع، كذلك، فإنه مطالب بالاعتدال في كلٍّ ذلك، بما في ذلك النظافة في الجسم والملبس والمركب والمسكن. وهذا جزء مما يطالب به المستقيم (الملتزم). والمبالغة في ذلك كلّه قد تُدخل صاحبَها في مفهوم الشهرة.

الوقفة الثانية: التدرُّج

حول مسألة التدرُّج في الالتزام بالدِّين، والاستقامة عليه، يُثلج الصدرَ ثلاثةُ أخبار، نُشرت في يوم واحد، في صحفنا السعودية والعربية. احدها يحكي قصَّة ممثِّلة هجرت التمثيل، والتزمت بدينها، وبدأت تظهر برؤىً حول مجتمع الفنَّانات، لم تيأس من تركهن للفنِّ واستقامتهن على الدين، إذ تقول **سهير البابلي** في ملحق الرسالة لجريدة **المدينة المنورة** يوم الاثنين ١٤٢١/١٠/٦هـ: «لا تسخروا من الفنَّانات، الآن، فعسى أن يكنَّ أشهر داعيات الأرض. ونحتسب إلى الله تعالى ممَّن يتعمَّدون إعادة أفلامها ومسرحياتها. وهي تسعى إلى إزالة انطباع غير موضوعي حول بيئة الفن والفنانين والفنانات». ولعلها بهذا تشير إلى نماذج من الممثِّلات والمغنِّيات، تركن الفن، وعدن إلى الوظيفة الأولى للمرأة.[1] واللقاء جدير بالقراءة، فهو متفائل جدًا، وهذه العائدة إلى الله تعالى متفائلة جدًا.

والخبر الثاني لمغنيَة مطربة معتزلة اسمها: **منى عبد الغني**، أوردته مجلَّة **تحت العشرين** في عددها (٤٤) رمضان ١٤٢٠هـ، تقول

---

(١) من أمثال شادية، وحسن يوسف، وحسين جاسم، وشمس البارودي، ونورا، وعبير صبري، وعفاف شعيب، وهناء ثروت، وهالة فؤاد، وسوزان عطية، ومنى عبدالغني، وسوزي مظهر، وياسمين الخيَّام، وميار الببلاوي، وغيرهن من الإناث والذكور، من مصر ومن غيرها.

فيه: إنها ترفض الآن العودة إلى الغناء والتمثيل، وتفضِّل العودة إلى وظيفتها الأولى من التفرُّغ لأولادها، وبيتها، وحياتها العائلية، ودراسة ما تحتاج إليه من علوم إسلامية. وفي الحديث ما ينبئ عن الاستقرار.

والخبر الثالث جاء، عرَضًا، في صحيفة محلية عن اعتزال أحد المغنِّين من منطقة الخليج العربية، ورغبته في عدم إذاعة أغانيه في الإذاعات والتلفزيونات، وغيرها من وسائل النشر أو الإذاعة.

وسبق التطرُّق إلى هذا الموضوع، وكتبتُ عنه كتابات نشر بعضها، واعتُذر عن نشر الآخر؛ لأنه قد وقع في يد من لا يرغب في طرق هذا الموضوع.[1] وعلى أي حال، هل يمكن أن يكون هناك أسلوب لتحقيق رغبة هؤلاء الفنَّانين والمطربين، في عدم إذاعة أعمالهم، عندما يرغبون عن إذاعتها؟ دون النظر إلى السبب في الطلب؟ هل الملكية الفكرية، وما لها من حقوق، تستطيع أن تمتدَّ موادُّها إلى هذا الصنف من الأشخاص، الذين يُقلعون عن عملٍ من الأعمال، ويرغبون في عدم إلصاقهم به، فتحقَّق رغبتهم إرضاء لغرض أوردوه من ذلك؟ أم أننا سنتبنَّى نظرية زايمون في أن ما ينشر

---

(١) انظر: عندما يموت الفنان. - ص ٧٥ - ٨٠.

في: علي بن إبراهيم النملة. تأمُّلات في طريق الدعوة. - الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م. - ٢٥٠ ص. وقد أعيد نشرُها في: علي بن إبراهيم الحمد النملة. وبشِّر الصابرين: كلمات في رجالٍ تركوا اثرًا. - ط ٢. - الرياض: المؤلف، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م. - ص ٤١ - ٤٩.

يُعدُّ معرفةً عامة، ليس لصاحبها حقٌّ في منعها. وإن بقيت له حقوق التأليف أو النشر؟ وإذا كان الإنتاج الفني مصدر متعة لبعض الناس، فهل يمكن أن يكون متعةً، وعذابًا في الوقت نفسه؟[1]

إن الطالبين للأغاني التي تُذاع لأناس هجروا الغناء، وتابوا إلى الله، يدركون أن هذا الشخص الذي يغنِّي حين ترك الغناء، لم يتركه، ويترك الأضواء والشهرة والمال والسفر والمتعة، وما إلى ذلك، إلاَّ لأنه قد أقتنع بشيء خلاف ذلك. وهو، أو هي، يرغب في الاستمرار في هذه القناعة، التي هو فيها، دون منغِّصات.

وعلى أي حال، فإن سهير البابلي قد أطلقت رؤية طيِّبة، متفائلة عن إمكانية عودة أكبر عدد من الفنانين والفنانات إلى الاستقامة على الدين. وهذا يعني أن الفنَّانين والفنَّانات ليسوا جميعًا غيرَ مستقيمين على الدِّين، ولكنه يمكن أن يقال عنها إنها استقامة ناقصة، والطمع في الاستقامة القريبة من التمام، ليكونوا جميعًا قدوةً لغيرهم، ودافعًا للآخرين بأن حياة اللهو والعبث لا تصنع للأمَّة رجالاً، ولا نساءً.

ومن المهمٌ التوكيد، هنا، على أن الاستقامة ليست حكرًا على فئة بعينها، بحيث يوصم مَن يقوم ببعض الأعمال المنافية لهذا المفهوم للاستقامة بأنهم غير مستقيمين على الإطلاق، الذي قد يفضي إلى إخراج بعض الأشخاص المعيَّنين بأسمائهم من الملَّة. وهذا مزلق خطر.

---

(١) انظر: صالح بن عبدالرحمن الحصيِّن. قضايا بلا حدود. – مرجع سابق. – ١٤٥ ص.

التدين:

ونُشرَ موضوع حول التديُّن على دفعات، وهو استطلاع لآراء جملة من الفتيات استقمن على الدين، بعد رحلة مع القلق، فكانت آراؤهن متفاوتةً حول مسألة الاستقامة في الدين، مما أظهر فكرة "التقسيط في التديُّن". وهو عنوان سطحي يُراد منه الإثارة، وجلب المتلقّي. والمراد منه هو التدرُّج في الاستقامة على الدين، مع تبييت النية في الاستقامة التامَّة، ما أمكن، ولكن ربَّما بعد حين من الزمان. ولست أدخل هنا في نظرات شخصية، فلسفية، حول مسألة التدرُّج، مستحضرًا دعوة سيدنا **محمَّد بن عبدالله** ﷺ غير العلنية في **مكَّة المكرَّمة**، في **دار الأرقم بن أبي الأرقم** لمدة ثلاث عشرة سنة (٦١٠ – ٦٢٣م)، ومستحضرًا في الوقت نفسه مشاهدَ جميلةً جدًا من نبذ الجاهلية، نبذًا قاطعًا، والتغيُّر الجذري في حياة الصحابة – رضي الله تعالى عنهم – حالما أيقنوا ببعثة المصطفى **محمَّد بن عبدالله** ﷺ، إلى درجة الرغبة منهم في إعلان الدعوة في **مكَّة المكرَّمة**. ولكن المصطفى – عليه الصلاة والسلام – ، لأمر أراده الله تعالى، آثر التريُّث في الإعلان، حتى يحين وقته، الذي أراده الله له.[1]

---

(١) انظر: إبراهيم بن عبدالله المطلق. **التدرُّج في دعوة النبي** ﷺ. – الرياض: مركز البحوث والدراسات الإسلامية، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ١٤١٧هـ. – ١٦٧ ص. – (سلسلة الكتاب الإسلامي: ٢).

وفي العالم الإسلامي، ومنذ بروز ظاهرة العودة إلى الدين، التي تعارف الكثيرون على تسميتها بالصحوة، شواهدُ حيَّةٌ على الرجوعِ إلى الدين في المظهر، على الأقلّ، دون النظر إلى التدرُّج إلا في المخبر. وربَّما يكون هذا الرجوع المفاجئ والسريع سببًا من أسباب استعجال الشباب في وجود بيئة إسلامية خالصة. فمنهم مَن وجد في نفسه الاستعداد لهذه البيئة، وسعى إلى إيجادها هو في نفوس الآخرين، بينما هي لا تزال غير موجودة. ولعل هذا السبب هو الذي نتج عنه بعض المواقف من بعض المتديِّنين، تتنافى مع النظرة الشرعية لأساليب المعالجة ووسائلها، فكان هناك أشخاص زعموا أنهم زعماء دينيُّون، فأفتوا الناس بغير علم، وربَّما رأوا أن الغاية تبرِّر الوسيلة، دون أن يؤمنوا بذلك، لفظًا، وأن الوقت قد حان لإيجاد بيئة إسلامية خالصة، في مجتمع زعموا أنه جاهلٌ دينيًا، في عقيدته، وفي عباداته، وتعاملاته مع النفس، ومع الآخرين. فلم يكن ذلك التدرُّج المطلوب في الفهم والتعلُّم والفقه في الدين، بل كان هناك، في حالات معلومة، تجاوزٌ لأثر العلماء العاملين المعلِّمين، واستهانة بهم وبحكمتهم وبُعد نظرهم، وكانت هناك نعوتٌ لهذه الفئة من العلماء، وهذا مكمنٌ من مكامن الخلل، الذي سعت مجلَّة الأمَّة القطرية إلى التعرف عليه، قبل إن تتوقَّف عن الصدور.[1]

---

(١) انظر: يوسف القرضاوي. أين الخلل؟. – ط ٨. – القاهرة: مكتبة وهبة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م. – ٩٦ ص.

ومما ينبغي التوكيد عليه، في ضوء التطوُّرات الراهنة في بعض المجتمعات المسلمة، هو أن هذه المجتمعات قد عاشت تغييبًا عن الإسلام، لسنين طويلة، تكاد تفوق ثلاثة أرباع القرن، إن لم تزد على ذلك بقرون، بفعل الاستعمار، والنظم الأخرى، التي خضعت لها هذه المجتمعات. ولهذا التغييب أثره على الوعي الديني لدى الناس، في الوقت الذي تظهر فيه الآن رغبةٌ صادقة في العودة إلى الدين، مما أدَّى إلى وجود خلل في هذا التوجُّه، لاسيَّما أن التوجُّه الديني لا يقوم إلا على العلم والفقه بالعلم، ولذا أصبح لزامًا على كل مسلم أن يعلم أمورًا من الدين بالضرورة. أي أن هذا الدين لا يؤخذ بالعاطفة والهوى، كما سبق ذكره في وقفة سابقة.

وهذا الأثر الناتج عن التغييب يفرض النظرة، ومن ثم الأسلوب الذي يُعالج فيه موضوع الرغبة في العودة إلى الدين، ذلك أن بعض الناس ممن يرغبون في الخير للآخرين يودُّون سرعة العودة إلى بدهيات بالنسبة لهم، ولكنها ليست بالضرورة من البدهيات لدى العائدين الجُدد، بل ربَّما تكون من أصعب ما يمرُّ على هؤلاء، مع وجود رغبتهم، لكنهم بحاجة إلى وقت طويل للتطويع والتأقلُم مع الحياة الجديدة، التي كانوا مغيَّبين عنها لمدة طويلة.

ومن هذا المنطلق علينا ألا نستغرب كثيرًا إذا رأينا أن هذه المجتمعات المسلمة، التي غُيِّبت عن الإسلام، قد وصلت إلى مرحلة من الانصهار الثقافي، مع مجتمعات أخرى غير مسلمة، بالتزاوج معهم، والاحتفال بمناسباتهم، ولبس لباسهم، وأكل ما يأكلون،

حتى لو كان لحم الخنزير، وشرب ما يشربون، حتى لو كان من النبيذ والخمر، والعلاقات الاجتماعية، حتى لو كانت غير شرعية، من اختلاط، وأكثر من الاختلاط. ومن هنا وجب فهم هذا الوضع والصبر والتحمُّل والعلم في جذب هذه المجتمعات، رويدًا رويدًا، إلى الممارسات الحقَّة للإسلام، مع مراعاة أن بعض المجتمعات قد رغبت في التمسُّك بهذا الدين، ولكن الدين قد أُلحق به ما ليس به... وهكذا.

وهناك تجاربُ كثيرة، شهدها أناس لم يكونوا يقصدون الدعوة، ولكنهم وجدوا أنفسهم قادرين على الإسهام بها. تثبت هذه التجارب أن مسألة التدرُّج مسألة مهمَّة جدًا، في طريق الاستقامة على الدين لأولئك الأشخاص الذين لم يستقيموا عليه، وهم مقبلون على الاستقامة عليه، وهم من أبناء المسلمين، فما بالكم بمن تُوجَّه إليهم الدعوة من غير أبناء المسلمين.

ويُعاد طرح هذه الخاطرة ليس من أجل التنظير، أو التأطير للدعوة إلى الله: لأن مَن يطرحُها، هنا، ليس من أولئك المؤطِّرين المنظِّرين، الذين لا يزالون يضعون الرؤية التي يرونها هي الحقُّ، في دعوة الناس إلى الدين، والاستقامة عليه مخبرًا ومظهرًا. ولا بُدَّ من الظهور برؤية واضحة، يمكن أن تُتَّخذ دليلا في سبيل الدعوة إلى الله تعالى، مراعىً فيها ظروف الزمان والمكان، وظروف المدعوِّين، من حيث التوكيد على التدرُّج في الدعوة.

--- --- ---

الوقفة الثالثة: التَّحْرِيم

من القواعد الذهبية لهذا الدين، وجميع قواعده ذهبية، أن الأصل في الأشياء الإباحة. ولا يحرُم شيء على الإنسان إلا ما استُند فيه على نصٍّ، من مصادر التشريع الإسلامي: الكتاب والسنة والإجماع والقياس والاجتهاد. ولا يحرَّم شيء في هذا الدين إلا إذا كان في هذا الشيء المحرَّم ضررٌ على الفرد، أو على الجماعة. وقد يكون الشيء حلالاً من وجه، ويحرَّم من وجه آخر، وهذا الوجه الآخر هو ما فيه ضرر على الفرد، أو الجماعة، بينما الفعل نفسه مباح، بل مشروع من وجه، يكون فيه مصلحة للفرد والجماعة.

أما الواجب المفروض من الأفعال والأقوال فإنما فُرِضَ لأن فيه نفعًا للفرد، أو الجماعة، أو لكليهما. وإذا ما أُسيءَ التعامُل مع هذا الفرض أو الواجب فإن مشروعيَّته تنتفي، كأن يبالغ الفرد في أدائه، إلى درجة تؤثِّر على مصلحته أو مصلحة الجماعة. وهكذا تكون الأمور في الدين: اعتدالٌ ووسطية في كل الأشياء، مفروضها وممنوعها. وعليه، فإنه لا يحقُّ لشخص أن يُحِلَّ ما حرَّم اللهُ، ومن باب أولى أن يُحرِّم ما أحلَّ اللهُ، فهذا حقٌّ لله تعالى، ذلك أن بعض الناس قد لا يستسيغ فعلاً من أفعال البشر: لأنه عنده على خلاف المعهود أو المعتاد، فيحكم بحرمته، وإن لم يصرِّح بذلك، إذ ينظر إلى هذا الفعل على أنه منافٍ لتصوُّرات مثالية، أو ذوقية

عنده هو، وليس بالضرورة عند الجميع. والدين جاء للجميع، بغضّ النظر عن الخصوصيَّات المثالية والذوقية، والرغبات الذاتية.

ويمكن مع هذا أن يمتنع الشخص لذاته عن شيء، أحلَّه الله من الطيِّبات، فلا يأكل شيئًا، ولا يشرب شيئًا، ولا يمارس شيئًا، دون الوصول إلى الحكم بتحريمه، إذ قد لا تقبلُ النفسُ هذا النوع أو ذاك، من المأكل والمشرب والممارسة، ولكنه مطالب بعدم الاعتقاد بحرمته، لمجرد أن ذوقه الخاصّ يمُجُّه. ولا يمكن للمرء، أيًا كانت الحال، أن يعتقد بحِلِّ شيء محرَّم، ومع هذا فإن ذوقه لا يستسيغه، ولذا فهو يحتكم في الامتناع عن الإتيان به لمجرَّد أنه لا يريد الإتيان به.

أرأيت إذا قال أحدهم إنه لا يرى بأسًا في شرب الخمر، في حالات خاصَّة، ولكنه يمتنع عن شربه؛ لأنه مقتنع صحيًا، مثلاً، أنه ضارّ، ألا يكون هذا أشدَّ، عند الله تعالى، من ذلك الشخص الذي يعتقد حرمة الخمر، ولكنه يتناولها ابتلاءً أو معصية؟ وفي المقابل، يستحضر، هنا، المثل السابق ذكره في حال أحدَهم يحرِّم عليك أكلةً بحريةً، مثلا: لأنه لم يُعجَب بشكل هذا الحيوان البحري، في مقابل ذلك الشخص الذي يقول بحِلِّ هذا الحيوان، ولكنه لا يرتاح لرؤيته، أو أكله. وهذا على أيِّ حال شأنه، ولن يُجبر على تناوله، بحُجَّة أنه حلال.

وإذا كانت الأمثلة، هنا، قد اقتصرت على الأكل والشرب، فإنها تنسحب على الممارسات الأخرى، في أشكالها المباحة، فهي

تظل مباحة، ما دامت قد أُبيحت، وإن حصل فيها، من حيث أساليبُ ممارستها، شيءٌ من خلاف الواقع والمعتاد، مما قد يوحي بالإجحاف، أو تلمُّس الضرر لطرف آخر، أو أطراف أخرى، شريكة في هذه الممارسة، أو تلك. ويُترك المثالُ والتمثيلُ لفطنة القارئ!

على أنه قد تكون بعض الأشياء في أصلها مباحة، إلا أن ممارستها في زمن ما قد تجرُّ مضرَّة، وهذا يدخل في القاعدة الأخرى: "درء المفاسد مقدَّمٌ على جلب المصالح". ومن المهم جدًا التوكيد على عدم الاتّكاء على هذه القاعدة الذهبيَّة، دون العلم المسبَّق بالنصوص القائمة على مصادر التشريع الإسلامي. وفي هذا ردٌّ على بعض الذين يتشدَّقون بالقاعدة الأصولية الذهبية، ويغفلون ما يفضي إليه التحريم لما هو حلال، أو التحليل لما هو محرَّم.

الذي يظهر أن هذا الفريق، الذي يريد أن يُحِلَّ ما حرَّم الله، يقف على النقيض من ذلك الفريق، الذي يسعى إلى تحريم ما أحلَّ الله. والفريق الأول، هنا، يميل إلى التسيُّب، وفي هذا تفريط. والفريق الثاني، هنا، يميل إلى التشدُّد، وفي هذا إفراط، مهما كان الدافع، ولو كان قائمًا على حسن القصد، فالقصد، هنا، وحده ليس هو المؤشِّر الذي يُعتمد عليه، بل لابد من الصواب. وحسن القصد مبني على الإخلاص، والصواب مبني على التحرِّي والمتابعة، ومن التحري والمتابعة الاحتكام إلى النصوص.

ولا بدَّ من العودة إلى التوكيد على تحرِّي الصواب وتوافر الإخلاص، فإن العقل أيضًا، هنا، مؤخَّر على النصِّ، والنقلُ مقدَّم عليه، ذلك أن الذين يقعون في هذا المأزق، تحريم الحلال، أو تحليل المحرَّم، قد يلجأون إلى العقل المحدود، وإلى الواقع المؤقَّت، وإلى المعلومات الناقصة، في مقابل علم المشرِّع الحكيم.

العقل والنقل:

والمرجو ألاَّ يُنظر إلى هذا على أنه هجومٌ على العقل والاحتكام إلى الواقع، وهذا سوء فهم ينشأ، أبدًا، كلَّما ورد نقاش حول وضع النص الشرعي في مقابل العقل. كما أن هذا ليس هجومًا على الواقع، فمن الواقع، وعليه، يقوم العُرف، والعُرف من القواعد التي يُعتمد عليها في وضع الأحكام، والنظر إلى الحكم على الأشياء، ما دام هذا الواقع لا يخالف نصًّا صريحًا من نصوص الإسلام المعتمدة. وإذا كان هذا هو الموقف من العقل والواقع في مقابل النصوص، فإنه من باب أولى أن يكون الموقف من الذوق الذاتي أشدَّ في عدم الاحتكام إليه، لأنه ذوق ذاتي، ونعلم اختلاف الأذواق وتباينها، وأنها تحكم أصحابَها، أو يحتكم إليها أصحابُها في المباحات، ولا يصل الذوق الذاتي إلى التدخُّل في تحليل الحرام، وتحريم الحلال.

وكان الغرض من هذه الوقفة مجرَّد التوكيد على هذه الثوابت المنتمية، التي ينبغي أن تكون معلومة من الدين بالضرورة،

فلا الحرص الشديد على الشرع يفضي إلى تحريم ما أحلَّ الله تعالى، ولا الرغبة في المرونة، أو السماحة، أو العيش مع الواقع، أو التماشي مع الزمن، تفضي إلى تحليل ما حرَّم الله.

على أنه من المعلوم كذلك أن هناك حالاتٍ خاصَّة جدًّا في الحياة، يمكن أن يُتجاوز فيها في التحريم، وربَّما جرى فيها تجاوزٌ عن التحليل كذلك. وهذه الحالات الخاصّة مبنية كذلك على الاستناد إلى النصوص، والقواعد الأصولية العامّة، المبنية على الضرورات. ونحن نلتزم بما أباحه الله تعالى، وننتهي عما حرَّمه الله تعالى، من منطلق إيماننا بالله تعالى، وبحكمته تعالى، وأنه تعالى لم يحلَّ لنا إلا ما فيه منفعتُنا، ولم يحرِّم علينا إلا ما فيه مضرَّتُنا. وإذا تحقَّق هذا يمكن الدخول في الوسائل والأساليب والطرق في تحقيق ذلك، مما هو قابل للأخذ والردِّ، والاختلاف في الرأي.

الوقفة الرابعة: الصفاء

الصفاءُ في كل شيء من أجمل ما يمكن أن يعيش المرء عليه في حياته. فإذا كان الأمر كذلك، فإن الصفاء في العلاقة مع الله تعالى يقع في قمَّة هذا الجمال في الحياة، ذلك أن الله تعالى قد أمر عباده بطاعته، وطاعته – تعالى – في عبادته، وعبادته – تعالى – توقيفية.

- وكونُها توقيفيةً يعني أنها في مقدور البشر، دون مبالغة فيها أو تقصير، دون غلوٍّ أو تفريط.

- وكونُها توقيفيةً يعني أنها واضحة بعيدة عن اللبس، غير قابلة لسوء الفهم.

- وكونُها توقيفيةً يعني أنها مفهومةٌ من الناس، وليس بالضرورة كل الناس، ولكن أولئك الذين أراد الله تعالى لهم أن يتبحَّروا في العلم، ويغوصوا فيه، فيكونوا مصابيحَ مضيئة تحول دون ظلماء الاجتهادات الشخصية، التي قد تصدر عن حسن نية، وقد تصدر أحيانًا عن سوء نية.

وإذا كان الصفاء جميلا في العبادات، فإنه أكثر جمالاً في الاعتقاد، ذلك أن الصفاء في الاعتقاد يقود إلى الصفاء في ترجمة هذا الاعتقاد، وإلى طاعة الله تعالى، المُعتقَد بوجوده ووحدانيته وألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته. وإذا لم يكن الاعتقاد صافيًا لم يُفِدْ صفاءُ الطاعات، مهما اجتهد المرء في صفائها، أداءً وفهمًا.

والمعلوم أن الإنسان قد أفرط في استخدام عقله في أمور توقيفية، لم يطلب منه أن يُعمل فيها عقلَه، ومنها أمور الاعتقاد، مما جرَّه إلى الوقوع في المزالق العقدية، التي أثَّرت على علاقته بالله تعالى. ولا يكفي في هذا حسن القصد، بل لابد من سلامة العلم، والقناعة بالبحث عن الحق، ولو خالف الحقُّ ما ألِفَ المرءُ ممارسته في جانب من جوانب الاعتقاد.

وعندما أفرط الإنسان في استخدام عقله، فيما لا يستخدم فيه، ظهر في الساحة الإيمانية مجموعة من الفرق في الماضي والحاضر، وهذا مصداق لحديث المصطفى ﷺ من أن هذه الأمَّة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة،[1] وبكل وضوح يبيِّن الحديث أنها كلها في النار إلا واحدة. وهذه الفرق الاثنتان والسبعون قد فقدت، فيما يظهر، الصفاء، مما جعلها تهوي في النار، في الوقت الذي تعتقد فيه، في عمومها، أنها على الحق، وليس فقط على حق، دون أل التعريف. ولو لم تفقد الصفاء لما هوتْ في النار، مما يعني، كذلك، أن الصفاء، في النهاية، يفضي إلى الجنة.

وهذا مطلب يتطلَّع إليه كل إنسان في هذا الوجود، ولكن التطلُّع وحده لا يكفي، إن لم يكن المرء متسلِّحًا بالصفاء العقدي

(١) رواه الترمذي في كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة. حديث رقم ٢٥٦٤. ورواه أبو داوود في كتاب السنة. باب شرح السنة. حديث رقم ٣٩٨٠، والإمام أحمد في المسند في كتاب باقي مسند المكثرين. حديث رقم ٨٠٤٦.

في علاقته مع الله، التي تقرُ في القلب، أولاً، ثم يصدِّقها العمل، والعمل هو ما نسميه في الشرع بالعبادات والمعاملات. وقد يعني هذا في النهاية أن عدم الصفاء في المعتقد يؤدِّي بالضرورة إلى عدم الصفاء في ترجمة هذا المعتقد إلى عبادات ومعاملات، يراد بها رضا الله – سبحانه وتعالى – والانقياد له بالطاعة، والخلوص له من الشرك.

وإن كانت بعض الفرق، التي شطحتْ في تفكيرها، قد لاقت إعجابًا كبيرًا في عباداتها، مصداقًا لحديث المصطفى ﷺ أن المسلمين الصافين في عقيدتهم يحتقرون صلاتهم عند صلاة هؤلاء، ولكنها تظل غير صافية؛ لأنها نبعت من منطلق غير صافٍ. ومن هنا يبرز جمال الصفاء مع الله تعالى، وبالتالي الصفاء مع عباده ومع الحياة.

--- --- ---

الوقفة الخامسة: الأدعياء

كان الشيخ عبدالحميد كُشك - رحمه الله تعالى - يردِّد في غالب خطبَه لأيام الجُمع قولاً، يؤثر عنه الآن ويعرف به، مؤدَّاه: «إنني لا أخاف على الإسلام من أعدائه، ولكنني أخاف عليه من أدعيائه». وللملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن، مؤسِّس المملكة العربية السعودية - رحمه الله تعالى -، كلمةٌ واضحة في هذا السياق، حيث يقول: «ما أخشى على المسلمين إلا من المسلمين، ما أخشى من الأجانب كما أخشى من المسلمين».[1]

والحملة التي تعرَّضت لها المملكة العربية السعودية تأتي من تلك الفئة التي لم يكن الشيخ كشك يخاف منها على الإسلام، ذلك أن هذا متوقَّع منها، لاسيَّما إذا ظهر من الدول الإسلامية، وعلى رأسها المملكة العربية السعودية، ما يوحي بالاعتزاز بهذا الدين والحياة من أجله، والموت في سبيله. وأعني به الدين الذي نتمثَّله في حياتنا اليومية، دين أمَّة الوسط والاعتدال. وهو دين بعيد عن الغلوِّ والتطرُّف والإرجاف، هو الدين الذي يقوم على السماحة وسعة الأفق في الفقه والأحكام. وهو، كذلك، الدين الذي يقوم على ورثة الأنبياء من العلماء، بعد أن ختم الله تعالى الأنبياء بنبينا

---

(١) انظر: الأمير شكيب أرسلان. لماذا تأخَّر المسلمون ولماذا تقدَّم غيرهم؟./ تقديم محمَّد رشيد رضا. مراجعة خالد فاروق. - القاهرة: دار البشير، (١٩٨٥م). - ص ٦٧.

محمَّد بن عبدالله ﷺ، وبعد أن نُسخت الكتب السماوية السابقة بنزول القرآن الكريم.

ودائمًا ما يتكرَّر أن الدين يقوم على العلم، لا على العاطفة، وإن كان هناك من عاطفة فهي العاطفة في المعتقد، ممَّا يقوم على حبِّ الله تعالى وحبِّ نبيه محمَّد بن عبدالله ﷺ، وحبِّ أولياء الله الصالحين، وعلماء الأمَّة، والحبِّ في الله والبغض في الله، وسوى ذلك فإن الدين يؤخذ بالعلم. ولا يفهم منهج الوسط والاعتدال والسماحة على أنه نقاط ضعف تبرز، ويبرز الحديث عنه في فترة من فترات ضعف الأمَّة، بل هي عوامل متأصِّلة في هذا الدين في أوج قوَّته وشموخه، وهو دائمًا قويٌّ وشامخ، والضعف يعتري الدين، ظاهرًا، عندما يضعف أهلُه، نتيجة للابتعاد النسبي عنه، ونتيجة لكثرة أدعيائه الذين يؤلِّبون عليه أعداءه، ونتيجة لقلَّة العلماء، وضعف الرجوع إلى الموجود منهم، مما يوجِد في الأمَّة فئة من الجاهلين في الدين، مع علمهم بغيره، فيفتون في أمور الدين بغير علم شرعي، فيَضلُّون هم أنفسُهم، ويُضلُّون غيرَهم.

والمراد بهؤلاء الأدعياء ما عسى أن عناهم به الداعية **عبدالحميد كشك** - رحمه الله تعالى - من فئة من المنافقين الذين يَدَّعون الدين، ولكنهم يفتقرون إلى الانتماء إليه، لأنهم يظهرون خلاف ما يبطنون. هؤلاء هم الذين يسعون إلى استعداء الأعداء على الأمَّة، ويفتحون لهم، إن استطاعوا، ثغرات قد تكون أحيانًا باسم الدين. وهم، أي المنافقون، موجودون الآن، وكانوا

موجودين والقرآن الكريم ينزل على رسول الله **محمَّد بن عبدالله** ﷺ في زمن خير القرون. وهؤلاء الذين يُخاف على الإسلام منهم، لاسِيَّما أنهم غير ظاهرين، ولا يملك أحد أن يحكم على واحد بعينه بالنفاق، وإن اتَّصف بصفات المنافقين العملية.

الوقفة السادسة: القُدوة

إن من المعاني المحِّصة في الإسلام مبدأ القدوة. وهذا المبدأ يخرج أولئك المنظِّرين الذين تراهم متحمِّسين للإسلام كفكرة تُصارع الأفكار الأخرى. فتجد الواحدَ من هؤلاء المنظِّرين يدافع عن شعيرة من شعائر الدين، ولكنه قد لا يأتيها، تهاونًا، وتراه يقلِّل من شأن ممارسة باطلة ينهى عنها الإسلام، وهو قد يأتيها، تهاونًا. وهو هنا بعيد عن مبدأ القدوة، ولذا لا يكون لفكره تأثير، إلا بالقدر الذي يرغب فيه أولئك الذين يوافقونه على النظرة إلى الإسلام، على أنه فكرةٌ ضمن مجموعة من الأفكار، وهو أفضلها، بحكم أنه دينٌ ربَّاني!

القدوة مجال خصب ومؤثِّر في الدعوة إلى الله. وتُقبل من القدوة تصرُّفاته، ولو لم يدعُ مباشرة إلى الله تعالى. وتُرفض من غير القدوة تصرُّفاته، ولو دعا إلى الله ليلا ونهارًا. وكم أسلم أناسٌ بسبب من القدوة، فقط لأنهم رأوا رجلا، أو امرأة مسلمة، تمارس ما تؤمن به، وتطبِّقه على نفسها وعلى الآخرين، دون أن تصطنع، أو تتصنَّع هذه الممارسات، بل ربَّما عمدت، أو عمد الرجل، إلى إخفاء بعض الممارسات، أو بتعبير أدقّ، عدم إظهار بعض الممارسات، هربًا من الرياء. ولكن المتابعين يرون هذه القدوة، فيتأثَّرون بها.

ويرفض المسلم الغشَّ: لأنه مسلم، كما يرفض أيَّ سلوك غير أخلاقي: لأنه مسلم. ويعلنها صريحةً للآخرين أنه يرفض هذا العمل: لأنه يتنافى مع الأحكام الشرعية. وفي الوقت نفسه يقوم بالأعمال الأخلاقية، التي يتطلَّبها السلوك القويم، الذي تستقيم به الحياة. وهذه تصرُّفات المسلم العادي، إن صحَّ أن نقول عن المسلم إنه عادي، أي أن القدوة ليست مقصورةً على العلماء، والحكَّام، والحكماء، والدعاة، والأئمة، وغيرهم ممَّن يكون لهم شأن في مجال التطبيق العملي لأحكام الإسلام.

والأولاد ينظرون إلى أبيهم على أنه قدوة، وينظرون إلى أمِّهم، كذلك، على أنها قدوة. ولذا يعجز من ابتُلي بسلوكٍ يتنافى مع مقوِّمات القدوة أن يحدَّ من اتِّجاه أبنائه عن مزاولة السلوك نفسه، لأن مبدأ القدوة هنا قد انتفى، فالذي ابتُلي بالكذب، مثلا، لا يملك القوَّة في الإقناع ليصدَّ أبناءه عن الوقوع في مثل هذه الممارسة، وكذلك مسألة تعاطي التدخين من أحد الوالدين، أو كليهما، تلك العادة التي قد تقود، في سنٍّ مبكِّرة، إلى ممارسات أخرى أعظم، إذ إن التدخين هنا قد يُعدُّ البوَّابة، التي تفضي إلى ممارسات أعظم، فإن من يستسهل هذا السلوك أمام أولاده يُسهِّل عليهم أعمالا أعظمَ منه، لأنَّ تجاوزَ ما تقوم به القدوة إلى ما هو أسوأ منه أمرٌ وارد.

وإذا كانت القدوة مطلوبة من الجميع، فإنها من ذوي التأثير أكثر إلحاحًا. ومن المؤسف أن يتعوَّد الناس على قياس الإسلام

بالأشخاص، مفترضين أن الشخص الذي تبدو عليه الاستقامة (الالتزام) والمحافظة على أحكام الشرع، لا يمكن أن يزِلّ، أو يخطئ، أو يتجاوز هذه الأحكام. ونسي الناس أن ذوي التأثير بشرٌ، مثلهم مثل غيرهم من بني آدم، إلا أن علمهم يعينهم على التقليص من التجاوزات، وليس بالضرورة المناعة التامَّة عن هذه التجاوزات، فما كانت العصمة في يوم من الأيام إلا لنبي مرسل، ولا تصحُّ لغير الأنبياء، مهما كانت مكانتهم الشرعية، ولذا فإن هذه الفئة ليست حجَّةً على الإسلام، بل إن الإسلام هو الحجَّةُ على أفعالها وأقوالها، فما وافق الشرع منها قُبل، وما خالفه رُفِضَ، وأعيد على أصحابه.

ونحن في الوقت الذي نؤكّد فيه على القدوة فإننا نرفض مجرَّد القول الخالي من التطبيق، كمن يدعو إلى الصلاة مع الجماعة، ولا يصلّي معهم، أو من يدعو إلى ترك رذيلة، وهو يرتكبها. كما أننا في الوقت الذي نحتاج فيه إلى القدوة ينبغي أن نتذكّر دائمًا أن هذه القدوة التي نبحث عنها بيننا هي معرَّضة لما يتعرَّض له بنو آدم، والقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلّبها حيث يشاء، سبحانه وتعالى.[1] وفي الوقت نفسه، نؤكّد على أن

---

(١) رواه مسلم بلفظ: «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرِّفه حيث يشاء». في كتاب القدر. باب تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء. حديث رقم ٤٧٩٨. وفي لفظ: «إن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلّبها». رواه ابن ماجه في باب دعاء رسول الله ﷺ. الحديث رقم ٣٨٧٩/ بتحقيق محمّد مصطفى الأعظمي.

قدوتنا الصالحة هو ذلك النبي المرسل الذي أراد الله تعالى له الكمال البشري: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾، (الأحزاب ٢١).

الوقفة السابعة: الراحة

الـذي بـدا، حتَّـى الآن، أن مفهـوم الراحـة لا ينـزع إلى المنطلـق اللغـوي لهـذه الكلمـة الهادئـة المريحـة. إذ إ ن راحـة العـالِم بالإنجـاز العلمـي، والأديـب بمـا ينهيـه مـن عمـل أدبـي، شـعرًا كـان أم نثـرًا، والفنَّـان فيمـا يُبـدع في فنِّـه، ولـذا تجـده يمضـي وقتًـا طـويلا في مكتبته، أو مرسمه، يبحث ويدرس، ويجد المتعة الحقيقية في هـذا العمل، لاسيَّما إذا توَّج هذا كلُّه بالعلم النافع المنشور، الـذي يشفع لـه عنـد ربـه يـوم القيامـة. ولا يُسـتغرب إذا مـا سمَّـى أحـدُهم إنتاجـه العلمي، أو الأدبـي، أو الفنـي، بـالمولود الجديـد: لأنـه عنـدما ينـتج، يتـابع هـذا الإنتـاج بالرعايـة والاهتمـام، ولـيس آخـر عهـده بـه عنـدما يدفع به إلى الناشر، أو المطبعة.

وراحة الكبير في السن في أن يعمل ما يريد، فيما بقـى لـه مـن حيـاة. وليسـت راحتـه في أن يعمـل لـه أولاده مـا يريدونـه هـم لـه، إذ مقــاييس الراحــة عنــدهم تختلــف عنهــا عنــده، هــو أو هــي. ولــذا يُتركـون يرتـاحون علـى طـريقتهم، بحسـب مـا يريـدون هـم، ولـو لم تُعجب الأولادَ هـذه الطريقـة، وتتـاحُ لهـم سـبل الراحـة، كمـا يرونهـا هـم، فيـدْعون لأولادهـم بظهـر الغيـب، علـى أن هيَّـأوا لهـم الجـوَّ المناسب ليرتاحوا.

وراحة المؤمن بالعبادات والطاعات: «أقم الصلاة، أرحنا بها يا بلال».[(١)] أي بالصلاة، ويعلّق علماؤنا على هذا بأن الرسول ﷺ لم يقُل: أرحنا منها يا بلال. هذا في الوقت الذي ربَّما يبدو فيه للبعض بأن أداء الواجبات، من الفروض وغيرها، فيه راحة، إلا أن هذه الراحة لا تأتي بسبب التخلُّص من هذه الفروض، بل إنها تأتي من الشعور بالإنجاز، وهذا شعور طبيعي.

وراحة الغضبان بالوضوء، فكلَّما غضبَ المؤمنُ عمد إلى الماء، يتوضَّأ فيرتاح من الغضب، وبما أن هذا اعتقاد فإن مجرَّد الوضوء، عند الغضب، يريح من الغضب، بغضِّ النظر عمَّا إذا كان هذا الوضوء بالماء أو بالتيمُّم. وهذا يحتاج إلى رأي أئمتنا على أي حال.

وراحة العامل الجادِّ بأداء العمل، وليس بالإجازة النظاميَّة العاديَّة، أو أي إجازة أخرى، وضعها نظام الخدمة المدنية. ولذا فإنه قد يحصل المرء على الإجازة، ولكنه ليس بالضرورة مرتاحًا لها، ليس لأن عنده منغِّصات اجتماعية تتعبه، ولكنه ببعده عن العمل لا يرتاح. وربَّما عمل وقت الإجازة. ولذا تجد أن العاملين الجادِّين يحتفظون برصيد طيِّب من الإجازات، يستمتعون بجزء منها قبل التقاعُد، ويعوَّضون عن جزء منها، يصل إلى ستة أشهر، وتذهب

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الأدب، باب الصلاة في العتمة. حديث رقم ٤٣٣٣. ولفظ الحديث:. «يا بلال اقم الصلاة أرحنا بها».

بقيَّتها، إن لم يتداركوا "الاستمتاع" بها. وأضع هذه اللفظة الاستمتاع بين هلالين؛ لأنها هي المصطلح، ولكنها لا تعكس الواقع بالضرورة.

وراحة الداعية عندما يقول كلامًا وعظيًا مؤثّرًا، يرى نتائجه على المدعوِّين، على الرغم من أنه لا يطالَب بالنظر إلى النتائج، بقدر ما يهتمُّ بالأداء، ومع هذا تطمئنُّ نفسه كثيرًا، إذا ما عاش شيئًا من هذه النتائج الطيِّبة.

الراحة إذًا ليست بالاسترخاء ونبذ العمل، أي عمل، رغم أن المرء يحتاج إلى هذا النوع من الراحة. ولكن الذي يظهر أن الراحة مفهوم واسع، كلّ يطوِّعه بحسب طبعه هو، ومدى جدِّيته واهتمامه، وتفاعله مع ما يدور حوله. هذا المفهوم في هذه الدنيا التي نحن نعيش فيها، أما في الآخرة فإن الراحة لها طعم آخر، لمن أرادها الله لهم.

الوقفة الثامنة : الظنُّ

التعامُل اليومي مع الناس، بغضِّ النظر عن مستوى التعامُل وحجمه، يُكسب المتعامِلَ خبرةً واسعةً في طباع الناس، وعاداتهم في تعامُلهم مع الآخرين. وهناك من يعرف الرجال، وهناك من لا يثمِّنهم، ولا يقيم لهم وزنًا، لاسيَّما إذا كانوا في حاجته. وكثرةٌ منهم، ممَّن هم في حاجته، تجده يعمِّم سوء الظن على الجميع. وإذا تبيَّن له الحق، بعد سوء ظنه رجع، وجميل أن يرجع، ولكن بعضًا منا يَعُدُّ سوءَ الظن جزءًا من الفراسة، التي يقوِّم الناس من خلالها. وبالتالي، فإن أيَّ سلوكٍ، مهما كان ظاهرُه حسنًا، تراه يحيله إلى عمل سيئ.

ورأيتُ أناسًا يرون من الحصافة أن يحيلوا الأمور كلها إلى سوء الظن، ويحذِّرون غيرهم من أن يكونوا سُذَّجًا، كلٌّ "يلعب" عليهم، ويحذِّرون الناس من أن يكونوا كذلك حَسَني الظن. وتواجه بعضَهم ينبِّهك عن فلان وفلان، فهذا مخادع، وذاك انتهازي، والآخر ماكر، والأخير وصولي، ثم تقلِّب نظرك بين الناس، فلا تجد منهم الصادق الواثق، الناصح الغيور، فهم عند هؤلاء أصحابُ مصالح، أو كلُّهم عند أولئك أصحابُ مصائد. وأمثال هؤلاء موجودون، ولكنهم، بحمد الله، قلَّة، وكلَّما نضبت البيئة من تربتهم اجتُثُّوا من جذورهم، ذلك أن البيئة المؤمنة التي تتطلَّع إلى حياة آخرة، لا تقيم لهذه الحياة وزنًا، إلا بالقدر الذي تتهيَّأ به البيئةُ للإيمان.

وبالتالي، فإن التدافُع على هذه الدنيا يُترَك لمن تعلّقوا بها، ولم يروا للآخرة وجودًا، فهؤلاء تكثُر فيهم هذه النماذج. وعليه فإن هذه الدنيا، عندنا، لا تحتاج منا إلى هذا العناء كلّه، ولا نحتاج منها إلى هذا الصراعَ كلّه، ولا نحتاج من مقوّماتها ما يوصّلنا إلى سوء الظن في كلّ ما حولنا، ومَن حولنا. بل إنه من المريح لنا ألاّ نعطيَها أكثرَ ممّا تستحقُّ، وأن نتغاضى عن كثير من التدافُع والاندفاع المحموم نحوها، ونقابل هذا كله بتلك الابتسامة، ابتسامة الحكيم، ابتسامة المتعجِّب من بعض الممارسات لدُنيًا لا تساوي عند الله تعالى جناح بعوضة.

وهي تلك النظرة الحكيمة، وإن لم يفهمها بعض المتلقّين لها، وإن سعوا إلى تأويلها بحسن الظن الزائد، والضعف، والطيبة، وبياض القلب، وغير ذلك من السمات النفسية السلبية، التي تطلق على الحكيم المبتسم، عندما يواجه تشبُّثًا في الدنيا وإغراءاتها، بما في ذلك ما آل إليه حاله من سوء ظن بالآخرين، وسلوكيَّاتهم وتصرُّفاتهم. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾. (الحجرات ١٢).

ومع أن الظنَّ بعضَه إثم، فإن الأمر جاء باجتناب أكثره.

الوقفة التاسعة : السلق

الغِيبة مرض من هذه الأمراض التي تنخُر في جسد الأمَّة، وتأكل منه كما تأكل الأرَضة ما حولها. وهي لا تأكل من القمَّة، ولكنها تبدأ بالأسس، فتقوِّضُ الإيمان، وتحدث الخلل في عقيدة المرء، وإن كان في عبادته الجسمية والمالية والقولية مجتهدًا، أيَّما اجتهاد.

والغِيبة خلل يعتري إيمانَ المؤمن، بل هو داء يُنقصُ من الإيمان، وتُنقص منه هذه الممارسات التي يحقُّ لنا أن نسميَّها بالأمراض الاجتماعية، كما يحقُّ لنا أن نطلق عليها أمراض القلوب. ويكاد هذا المرض يستشري بين الناس، حتى لقد قال أحد العاملين في مجال من مجالات الدعوة: إن بني قومه قد استساغوا الغيبة، وأصبحت جزءًا من حياتهم اليومية، ذلك بغياب التذكير بآثار هذا المرض، على المجتمع وعلى الأمَّة. ومثل الغِيبة لا تستطيع قوَّة السلطان، مثلا، نزعها من النفوس، إن لم يتمّ إقناع الناس، بوسائل الإقناع، بأنها مرضٌ، يفكّك البناء، الذي قام على المودَّة والتراحُم.

وما يملكه السلطان، هنا، هو التوكيد على محاربة هذا المرض، والوقاية منه، ثم علاجه، إذا ما استفحل، فيوجِّه علماءَ الأمَّة ودعاتِها بأن يعملوا على إقناع الأمَّة بالإقلاع عن هذا المرض، ويُهيئ لهم الأسبابَ لهذا العمل، فيُعين على التقليص من العدوى،

والحدّ من انتشارها، ومن ثم زوالها. إذ يبدو أن الغيبة كالحسد، والحسد كالنار يأكل بعضه، إن لم يجد ما يأكله. ومثل هذا يقال مع بقيَّة الأمراض الاجتماعية، التي لا تقتصر على أصحابها المبتلين بها، ولكنها تعمُّ المجتمع بالبلاء والتصدُّع والفرقة، وتولّد فيه البغضاء والشحناء، فيشغل الناس بهذه المنغِّصات عن أن يلقوا الله تعالى، وهو عنهم راضٍ، بما يقدّمونه في حياتهم من الخير في كلّ أنواعه، وعلى قدر ما يستطيعون تقديمه، وانشغالهم بالخير والعمل الصالح يبعدهم عن متابعة أمور حقيرة على النفس والقلب، كالغيبة والنميمة والحسد، وغيرها.

والسلق، هنا، هو الغيبة، التي أضحت مرضًا مستشريًا بين الناس. يسلقون الناس بألسنةٍ حِداد، على ما جاء في كتاب الله تعالى: ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۚ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾. (الأحزاب: ١٩)، وقُرئ استقبلوكم. وإن كان الحديث في كتاب الله تعالى عن فئة غير الفئة المعنيَّة هنا، إذ إنني لا أصل إلى اتّهام كل من اغتاب الآخرين بأنهم داخلون في مفهوم هذه الآية الكريمة. والأشدُّ من هذا، والكل شديد، هو الظهور أمام الآخر بمظهر طيِّب، ثم إذا انصرف أُتبع باللسان الحادّ، الذي يضع فيه ما ليس فيه، وهذا مع الأسف الشديد شائع بين كثير من الناس هذه

الأيام. وكلما زاد نشاط المرء في أي مجال من مجالات الحياة زادت الألسنة الحادَّة، وزادت كذلك حدَّتها.

على أن ذوي الألسنة الحداد ليسوا مكلَّفين بسلق الآخرين بألسنتهم، ناهيك عن سلقهم بأياديهم، ذلك أنهم، بفعلهم هذا، يفقدون حسناتٍ كثيرة، هم أحوج الناس إليها. وكل منا محتاج إلى الحسنات، لأنها هي الباقية معه، بعد أن يغادر هذه الحياة الفانية، سواء بعد عمر طويل، أم عمر أقصر مما يتصوَّر.

ثم إن ذوي الألسنة الحداد، التي يسلقون الناس بها، هم أنفسهم ليسوا بحاجة إلى هذا السلق، أي أن سلقَهم غيرَهم بألسنتهم لا يأتي بنتيجة عملية تصلح بها أمور، أو تسوَّى بها أوضاع، بل ربَّما إذا علم بذلك المسلوقون أخذتهم العزة بالإثم، فاصرُّوا على ما يفعلون، نكايةً بأولئك السالقين. لان المسلوق، غالبًا، بألسنة حداد، يعلم عن الأمر الذي سُلقِ بسببه، أكثر مما يعلمه السالق. وهكذا يثبت أن السالق ينطلق منطلقًا نظريًا في سلقه للآخر. هذا إذا كان قصْدُ السالقِ المصلحةَ، وأرفَق بهذا السلق النيَّة الحسنة الطيبة.

والسلق لا تنفع فيه النية الطيبة، لأنه يظل سلقًا، أما إذا اقترن الحديث عن الآخر بالنية الحسنة، ومراعاة آداب الشرع في ذكر الآخرين، فإنه يخرج عن المفهوم الذي نقف معه جميعًا وهو السلق. وينال المسلوقُ من هذا كله خيرًا كثيرًا، إذ إنه منذ أن بدأ

السالقون سلقه بألسنتهم الحادَّة، يبدأ هو بتجميع رصيد من الحسنات، يأخذها من هذا وذاك، لاسيَّما إذا كان بريئًا من دواعي السلق، بل إنه يأخذ من حسنات السالقين، حتى إذا لم يبقَ من حسناتهم شيء أُخِذ من سيئاته هو، وطُرحت على السالقين.

والويلُ لمن يسلقُ الآخرين بلسانه الحادِّ، إذا كان الأمر على هذا المفهوم، وهو كذلك. ومن المريح حقًّا للفرد أن يتجنَّب سلق الناس بلسانه، ويكل أمرَهم إلى الله تعالى، ثم يستغلُّ هذه النعمة في ذكر ما يرضي الله تعالى، ثم ما يرضي الناس، فيقول خيرًا أو يصمت، ونادرًا ما يقال للصامت: لِمَ أنت صامت؟ وكثيرًا ما يقال للقائل: لِمَ قلت ما قلت؟ وهناك حكمة تقول: «الندم على السكوت خير من الندم على القول». وحكمة ثانية تقول: «من أفرط في المقال زلَّ، ومن استخفَّ بالرجال ذلَّ». وثالثة تقول: «السلامة عشرة أجزاء، تسعةٌ منها في السكوت». وما قيل لساكت: لِمَ سكتَّ؟ وكم قيل لمتكلِّم: لِمَ قلت هذا وذاك؟

السكوت:

ومنذ زمن طويل ونحن نقرأ في المدارس الابتدائية والمتوسطة الحكمة السائدة: "إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب". وغير ذلك مما له علاقة باللسان، وقبل ذلك حديث سيِّد الأولين والآخرين الذي يحث على مراقبة اللسان، ضمانًا للجنة، إذا

ضمن الإنسان ما بين لحييه، وما بين رجليه.[١] وهذه الآثار المحدودة تستدعي الدعوة إلى إجراء بحث علمي، موضوعي، عن فوائد السكوت، وأضرار كثرة الكلام: لأن الكلام لا بُدَّ منه في شتَّى المجالات، فتغيير المنكر مراتبُ ثلاثة، ثانيها التغيير باللسان، لمن يستطيع، وكلمةُ الحقِّ عند السلطان مطلوبة نُصحًا له، والساكت عن الحقِّ شيطان أخرس، فهو ليس شيطانًا فحسب، بل إنه مع ذلك أخرس. وعليه فإن السكوت نسبي.

وكثيرًا ما يردَّد القول في الأثر: «ربَّ كلمة قالت لصاحبها دعني». فالندم على السكوت خير من الندم على الكلام، ذلك أن في السكوت، كذلك، نَدَمًا، يعتري المرء في مواقف، كان يتمنَّى أنه لم يسكت فيها، ولكنه يخشى إن تكلَّم أن يكون ندمُه متكلِّمًا أشدَّ من ندمه ساكتًا. على أن هناك من يرى السكوتَ سلبيةً في الإنسان، وربَّما استثير الساكت، وطلبت منه المشاركة، أو المداخلة، في الموضوع المطروح، ثم إذا ما تولَّى الموضوعَ قال الحاضرون: ليته سكت! هذا في الوقت الذي نقرأ فيه بالتراث، عندما يتصدَّى العالِم والحكيم والوالي المجلس يتمنَّى الحاضرون ألاَّ يسكت، لأنه يسكت وقت السكوت، ويتكلَّم وقت الكلام، ويقول ما يرفع مقامه أمام الآخرين، دون تصنُّع أو افتعال.

---

(١) نصُّ الحديث: «من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة». رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، حديث رقم ٥٩٩٣.

ولعل الآثار الواردة، مما يحتاج إلى بحث مستفيض، ترجِّح كفَّةَ السلامة في السكوت على السلامة في الكلام. ويمكن أن يقاس هذا الحكم على جميع المقامات، وفي جميع المواقف، على ألاَّ يكون ذلك مدعاةً للغموض. إذ إنك تسمع، أحيانًا، من يقول: إن هذا الشخص غامض، لأنه قليل الكلام، ولكنك تسمع في الوقت نفسه عن ذاك الشخص أنه سطحي، من كثرة كلامه، بحيث يخرِف بما لا يعرِف.

ومن أجمل الآداب في ذلك، وآداب السكوت كلها جميلة، هي عدم الاسترسال في الإجابة على سؤال ينبني عليه فعل. وهذا متحقّق في الفتاوى، عندما يُسأل من تتوقَّع منه الفتوى، فيجيب بالعبارة الذهبية: **لا ادري**: لأنه لا يدري، ولا يريد أن يلفَّ ويدور حول الإجابة، ولا يحقُّ له الإجابة بالنفي: لا أدري، وهو يدري: لأن ذلك يدخل في كتمان العلم. وليت كثيرًا ممن يُفتون اليوم من المتصدِّرين للفُتيا، دون تحقُّق شروطها فيهم، ليتهم يضعون هذه الجملة الذهبية نصب أعينهم، قبل إن يتسرَّعوا في الفُتيا.

ولذلك يظل الندمُ على السكوت خيرًا من الندم على الكلام. وهذه كذلك من القواعد الذهبية، التي تنقذ المرءَ من حالات من الإحراج، هو في غنى عنها، مهما قيل في تشجيع الكلام، والإسهام في مناقشة القضايا، مما قد يدخل في مفهوم السفسطة.[١]

(١) السفسطة: يونانية وهي: الاستدلال والقياس الباطل. أو الذي يقصد به تمويه =

إن من أمسِّ الحاجات عند المسلمين، اليوم، جمعَ الكلمة، والالتقاءَ على ما التقت عليه الأمَّة من قبل، فعزَّت، وما ابتعدت عنه إلا ذلَّت وتفرَّقت، وأضحت أشتاتًا متناثرة. وجمعُ الكلمة وسيلةٌ، وليس هدفًا، وله مقوِّماته، إذ ليس المقصود بجمع الكلمة التقاء القيادات لدى المسلمين، وإقرار جمع الكلمة ثم التفرُّق بعدها، لتنفيذ هذا الإقرار أو التوصية فحسب، إذ يظنُّ البعض، أو لا يزال البعض منا يظن، أن الخطوة الأولى تنطلق من قيادات الأمَّة، وما الناس إلا تبع للقيادات في كل شيء، بحُجَّة أن الله تعالى يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن. وهذا صحيح في مجالات، لكنه قد لا يكون قابلا للتطبيق في مجالات الاعتقاد، إذ إن الاعتقاد لا يفرض بالسلطان، بل هو مما يقرُّ في النفوس عن طريق الإقناع والاقتناع.

ألا ترون أن سيِّدنا **محمَّد بن عبدالله** ﷺ قد أمضى أكثر من نصف سنوات البعثة (من ٦١٠ – ٦٢٣م) في ترسيخ المفهوم العقدي للإسلام **بمكَّة المكرَّمة**؟ وكان – عليه الصلاة والسلام – يركِّز على الإيمان، وعلى أن تقرَّ مفهومات التصديق في النفوس، كان ﷺ يركِّز على إقناع الناس القليلين من حوله بالتوحيد، وما يتطلَّبه التوحيد من مقوِّمات، فأقنع الناس مِن حوله، وأصبحوا مؤمنين، أي أنهم تخطَّوا دائرة الإسلام، بل إن منهم من دخل دائرة

=

الحقائق. والسوفسطائية: فرقة ينكرون الحسِّيات والبديهيات، وغيرها. انظر: **المنجد في اللغة والأعلام**. – ط ٣٧. – بيروت: دار المشرق. ١٩٩٨م. – ص ٣٢٧.

الإحسان، الأضيق من الدائرتين الأُخريين، دائرة الإسلام، ثم دائرة الإيمان.

الجوانب العقدية من الدين لا تتمُّ إلا بالاقتناع. وليست هذه الوقفة بصدد الخوض فيما يأتي أوَّلاً: قوة السلطان أم الإقناع والاقتناع، فهذه الناحية فلسفية، فيها من التنظير ما نحن في غنىً عنه، من خلال اللجوء إلى الحوادث التاريخية التي مرَّت بالمسلمين، طيلة المدَّة التي حملوا فيها راية الإسلام. وإن من مقوِّمات جمع الكلمة على ما يبدو الخُلُق الحسَن: «وخالق الناس بخلق حسن».[1] والمعاملة الطيبة: "عامل الناس بما تحبُّ أن يعاملوك فيه"، كما في الأثر. ومن هنا يأتي السعي الجادُّ إلى تجنُّب الأمراض الاجتماعية، التي لا تعين على جمع الكلمة، بل إنها تزيد من الفرقة والتشتيت والتفتيت.

--- --- ---

(١) رواه الإمام أحمد في كتاب مسند الأنصار. حديث رقم ٢١٠٤٧.

الوقفة العاشرة: التعلُّق

نعيش مشكلات في هذه الحياة، ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ۝ ﴾ (البلد ٤:٠٠)، ولكننا نتفاوت في النظر إلى هذه المشكلات، كبيرها وصغيرها، كما أننا نتفاوت في الطُّرُق التي نسعى من خلالها إلى حلِّ هذه المشكلات، فمنَّا من تتلبَّس فيه المشكلة، ويعيش معها، مهما تفاقمت، ومنَّا من يتعجَّل في التغلُّب عليها، فيخرج منها إلى مشكلة أعوصَ منها، وهكذا.

ومنَّا من يتروَّى في النظر إلى المشكلة، ويتروَّى، بالتالي، في الوصول إلى الحلول، وليس الحلَّ الأوحد، لهذه المشكلة. وهذا النوع الثالث هو المهمُّ في هذه الوقفة، إذ إننا مطالبون بالتعامُل مع المشكلات التي نواجهها، بروح الراضي بقضاء الله وقدره، في كل ما يمرُّ بنا في حياتنا، فنتعلَّق في أمورنا كلِّها بهذا المفهوم. ثم إننا مطالبون بالتعامل مع المشكلات التي نواجهها على أنها يمكن أن تُحلَّ، مهما كانت عويصةً، وأن حلَّها، في الجملة، يمكن أن يتمَّ عن طريقين:

الأوَّل: الرجاء من الله تعالى أن يُعين على حلِّها، والفرج منها. وفي هذا توكُّلٌ واضح على الله تعالى، وتعلُّقٌ بقدرته تعالى غير المحدودة، في إعانتنا على التعامل مع مشكلاتنا ومواجهتها.

الثاني: ومع التوكُّل على الله تعالى، نتَّخذ الأسباب المادِّية المتاحة لنا، في سبيل حلٍّ ملموسٍ للمشكلة، أيًّا كانت. وهنا لابد

من التوازن الواضح بين هذين الطريقين، فإن أحدهما لا يغني عن الآخر، إذ الاعتماد على التوكُّل، وحده، يتحوَّل إلى تواكل. كما أن الاعتماد على الحلول المادِّية يجعل التوكُّل لها وعليها، فيوكَل الإنسان لهذه الأسباب، وفي الغالب، وربَّما دائمًا، لا يصل إلى الحلول المطلوبة، التي يصل إليها من يقرن بين هذين الطريقين.

والمشكلة، هنا، أن هناك من ينزع في حلِّ المشكلات إلى الحلول، أو البدائل المادِّية فقط، متناسيًا قدرة الله تعالى في هذا كلِّه. وغالبًا ما يعتمد في حلِّ المشكلة على النظرة العلمية البحتة، التي تؤمن بأن إضافة واحد إلى واحد آخر ينتج عنها وجود اثنين (١ + ١ = ٢)، وهو ما قد يعبَّر عنه بالحلِّ الأبيض والأسود، دون مراعاة وجود مساحة مختلطة بين السواد والبياض، وكذا وجود مساحات، وليس مساحة، تتجاوز البياض من جهة، كما تتجاوز السواد من جهة، وذلك عندما تتدخَّل إرادة الله تعالى، فتقضي على كل التوقُّعات، التي خرجت بها الدراسة العلمية. وهذه من الخوارق التي يقف أمامها العلماء المادِّيون، غير المؤمنين، حيارى، بينما المؤمنُ يدرك أن إرادة الله تعالى فوق هذا بكثير.

ويصدق هذا على كلِّ المشكلات التي نمرُّ بها، سواء أكانت صغيرة على مستوى الفرد، أم كبيرة على مستوى الأمَّة. ولا يعني هذا إغفال الأسباب المادِّية المبنية على الدراسات العلمية، والمبنية على الأرقام والبيانات، واستخدام العقل في ذلك كلِّه، فلا تعارُض بين الطريقين إطلاقًا. والأهم من ذلك أن يكون التعلُّق بالله

تعالى قائمًا في الرخاء والشدَّة، في العسر واليسر، فنقوِّي علاقتنا بالله تعالى في كل شؤوننا الخاصّة والعامّة، وذلك بالطاعات المستمرَّة، التي لا تخضع للظروف، وإن زاد التعلُّق بالله تعالى عند قيام المشكلة، ولكنها زيادة قائمة على وجود الأصل فينا، وهو إيماننا المطلق بالله تعالى، وأنه القادر على تفريج الكُرب، والتنفيس في الشدائد، مهما بدت لنا عظيمةً، فالله تعالى أعظم من كل عظيم.

التعليق:

ومع التعلُّق يأتي تعليق الأمور كلّها على الله سبحانه وتعالى، وربطها جميعًا بإرادته تعالى، وأن كل شيء في هذا الكون إنما يسير تحت مشيئة الله تعالى. وهذا أمر محسومٌ عندنا في مجتمعنا هذا، ولذا نجد أن حديثنا عن المستقبل دائمًا مربوطٌ بمشيئة الله تعالى، إلى درجة أن الآخر، أي غير المسلمين، بدأوا يردِّدون معنا عبارة: **إن شاء الله**. ويبرز التعليق بمشيئة الله تعالى، ضمن بروزه في تطلُّعات أخرى. وفي النشرة الجوية، على سبيل المثال، عندما نجد مُعدِّي النشرة الجوية يتحدَّثون يوميًا عن الغد، وتوقُّعاتهم حوله، رابطين ذلك كلَّه بمشيئة الله تعالى، مع أن زملاءهم في القنوات الأخرى قد لا يلتفتون إلى هذا الجانب في حياتنا. ولا يعني هذا، بالضرورة، أنهم لا يدركون هذا التعليق.

والجميل في هذا أن هذا الأسلوب في التعليق يؤكّد الإيمان بالله تعالى، وأنه قادر تعالى على أن يسيِّر الأمرَ المرادَ على ما خُطِّط له، وهو سبحانه، في الوقت نفسه، قادر على ألا يتمَّ الأمر كذلك، لحكمة يعلمها هو، وتعود بالخير، في النهاية، على الشخص المعني بالموضوع.

صحيح أن هناك توقعاتٍ علميةً مبنيةً على دراسات وتحليلات واستنباطات واحتمالات، وما يشمل هذا كلّه من استشراف المستقبل. وأضحى هذا الأسلوب علمًا قائمًا بذاته، بعيدًا عن الأساليب التي تدَّعي علم الغيب – وما يعلم الغيب إلا الله تعالى – كالكهانة والعرافة والتنجيم، ونحوها من تلك الأساليب التي تدخل في مفهوم الخرافات، أو الشعوذة، التي لا تقوم على أصل، ولكنها تسعى إلى الخداع واللعب على الأذقان، واستغلال الضعف البشري، بوجود مشكلة أو مشكلات، واستدرار العواطف، ونحو ذلك. ومع هذا كله فإن استشراف المستقبل على ما هو عليه، من قربه من التحقيق، يظل معلّقًا بمشيئة الله تعالى، مهما كانت الثقة بالنتائج. وهنا نضع في حُسباننا أن جُهْد الإنسان، مهما يكن متقنًا، يظل محدودًا في تطلُّعاته وتوقُّعاته، مهما بذل من جهود. ولذا فالأولى لهذا الإنسان ولغيره أن يترك هامشًا، يتوقَّع فيه أنه قد لا يرى النتائج على الوجه الذي ينتظره، دون تقصير منه، أو تواكُل، أو إهمال.

وهنا نقطة لابدَّ من التوكيد عليها في مسألة التعليق، وهي أن نكون حذرين جدًا في هذا الجانب، بحيث لا نُسيء استخدام هذا المفهوم في حياتنا، فلا نطلق المشيئة لأمر يتوقَّع منه أن يحدث، ولكننا لا نريده أن يحدث، فلا نتَّخذ لذلك الأسباب. وبعض الناس إذا لم يوافقوا على تحقيق أمرٍ من الأمور المطلوبة ذكروا عبارة التعليق: **إن شاء الله**، وهم لا يقصدون ذلك.

وهذا تجاوزٌ غير متوقَّع، ممن يدرك مفهوم التعليق، إدراكًا عقديًا جازمًا. ولذا نجد طفلا بريئًا يطلب من والده شيئًا يحضره له عند عودته، فيكرِّر الأبُ العبارة: **إن شاء الله**، وهو لا يقصد ذلك، فتجد الطفل يردُّ، مباشرة، على والده بأن يطلب منه أن يقول: نعم أولا. وهنا إساءة لهذا المفهوم، قد تفقده مدلوله العقدي. ومثال هذا الطفل قد ينطبق على بعض الكبار الذين يواجَهون بالعبارة، بنبرة توحي ببُعد التحقيق للمطلوب. وكلما زاد تعليق الأمور على مشيئة الله تعالى ارتفعت احتمالية تحقيقه، ما دام معلَّقًا بإذن الله وتوفيقه.

الوقفة الحادية عشرة: الهِمَم

إذا علَت الهمَّة زادت المهمَّات. هذه قاعدة من القواعد التي نحتاج إلى أن نضعها في أذهاننا في حياتنا، بحيث تعكسُ موقفنا من وجودنا في هذه الحياة، فنحن مطالبون بأن نعمل لدنيانا كأننا نعيش أبدًا، وأن نعمل لآخرتنا كأننا نموت غدًا. وغدًا وضعت هنا من أجل القافية والوزن، وإلا فالعمل للآخرة مستمرٌّ، حتى كأننا نموت هذه اللحظة.

وما دام الفهم للحياة على هذا النسق فإنه من المهمِّ أن تعلوَ همَّة الأفراد، كل بحسب طاقته، وبالتالي فإنه من المهمِّ أن تزداد المهمَّات، وكلَّما زادت المهمَّات لدى الأفراد، وكانوا على مستوى هذه المهمَّات، من حيث تحقيقُها على الواقع، دلَّ ذلك على قدرٍ عالٍ من الجدِّية والشعور بالمسؤولية. وإذا كان يقابل هذه الجدِّية، والشعور بالمسؤولية، اعتبارُ ذلك كلِّه شكلاً من أشكال العبادة للّه تعالى، فإن الفرد منَّا لا يقدر على التقصير في المهمَّات التي تُتوقَّع منه، أو تُسند إليه، لاسِيَّما عندما يكون التنظيم بين هذه المهمَّات هو الذي يسيُّرها في حياة الأفراد، بحيث لا تتداخل الأوَّليَّات مع الثانويَّات.

والذي يلاحظه المتابع أن بعض الأفراد يقدِّمون الثانويَّات من المهمَّات على الأوَّليَّات منها، بحيث تطغى الثانويَّات على الأوَّليَّات. ولعلَّ من أسباب ذلك أن المهمَّات الثانويَّة أيسرُ من المهمَّات الأوَّليَّة.

وفي هذا تعدّ سافر لمهمّات الآخرين، التي تُعدُّ في حالهم من الأوَّليَّات، وعندئذ تختلط هذه بتلك، وتكون النتيجة هي عدم علوّ الهمم، أو ضعف هذا العلوّ، على أقلّ تقدير، مما يعني تقليص المهمَّات، مما يؤثِّر على الجدِّية والشعور بالمسؤولية.

إن هناك نماذجَ واضحةً لأفرادٍ ذوي همم عالية، ومهمَّات متعدِّدة، قد مالوا إلى المهمَّات الثانوية، فزاحموا أهلَها فيها، فكان من تبعات ذلك الإساءة إلى هذه المهمَّات، في الوقت الذي أُنفقت فيه الجهود على حساب الأوليَّات من المهمَّات. وهذا يعني أن ترتيب المهمَّات، أوّليَّةً وثانويةً، إنما هو ترتيب نسبي، بحيث تكونُ المهمَّاتُ أوَّليةً وثانويةً في آن واحد. هي أوَّلية لأصحاب الهمم العالية، في مجال هذه المهمَّات. وهي مهمَّات ثانوية لأولئك الذين لا يملكون القدرة والتأهيل، ولكنهم أقحموا أنفسَهم فيها، مغفلين مهمَّاتهم الأوَّلية، التي يملكون لها القدرة والتأهيل.

ومما يؤثر عن الخليفة الراشد **عمر بن الخطاب** – رضي الله تعالى عنه – قوله: «إنني أحمل همَّ الدعاء ولا أحمل همَّ الإجابة». والإنسان قادر على الدعاء، في كل وقت، وفي كل مكان، إلا المكان الذي ينهى فيه عن الذِّكر. ولكن الإنسان غير موكل بالإجابة، أو بتحرِّي الإجابة من الله تعالى. وتقتضي إرادة الله تعالى أن يكون للدعاء أثرٌ، والله تعالى يحبُّ أن يلحَّ العبدُ عليه في الدعاء، ويتوجَّه إليه بالطلب. ولكن مسالة الاستجابة متروكة لحكم الله تعالى وإرادته وقدره، فإمَّا أن يستجيب للداعي بما

دعا، أو يدفع عنه ضررًا، أو يحفظ له دعاءه في يوم لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم. وربَّما يكون الداعي لم تتحقَّق فيه أسباب الاستجابة، إذا إن للدعاء آدابًا، وله مقوِّمات، فالإصرار على المعصية قد يكون من أسباب عدم الاستجابة، وعدم ردِّ المظالم إلى أهلها مدعاة لعدم الاستجابة. وعدم إقرار ربوبيَّة الله تعالى يتنافى مع التوجُّه إليه بالدعاء.

ومما يمكن أن يقاس على الدعاء العملُ على العموم، فإن علينا أن نحمل همَّ العمل، وليس علينا حملُ همِّ النتائج، وهذا قد يصدق على أي عمل. فالداعية إلى الله تعالى يحمل همَّ الدعوة، فيما يتعلَّق بمقوِّماتها، من العلم والفقه والصبر والتحمُّل والرفق، وغيرها، ولا يحمل همَّ نتائج الدعوة إلى الله، في وصفه مقياسًا لما يقوم به. وهناك من قد يتوقَّع تجاوب الناس مباشرة مع دعوته، وهناك من قد يتوقَّع تغيير وضع قديم قائم، بمجرَّد أن يدعو الناس إلى نبذه، والترفُّع عنه، فإذا ما رأى إصرارَ الناس على هذا الوضع القديم تراه يلوم نفسَه، وينقبض ويتكدَّر، ويبدأ اليأس يصل إلى قلبه وعقله. ومثل هذه النماذج من العاملين تحتاج إلى التوقُّف عن العمل، حتى تدركَ هذه القاعدة، وهي أننا نحمل همَّ العمل، ولا نحمل همَّ النتائج.

ولا تتنافى هذه القاعدة مع مفهوم التقويم، فالتقويم إنما هو منصَبٌّ على الوسائل والسبل، التي يتمُّ العمل بها، وهذا المفهوم مطلوب بين فينة وأخرى، لتعديل مسار العمل، وحذف الوسائل،

التي لا تعين على القيام بالعمل، على الوجه المنتظر والمطلوب، والاستمرار على الوسائل التي أثبتت فاعليتها وتأثيرها، واستحداث وسائل جديدة تحلُّ محلَّ الوسائل القديمة، المستغنى عنها.

وقد يكون من أسباب سوء النتائج سوء الأداء، أو سوء العمل، أو سوء الوسائل، التي ينفَّذ من خلالها المقصود، وعندها يتحتَّم التقويم وإخضاع الوسائل للزيادة والحذف والتعديل. وهذه مسألة إدارية مدركه ومعروفة، ولا تحتاج إلى مزيد من التوضيح. وفيما عدا إخضاع العمل للتقويم، تظلُّ النتائج مسألةً خارجة عن حدود اهتمامات الناس.

ونحن ندرك أن كثيرًا من الطلبة والطالبات، مثلا، يجدُّون في المذاكرة، ولكن جزءً منهم يتعثَّر في مادَّة، أو في موادَّ. كما ندرك أن كثيرًا من الآباء والأمَّهات يجدُّون في تربية أولادهم تربية صالحة، ومع هذا يظهر بعض الأولاد في صورة ليست مطلوبة ولا مرغوبًا فيها، ولا تنبئ عن نتيجة حسنة للتربية ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾. (القصص ٥٦). إذًا نحن مطالبون دائمًا بالعمل في كل مجالات العمل، وبذل قصارى جهدنا في افتراض أن النتائج ستكون على المؤمَّل، فإذا ما ظهرت النتائج دون المؤمَّل، أو أحيانًا بعيدة عن المنتظر، نكون قد أعذرنا، وبرئت الذمَّة في بذل المستطاع.

إن الرغبة الملحّة في تغيير المنكر لا تعني، بالضرورة، تغيير المنكر، كما أن تعلُّم السباحة لا يعني، بالضرورة، القدرة على السباحة. والمنكر المتأصِّل في المجتمع، أي مجتمع، لا يزول بمجرَّد الرغبة في زواله، والرغبة الملحّة في إصلاح الخلل في مجال من مجالات الحياة لا يعني الإصلاح وزوال الخلل. فلكلٍّ شيء أسبابه، ولزوال الشيء أسباب يزول بها، كذلك.

ويكفي أن يقترن العمل بالرغبة في إثبات شيء، أو في إزالة أمر، ثم بعد ذلك يُغضُّ النظر عن مدى الإثبات أو مدى الزوال، والزمن الذي يثبت فيه المراد إثباته، أو يزول فيه المراد زواله. وانتظار النتائج كاستعجال استجابة الدعاء، قد يفسد العمل، كما يفسد استعجال استجابة الدعاء الاستجابةَ للدعاء، وعلينا بالعمل، كما علينا بالدعاء.

--- --- ---

الوقفة الثانية عشرة: الصَّبرُ

باستعراض مادَّة صَبَرَ في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمَّد فؤاد عبدالباقي – رحمه الله تعالى –، وبحصر عدد المرَّات التي وردت فيها هذه الكلمة في القرآن الكريم، يتبيَّن أنها قد بلغت مئةً وثلاثَ (١٠٣) مرَّات. وعن أحمد بن حنبل – رحمه الله تعالى – أن الله تعالى قد ذكر الصبر في القرآن في نحوٍ من تسعين موضعًا.[١]

وكنت، عند هذا الاستعراض، أعاني من ضيق، كما يعانيه كلُّ بشر من ولد آدم على هذه البسيطة، فالمعاناة من الضيق دليل على الحياة، وعلى التفاعُل معها، ولذلك يأتي الأمر بالصبر عليها وعلى شدائدها، وهي كثيرة، ولكنها تهون، عندما يتذكَّر الواحد منَّا أنه مأمور بالصبر.

والصبر هو: «حبس النفس عن الجزع والسُّخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش»،[٢] وقيل: «إن الإيمان نصفان: نصفٌ صبرٌ، ونصفٌ شكرٌ».[٣]

---

(١) انظر: مجد الدين محمَّد بن يعقوب الفيروزآبادي. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز. – ٦ ج. – بيروت: المكتبة العلمية، د. ت. – ٣: ٣٧١ – ٣٨٣.

(٢) انظر: مجد الدين محمَّد بن يعقوب الفيروزآبادي. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز. – المرجع السابق. – ٣: ٣٧١ – ٣٨٣.

(٣) انظر: مجد الدين محمَّد بن يعقوب الفيروزآبادي. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز. – المرجع السابق. – ٣: ٣٧١ – ٣٨٣.

ونُصاب بصدمة قوية، قد تكون وفاة أب، أو أمٍّ، أو أخٍ، أو أختٍ، أو زوجٍ، أو ابنٍ، أو ابنةٍ، ثم نتذرَّع بالصبر، وإنما الصبر عند الصدمة الأولى، ليس في الوفاة فحسب، بل في أي صدمة تمرُّ بنا في حياتنا. وتمرُّ بنا صدماتٌ كثيرة، قد لا تكون جميعها كبيرة، ولكنها صدمات. ويمنعك الطبيب من التنعُّم بأنواع الغذاء المباح، بعد أن كنتَ محرومًا منه في بداية حياتك: بسبب الفقر الذي صبرت عليه، حتى أعفاك الله تعالى منه، وصرت قادرًا على الاستمتاع به، لكن الطبيب يقف لك بالمرصاد، فهذا فيه سُكَّر، وهذا فيه دهون مشبَّعة، وهذا فيه ملح زائد، ثم تصبر على طعام لا سُكَّرَ فيه، ولا دهونَ، ولا ملحَ زائدًا أو غيرَ زائد. وصبرك هذا صبر شبه قسري، لأنك إذا لم تصبر على هذا النوع الجديد من الحرمان، فإنك لن تستطيع الصبر على ما سينتج عن عدم الصبر على الحرمان من ملذَّات الدنيا المباحة، لاسِيَّما الأكل الطيِّب.

وتتطلَّع في حياتك إلى تحقيق آمال، تخدم فيها فئة، تقع تحت مسؤوليتك، من قريب أو بعيد، وتعمل على ذلك، وتجد الظروف مهيَّأة إلى حدٍّ طيِّب، ولكنك تفاجأ بأن هذه الآمال تحتاج إلى الصبر، حتى تصل إليها، ولن تبلغ المجد حتى تلعق الصبر، ولذا نجد أن هناك بقولا طعمها مرٌّ، مرارةً عظيمة، لكنها مفيدةٌ، وتُسمَّى الصبر:

الصَّبْرُ مِثْلُ اسْمِهِ مُرٌّ مَذَاقَتُهُ   لَكِنْ عَوَاقِبُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ

ونماذج كثيرة في هذه الحياة تحتاج منَّا إلى الصبر والمصابرة، لا ينسى منها تربية الأولاد، بنين وبنات، وحثُّهم على الخير: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾، (طه ١٣٢). .ولا يُغفلُ منها الصبر على الابتلاء بالأمراض الحسية والمعنوية، ولا ينسى منها الصبر على الحسود، ومن الحسَّاد من يحسدك حتى على الموت:

اصْبِرْ عَلَى مَضَضِ الْحَسُوْدِ فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهْ
فَالنَّارُ تَأْكُلُ نَفْسَهَا إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهْ

وتجد أنك بحاجة إلى كتاب يكون بين يديك، في حلِّك وترحالك، يذكِّرك بالصبر على نوائب الدهر، التي تواجهك في شتَّى مجالات حياتك، ثم تحتسب الأجر والثواب من الله تعالى على صبرك: ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾. (الزمر ١٠). وأحسبُ أن المكتبة العربية لا تخلو من هذا الكتاب الذي تتَّبع الأمم الصابرة، وأبرز نتائج صبرها، سواء أكان من كتب التراث أم من المؤلفات الحديثة.

وبعد هذا كله ألا يليق بنا أن نتشبَّث بهذه النعمة، الصبر، التي ترفع عنا همومًا كثيرة، لا نملك أن نحملها، ونحن من الضعف بحيث تهدُّنا لو لم نتذرَّع بالصبر، ونتواصى به فيما بيننا،

فلا نخسر مثل بقيَّة الناس الذين لا يتواصون بالصبر ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝ ﴾. (العصر ١-٣).

وأخيرًا، فإنه من المهم القول إنه كلما زاد إيمان المرء زاد صبره على الشدائد، مهما كان وقعها، والمؤمنون أكثر صبرًا من غيرهم، وبالتالي نجد منعًا شرعيًا من الجزع، والتعبير عن هذا الجزع، بأي شكل من أشكال التعبير المذمومة، لأن ذلك فيه دلالةً على ضعف الإيمان.

--- --- ---

أهم المراجع
التي تمَّ الاستئناس بها في هذه الوقفات

(١) أبو خليل، شوقي. **التسامُح في الإسلام: المبدأ والتطبيق**. – ط ٢. – دمشق: دار الفكر، ١٩٩٨م. – ١٤٣ ص. – (سلسلة هذا هو الإسلام: ٣).

(٢) أبو زيد، بكر بن عبدالله. **تصنيف الناس الظنِّ واليقين**. – الرياض: دار العاصمة، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م. – ٩٨ ص.

(٣) أبو عباة، إبراهيم بن محمد. **الصراع بين الحقِّ والباطل**. – الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٢هـ/١٩٩١م. – ٨٥ ص.

(٤) أبو فارس، محمَّد عبدالقادر. **النظام السياسي في الإسلام**. – ط ٣. – عمَّان: دار الفرقان، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م. – ٢٧٥ ص.

(٥) إدريس، جعفر شيخ. **الإسلام لعصرنا**. – الرياض: مجلة البيان، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م. – ص ١٢٧ – ١٢٣. – (سلسلة كتاب المنتدى).

(٦) أرسلان، شكيب، الأمير. **لماذا تأخَّر المسلمون ولماذا تقدَّم غيرهم؟**/ تقديم محمَّد رشيد رضا، مراجعة خالد فاروق. – القاهرة: دار البشير، (١٩٨٥م). – ١٦٨ ص.

(٧) أرقه دان، صلاح الدين. **التخلُّف السياسي في الفكر الإسلامي المعاصر**. – بيروت: دار النفائس، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م. – ٢٥٦ ص.

(٨) أسد، محمد. **الطريق إلى الإسلام**. – ط ٩. – الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م. – ٣١٣ ص.

(٩) إشبنغلر، أسوالد. **تدهور الحضارة الغربية**/ ترجمة أحمد الشيباني. – ٢ مج. – بيروت: دار مكتبة الحياة، (١٩٦٤م).

(١٠) أمين، جلال. **عصر التشهير بالعرب والمسلمين: نحن والعالم بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١**. – القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٤م. – ١٤٣ ص.

(١١) أوريدة، حسن. **الاستغراب أو نظرة الآخر إلى الغرب**. – محاضرة ألقيت في افتتاح نشاط مؤسسة إدمون عمران المليح، ١٤٢٥هـ.

(١٢) أومليل، علي. **سؤال الثقافة: الثقافة العربية في عالمٍ متحوِّل**. – الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٥م. – ١٥٩ص.

(١٣) أيُّوب، سعيد. **المسيح الدجَّال: قراءة سياسية في أصول الديانات الكُبرى**. – القاهرة: دار الاعتصام، ١٩٨٩م. – ٣٣٦ ص.

(١٤) باترسون، توماس. **الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ**. – القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٤م. – ١٢٠ ص.

(١٥) البادي، عوض. **الرحَّالة الأوروبيون في شمال الجزيرة العربية: منطقة الجوف ووادي السرحان ١٨٤٥ – ١٩٢٢م**. – ط ٢. – بيروت: الدار العربية للموسوعات، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م. – (سلسلة رحلات في بلاد العرب: ١).

(١٦) بلقزيز، عبدالإله. **الإسلام والسياسة: دور الحركة الإسلامية في صوغ المجال السياسي**. – الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠١م. – ٢١٨ ص.

(١٧) بلقزيز، عبدالإله. **نهاية الداعية: الممكن والممتنع في أدوار المثقفين**. – الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٠م. – ١٧٦ ص.

(١٨) بو دبوس، رجب. **العولمة بين الأنصار والخصوم**. – المايه، ليبيا: تالة، ٢٠٠٢م. – ١٥٣ ص.

(١٩) بوكاي، موريس. **القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم: دراسة الكتب المقدَّسة في ضوء المعارف الحديثة**. – ط ٢. – القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠٤م. – ٢٩١ ص.
وبالإنجليزية.
Maurice Bucaille. *The Bible the Qur'an and Science*. – Translated from French by: Alastair D. Pannell and the Author. Indianapolis: North American Trust, 1978. – 253 p.

(٢٠) تاكيه، راي ونيكولاس غفوسديف. **نشوء الإسلام السياسي الراديكالي وانهياره**. – بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٥م. – ٢٧٩ ص.

(٢١) تشومسكي، نعوم. **الحادي عشر من أيلول: الإرهاب والإرهاب المضادّ**/ ترجمة ريم منصور الأطرش. – دمشق: دار الفكر، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م. – ١٨٠ ص.

(٢٢) التويجري، عبدالعزيز بن عثمان. **العالم الإسلامي في عصر العولمة**. – القاهرة: دار الشروق، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م. – ٢٢٩ ص.

(٢٣) ابن تيمية، أحمد. **مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية**. – ٣٧ مج/ جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمَّد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي. – الرياض: دار عالم الكتب، ١٤١٢هـ/١٩٩١م. – ٢٨ :١٢٧.

(٢٤) جرجس، فوَّاز. **أمريكا والإسلام السياسي: صراع الحضارات أم صراع المصالح؟**/ ترجمة غسَّان غصن. – بيروت: دار النهار، ١٩٩٨م. – ٣٦٢ ص.

(٢٥) الجليند، محمد السيِّد. **منهج السلف بين العقل والتقليد: تصحيح مفاهيم، درء شبهات، ردُّ مفتريات**. – القاهرة: دار قُباء، ١٩٩٩م. – ٢٠٠ ص.

(٢٦) الجوهري، علي. **الإسلام والعالم: هل الإسلام هو الخطر الأخضر؟ مقدمة عتاد الجهاد لأحمد ديدات**. – القاهرة: دار البشير، (١٩٩٣م). – ١٣٦ ص.

(٢٧) الحارثي، فهد العرابي. «موقعنا في الكونية الإعلامية الجديدة: العولمة والفضائيات العربية». – **محاضرة أُلقيتْ**

بمكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض، ١٤١٩/٨/١٧هـ
- ١٩٩٨/١٢/٦. - ٦٦ ص.

(٢٨) الحسيني، خلف محمَّد. **اليهودية والمسيحية والإسلام**. - القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٤هـ. - ٢٢١ ص.

(٢٩) الحصيِّن، صالح بن عبدالرحمن. **قضايا بلا حدود**. - الرياض: الإسلام اليوم، ١٤٢٥هـ. - ١٤٥ص.

(٣٠) الحمود، عبدالله بن ناصر. **من اين أُتينا؟: محاولة لفهم الواقع الذي استعصى**. - الرياض: المؤلِّف، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م. - ٢٤٨ ص.

(٣١) حنفي، حسن. الغرب والبحث عن عدوٍّ. - ص ٢٣٨ - ٢٥١. في: **الإسلام والغرب: صراع في زمن العولمة**. - تأليف مجموعة من كُتَّاب العربي. - الكويت: مجلة العربي، ٢٠٠٢م. - (سلسلة كتاب العربي: ٤٩).

(٣٢) الحوالي، سفر بن عبدالرحمن. **العلمانية: نشأتها وتطوُّرها وآثارها**. - مكة المكرَّمة: جامعة أمِّ القرى، ١٤٠٢هـ.

(٣٣) الدعيج، علي بن عبدالرحمن. (الاستغراب) وإمكانية تدريسه في الجامعات السعودية. - **الجزيرة الثقافية** ع ١١٧ (١٤٢٦/٦/٢٦هـ/ ٢٠٠٥/٨/١م). - ص ١٤.

(٣٤) الركابي، زين العابدين. **مفهوم الوطنية: الوطن المجتبى منذ ١٥ بليون سنة، من أجل تربية وطنية**

متكاملة وفاعلة وراقية. - الرياض: غيناء، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م. - ١٥٩ ص.

(٣٥) رمضان، عبدالعظيم. **الغزوة الاستعمارية للعالم العربي وحركات المقاومة**. - القاهرة: مكتبة الأسرة، ١٩٩٩م. - ٢٠٣ ص.

(٣٦) الزنيدي، عبدالرحمن بن زيد. **السلفية وقضايا العصر**. - الرياض: دار إشبيلية، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م. - ٦٥٣ ص.

(٣٧) زيدان، جرجي. **تاريخ التمدُّن الإسلامي**. - ٣ ج./ راجعه وعلَّق عليه حسين مؤنس. - القاهرة: دار الهلال، ١٩٦٨م. -

(٣٨) السامرَّائي، قاسم. الطباعة العربية في أوروبا. - ص ٤٥ - ١٠٨.

في: **ندوة تاريخ الطباعة العربية حتَّى انتهاء القرن التاسع عشر، ٢٨ - ٢٩ جمادى الأولى ١٤١٦هـ/٢٢ - ٢٣ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٩٥م**. - أبو ظبي: المجمع الثقافي، ١٩٩٦م. -

(٣٩) سعفان، كامل. **إنهم يكرهون الإسلام: هجمة علمانية جديدة ومحاكمة النص القرآني، محمد خلف الله ١٩٤٧ - نصر أبو زيد ١٩٩٣م**. - القاهرة: دار الفضيلة، ١٩٩٤م. - ٢٢٤ ص.

(٤٠) سعيد، إدوارد. **الاستشراق: النشأة، السلطة، الإنشاء**. - تعريب: كمال أبو ديب. - ط ٦. - بيروت: مؤسَّسة الأبحاث العربية، ٢٠٠٣م. - ٣٦٦ ص.

(٤١) السقّاف، أبكار. **الدين عند الإغريق والرومان والمسيحيين.** – القاهرة: العصور الجديدة، ٢٠٠٠م. – ٦٣٥ ص. – (سلسلة نحو آفاق أوسع: ٥).

(٤٢) السقّاف، أبكار. **الدين عند العبريين.** – القاهرة: العصور الجديدة، ٢٠٠٠م. – ١٣١ ص. – (سلسلة نحو آفاق أوسع: ٣).

(٤٣) السقّاف، أبكار. **الدين عند الكلدان والسومريين والبابليين.** – القاهرة: العصور الجديدة، ٢٠٠٠م. – ٧٢ ص. – (سلسلة نحو آفاق أوسع: ٢).

(٤٤) السقّاف، أبكار. **الدين في مصر القديمة.** – تقديم: مهدي مصطفى. – القاهرة: العصور الجديدة، ٢٠٠٠م. – ١٦٤ ص. – (سلسلة نحو آفاق أوسع: ١).

(٤٥) السقّاف، أبكار. **الدين في الهند والصين وإيران.** – القاهرة: العصور الجديدة، ٢٠٠٠م. – ٣٢٨ ص. – (سلسلة نحو آفاق أوسع: ٤).

(٤٦) السوّاح، فراس. **دين الإنسان: بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني.** – ط ٤. – دمشق: دار علاء الدين، ٢٠٠٢م. – ٣٩٩ ص.

(٤٧) السيِّد، رفعت. **العلمانية بين الإسلام والتأسلُم.** – ط ٣. – القاهرة: كتاب الأهالي، ٢٠٠١م. – ٨٥ ص.

(٤٨) شاحاك، إسرائيل. **أسرار مكشوفة: سياسات إسرائيل النووية والخارجية**/ ترجمة هشام عبدالله. — عمَّان: الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٩٧م. — ٢٨٤ ص.

(٤٩) شاحاك، إسرائيل ونورتون ميزفسكس. **الأصولية اليهودية في إسرائيل**. — ٢ ج/ ترجمة ناصر عفيفي. — القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

(٥٠) شاحاك، إسرائيل. **الديانة اليهودية وتاريخ اليهود: وطأة ٣٠٠٠ عام**. — ط ٤/ ترجمة رضى سليمان، قدَّم له إدوارد سعيد. — بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٩٧م. — ١٨١ ص.

(٥١) الشاذلي، محمود. **الوثيقة: الإسلام الخطر، نص الخطاب الذي القاه و. هـ. ت. جايردنر في مؤتمر أدنبرة للتبشير (التنصير) الدولي المنعقد بالقاهرة عشية السبت ١٨ يونيه ١٩١٠**. — القاهرة: المختار الإسلامي، (١٩٨٥م). — ٣٦ + ١٤ ص.

(٥٢) شكري، غالي. **المنتمي: دراسة في أدب نجيب محفوظ**. — القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٩م. — ٤٦٣ ص. (سلسلة مكتبة الدراسات الأدبية: ٥١).

(٥٣) شلبي، عبدالجليل. **صورٌ استشراقية**. — القاهرة: دار الشروق، ١٤٠٦هـ. — ٢٢٤ ص.

(٥٤) الصالح، أحمد بن صالح (مسافر). بعض نفسي. — **المعرفة**. — ع ٢٨ (رجب ١٤١٨هـ). — ص ١٢٨ — ١٢٩.

(٥٥) طرابيشي، جورج. **المثقفون العرب والتُراث: التحليل النفسي لعصاب جماعي**. — لندن: رياض الريِّس، ١٩٩١م، — ٢٨٣ ص.

(٥٦) طرابيشي، جورج. **من النهضة إلى الردَّة: تمزُّقات الثقافة العربية في عصر العولمة**. — بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٠م. — ١٩٢ ص.

(٥٧) الطناحي، محمود محمَّد. **مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي مع محاضرة عن التصحيف والتحريف**. — القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

(٥٨) ابن عاشور، محمَّد الفاضل. **روح الحضارة الإسلامية**. — ط ٤. — بيروت: الدار العربية للعلوم، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م. — ٧٩ ص.

(٥٩) عبدالحكيم، منصور. **نهاية العالم واشراط الساعة**. — دمشق: دار الكتاب العربي، ٢٠٠٤م. — ٢٦٢ ص.

(٦٠) عثمان، أحمد. **تاريخ اليهود**. — ط ٢. — ٣ ج. — القاهرة: مكتبة الشروق، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م..

(٦١) العثيمين، محمد بن صالح. **الصحوة الإسلامية: ضوابط وتوجيهات** إعداد وترتيب أبو أنس علي بن حسين أبو لوز. — الرياض: دار المجد، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م. — ٢١٦ ص.

(٦٢) عزت، عَزةٌ علي. **صورة العرب والمسلمين في العالم**.- القاهرة: مركز الحضارة العربية، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م. – ٣٠٤ ص.

(٦٣) العشماوي، عبدالرحمن بن صالح. **بلادنا والتميُّز: مقالات نثرية**. – ط ٢. الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م. – ٣١٦ ص.

(٦٤) عطاالله، سمير. **قافلة الحبر: الرحَّالة الغربيون إلى الجزيرة والخليج**. – بيروت: دار الساقي، ١٩٩٤م. – ٣٤٨ ص.

(٦٥) العقل، ناصر بن عبدالكريم. **من قضايا الصحوة: حاجة الصحوة إلى الفقه في الدين، العلماء هم الدعاة، ظواهر وسمات يجب تجنُّبُها**. – الرياض: دار المسلم، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م. – ١١٤ ص.

(٦٦) علبي، عاطف. التسامُح والثقافات. – **التسامُح**. – ع ٥ (شتاء ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م). – ٢٩٩ – ٣١٤.

(٦٧) علي، محمَّد مهر. ترجمة معاني القرآن الكريم والمستشرقون: لمحات تاريخية وتحليلية. – ٥٠ ص.
في: **ندوة ترجمة معاني القرآن الكريم: تقويم للماضي وتخطيط للمستقبل**. – المدينة المنورة: مجمَّع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

(٦٨) عمارة، محمَّد. **الانتماء الثقافي**. – القاهرة: دار نهضة مصر، ١٩٩٧م. – ص: ٧٧. – (سلسلة في التنوير الإسلامي: ٦).

(٦٩) عيساوي، أحمد. أثر الاستشراق في استغراب الفكر العربي: سلامة موسى نموذجا من خلال كتابه: الدنيا بعد ثلاثين عاما. - **الفيصل**. - ع ٢٩٢ (شوّال ١٤٢١هـ/يناير ٢٠٠١م). - ص: ٣١ - ٤٠.

(٧٠) الغذّامي، عبدالله. **حكاية الحداثة في المملكة العربية السعودية**. - الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٤م. - ٣٠٤ ص.

(٧١) غريفين، دافيد راي. **تقرير لجنة ٩/١١: التجاهُلات والتحريفات**. - بيروت: الدار العربية للعلوم، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م. - ٣٨١ ص.

(٧٢) دافيد راي غريفين. **شُبُهات حول ٩/١١: أسئلة مقلقة حول إدارة بوش وأحداث ٩/١١**. - بيروت: الدار العربية للعلوم، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م. - ٣٢٦ ص.

(٧٣) غليون، برهان ومحمَّد سليم العوًا. **النظام السياسي في الإسلام**. - دمشق: دار الفكر، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م. - ٣١٢ ص. - (سلسلة حوارات لقرن جديد).

(٧٤) غليون، برهان وسمير أمين. **ثقافة العولمة وعولمة الثقافة**. - ط ٢. - دمشق: دار الفكر، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م. - ٢٤٠ ص.

(٧٥) الفوزان، محمد بن حمود. **الانتفاضة على العلمانية وظهور الأصوليات الدينية**. - بريدة: المؤلف، ١٤٢٣هـ. - ٢٣٨ ص.

(٧٦) القحطاني، محمد بن سعيد بن سالم. **الولاء والبراء في الإسلام من مفاهيم عقيدة السلف**. – الرياض: دار طيبة، ١٤٠٥/١٩٨٥. – ٤٧٦ ص.

(٧٧) قرامي، آمال. **قضية الردة في الفكر الإسلامي الحديث**. – تونس: دار الجنوب، ١٩٩٦م. – ١٢٠ ص.

(٧٨) القرضاوي، يوسف. **الإسلام والعلمانية وجهًا لوجه: ردٌّ علميٌّ على د. فؤاد زكريًا وجماعة من العلمانيين**. – القاهرة: دار الصحوة، ١٩٨٧م/١٤٠٨هـ. – ٢٤٠ ص.

(٧٩) القرضاوي، يوسف. **ثقافة الداعية**. – ط ٨. – القاهرة: مكتبة وهبة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م. – ١٢٨ ص.

(٨٠) القرضاوي، يوسف. **الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرُّق المذموم**. – القاهرة: دار الشروق، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م. – ١٧٦ ص.

(٨١) القرضاوي، يوسف. **الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرُّف**. – الدوحة: رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، ١٤٠٢هـ. – ٢٣١ ص. – (سلسلة كتاب الأمَّة: ٢).

(٨٢) القرضاوي، يوسف. **من أجل صحوة راشدة تجدِّد الدين وتنهض بالدنيا**. – القاهرة: دار الشروق، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م. – ١٨٠ ص.

(٨٣) كاري، جورج ليونارد. تحدِّيات العلاقات بين الديانات الكبرى. – **الاجتهاد**. – ع ٣٠ (شتاء ١٤١٦هـ/١٩٩٦م). – ص ٢٠٥ – ٢١٥.

(٨٤) الكبسي، محمَّد علي. **نشأة الفكر السياسي عند العرب: حفريَّات في مسلَّمات الفكر العربي**. – دمشق: دار الفكر، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م. – ٣٦٨ ص.

(٨٥) ابن كثير، إسماعيل، عمادالدين أبو الفداء. **تفسير القرآن العظيم**. – ٤مج. – بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م. – ١: ٥.

(٨٦) كيبل، جيل. **ثأر الله: الحركات الأصولية المعاصرة في الديانات الثلاث**. – ط ٢/ ترجمة نصير مروَّة. – ليماسول (قبرص): دار قرطبة، ١٩٩٨م. – ٢٢٢ ص.

(٨٧) لِن، إدوارد وليم. **عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم: مصر ما بين ١٨٣٣ – ١٨٣٥**/ ترجمة سهير دسُّوم. – القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٤١١هـ/١٩٩١م. – ٥٩٢ ص.

(٨٨) المؤدَّب، عبدالوهَّاب. **أوهام الإسلام السياسي**. – بيروت: دار النهار، ٢٠٠٢م. – ٢٣١ ص.

(٨٩) مجمَّع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف. **ندوة ترجمة معاني القرآن الكريم: تقويم للماضي وتخطيط للمستقبل**. – المدينة المنورة: المجمَّع، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

(٩٠) مجموعة من المفكِّرين. **السعوديون والإرهاب: رؤى عالمية**. – الرياض: غيناء، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م. – ٥٥٩ ص.

(٩١) محفوظ، محمَّد. **الإسلام والغرب وحوار المستقبل**. – الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٨م. – ٢٣٠ ص.

(٩٢) محفوظ، محمَّد. **الحضور والمثاقفة: المثقَّف العربي وتحدِّيات العولمة**. – الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠م. – ١٦٦ ص.

(٩٣) محمود، زكي نجيب. **قيم من التراث**. – القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩م. – ٢٩٦ ص.. (مشروع مكتبة الأسرة).

(٩٤) محمود، علي عبدالحليم. **التراجُع الحضاري في العالم الإسلامي وطريق التغلُّب عليه**. – المنصورة: دار الوفاء، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م. – ٤٥٦ ص.

(٩٥) المسيري، عبدالوهَّاب وعزيز العظمة. **العلمانية تحت المجهر**. – دمشق: دار الفكر، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م. – ٢٣٤ ص.

(٩٦) المسيري، عبدالوهَّاب وفتحي التريكي. **الحداثة وما بعد الحداثة**. – دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٣. – ٣٦٨ ص. – (سلسلة حوارات لقرن جديد).

(٩٧) مصطفى، نادية محمود. «تحدِّيات العولمة والأبعاد الثقافية الحضارية والقيْمية: رؤية إسلامية». – ص ٤١٧ – ٤٤٦.
في: أبو يعرب المرزوقي. **مستقبل الإسلام**. – دمشق: دار الفكر، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م. – ٤٦٨ ص.

(٩٨) معلوف، أمين. **الحروب الصليبية كما رآها العرب**/ ترجمة عفيف دمشقية. – الجزائر: المؤسَّسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، ٢٠٠١م. – ٣٥٢ ص.

(٩٩) موسى، سلامة. **اليوم والغد**. – القاهرة: دار سلامة موسى، د. ت.

(١٠٠) الميلاد، زكي. **المسألة الثقافية: من أجل بناء نظرية في الثقافة**. – الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٥م. – ٢٥٦ ص.

(١٠١) الميلاد، زكي. **من التراث إلى الاجتهاد: الفكر الإسلامي وقضايا الإصلاح والتجديد**. – الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٤م. – ٣٢٠ ص.

(١٠٢) الناكوع، محمود محمد. **الصحوة الإسلامية وقضايا للحوار**. – لندن: دار ابن قُدامة، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م. – ١٨١ ص. – (سلسلة: قضايا ومواقف: ٢).

(١٠٣) ابن نبي، مالك. **شروط النهضة**/ ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبدالصبور شاهين. – دمشق: دار الفكر، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م. – ١٧٦ ص.

(١٠٤) النحوي، عدنان علي رضا. **الصحوة الإسلامية: إلى اين**. – ط ٢. – الرياض: دار النحوي، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م. – ٢٤٦ ص.

(١٠٥) النشَّار، علي سامي. **نشأة الدين: النظريات التطوُّرية والمؤلِّهة**. – الإسكندرية: دار نشر الثقافة، ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م. – ٢٣١ ص.

(١٠٦) النشَّار، مصطفى. **ضدُّ العولمة**. – ط ٢. – القاهرة: دار قُباء، ٢٠٠١م. – ٣٣٢ ص.

(١٠٧) النشمي، عجيل. **صحوة التديُّن والواقع المعاصر**. – ط ٣. – الإمارات العربية المتَّحدة: جمعية الإصلاح والتوجيه الاجتماعي، د. ت. – ص ٣٩.

(١٠٨) النملة، علي بن إبراهيم الحمد. **الاستشراق والدراسات الإسلامية: مصادر الاستشراق والمستشرقين ومصدريتهم**. – الرياض: مكتبة التوبة، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م- ٢٦٢ ص.

(١٠٩) النملة، علي بن إبراهيم. **تأمُّلات في طريق الدعوة**. – الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م. – ٢٥٠ ص.

(١١٠) النملة، علي بن إبراهيم الحمد. **التنصير: مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته**. – ط ٤. – الرياض: المؤلف، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م. – ٢٤٨ ص.

(١١١) النملة، علي بن إبراهيم. **السعوديون والخصوصية الدافعة: خواطر في مفهوم التميُّز في زمن العولمة**. – الرياض: المؤلف، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م. ٢٥٠ ص.

(١١٢) النملة، علي بن إبراهيم. **الشرق والغرب: منطلقات العلاقات ومحدِّداتها**. – ط ٢. – الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٥م. – ١٧٣ ص.

(١١٣) النملة، علي بن إبراهيم الحمد. **مراكز النقل والترجمة في الحضارة الإسلامية**. – ط ٣. – الرياض: المؤلف، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م. – ٢٨٢ ص.

(١١٤) النملة، علي بن إبراهيم الحمد. وبشّر الصابرين: كلمات في رجال تركوا أثرًا. - ط ٢. - الرياض: المؤلِّف، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م. - ٢٩٨ ص.

(١١٥) النملة، علي بن إبراهيم الحمد. وقفات حول العولمة وتهيئة الموارد البشرية. - الرياض: المجلة العربية، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م. - ٦٥ ص. - (سلسلة كتاب ملحق المجلة العربية: ٧٣).

(١١٦) نور، عدلي طاهر. المستشرق الكبير إدوارد وليم لين: حياته ومؤلَّفاته. - القاهرة: (مطابع دار النشر للجامعات المصرية)، ١٩٧٣م. - ٢٩٢ ص.

(١١٧) هاليداي، فريد. ساعتان هزَّتا العالم: ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، الأسباب والنتائج/ ترجمة عبدالإله النعيمي. - بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٢م. - ٢٥٦ ص. وظهر الكتاب باللغة الإنجليزية عن الدار نفسها:

Fred Halliday. *Two Hours that Shook the World*.- London: Saqi Books، 2002.- 256 p.

(١١٨) هيرو، دليب. الأصولية الإسلامية في العصر الحديث/ ترجمة عبدالحميد فهمي الجمال. - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧م. - ٥١٢ ص. - (سلسلة تاريخ المصريين: ١٠٧).

(١١٩) الواعي، توفيق يوسف. **الحضارة الإسلامية مقارنةً بالحضارة الغربية**. - المنصورة: دار الوفاء، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م. - ٨٦٠ ص.

(١٢٠) ولسون، كولن. **سقوط الحضارة**/ نقله إلى العربية أنيس زكي حسن. - ط ٤. - بيروت: دار الآداب، ١٩٨٧م. - ٤١٥ ص.

(١٢١) ولسون، كولن. **اللامنتمي**. - ط ٥. - بيروت: دار الآداب، ٢٠٠٤م. - ٣٣٩ ص.

(١٢٢) ولسون، كولن. **ما بعد اللامنتمي**. - ط ٦/ نقلها إلى العربية يوسف شرورو وعمر يمق. - بيروت: دار الآداب، ١٩٨٧م. - ٢٨٠ ص.